كتابي ١٥

اندريه موروا

فن الحياة



المؤسسة العربية الحديثة

ترجمة
حلمى مراد



القراءة زاد
المعرفة،والتفكيرلتسخير المعرفة
علي مولا



فن الحب

● الحب .. هل هو فن ، أم مجرد غريزة ؟

إذا أردنا الإجابة عن هذا السؤال فينبغى أن نتساءل فى البداية :
ما هو الفن ؟

يرى « بيكون » أن « الفن هو خليط من الإنسان والطبيعة ! » .. وهذا فى الحقيقة هو أصدق وأدق تعريف للفن ..

فنحن فى فن الرسم مثلا نجد الطبيعة تمد الرسام بالمادة الخام للصورة : تمده بالشجرة ، والزهر ، والبحر ، والضوء ، والوجوه البشرية .. ثم يأتى هو — الرسام — فينسق هذه العناصر بحيث ترضى عقول الناس وأبصارهم .

وفى فن القصة أيضاً ، نجد الطبيعة تتكفل بإمداد الروائى بكافة عناصر القصة : بالعواطف ، والرغبات الملتهبة ، والميول المتضادة ، والآثام البشرية .. ويبقى عليه أن يخلط هذه المواد الأولية ويصوغها فى قالب دراما مؤثرة تهز المشاعر وتحرك أوتار القلوب ...

كذلك الحال فى الحب ، باعتباره فناً من الفنون : تهيئ فيه الطبيعة المادة الخام الأولية ، فتقسم البشر إلى جنسين ، وتبث فى كل جنس منهما غريزة حفظ النوع .. ثم تدع للناس مهمة صقل هذه المادة الخام وتهذيبها كما يهوون ، طبقاً لظروف الزمان والمكان .

ولو لم يتول العقل البشرى هذه المهمة لبقى الحب عند البشر كما

كان فى عصور الخليقة الأولى ، آلياً ساذجاً ، مثله مثل الحب بين الكلاب أو بين الخنازير !

ولو تأملنا الحب عند الحيوان ، ثم قرأنا إحدى خطابات الحب البشرى البليغة ، لقدرنا مدى الفارق فى الحب بين الطبيعة والفن .

ومن طريف ما يروى فى هذا الصدد قصة الوالد الذى توجه إلى إحدى المكتبات كى يشترى كتاباً أوصته ابنته بشرائه ، فلما تصفح الكتاب بين يديه سأل البائعة فى لهجة المتردد الخجول :

« لعل الكتاب لا يتضمن كلاماً فى الأمور الجنسية يا آنسة ؟ » ..

فأجابته المرأة فى لهجة من تريد أن تطمئنه : « كلا يا سيدى .. إنه ليس سوى قصة حب ! » .

بواعث الحب

● ولكى نفهم فن الحب ، علينا أن نجيب عن بضعة أسئلة تمهيدية :

فأولا : لماذا يختار الإنسان شخصاً معيناً بذاته يحصر فيه تفكيره ، دون غيره من الناس جميعاً ؟

هناك جوابان لهذا السؤال :

أولهما : أننا خلال فترات خاصة فى حياتنا — لاسيما فى فترة المراهقة ، ثم فى سن الخمسين — نكون بطبيعتنا مهيئين للحب ، إلى درجة تجعل الشاب إذا لم يصادف فتاة يحبها .. خلقها فى خياله ! ..

وإذا لم تصادف الفتاة شاباً تحبه أحبت أبطال الأقاصيص الخيالية ، أو نجوم السينما ، أو معلمى المدرسة .. !

ومغزى ذلك أن الباعث على الحب فى هذه الأحوال هو « الشباب » فى ذاته ، وهو أقوى بواعث الحب على الإطلاق .. ففيه يكون الجسم متعطشاً إلى « نصفه الآخر » المنتظر ، فيغرى صاحبه بالوقوع فى حب أول شخص « مقبول » تضعه الأقدار فى طريقه .. !

وباعث آخر على الحب هو « الظرف » الذى يلتقى فيه الرجل والمرأة لأول مرة .. فذوو الطبع الخجول مثلا قد يندفعون فى مغامرات غرامية « اضطرارية » .. من قبيل ذلك ما حدث لعدد كبير من سجينات الثورة الفرنسية ، اللواتى كن فى ماضيهن زوجات فاضلات ، حتى التقين فى السجن بأبطال الثورة من الرجال ، فتنبهت فيهن مواهب الحب التى كانت خامدة قبل ذلك .

وهناك صور مختلفة للبطولة التى تجذب المرأة إلى ذراعى الرجل .. فمنها شهرة الرجل ، أو ثراؤه ، أو سلطانه ونفوذه ، أو ما عدا ذلك من صور التفوق التى تكلل الرجل فى نظر المرأة بهالة من السناء والبهاء تغطى كل عيوبه ونقائصه ..

وفى أحيان كثيرة يكون تفوق طيار فى مغامرة جوية ، أو ممثل فى رواية سينمائية أو مسرحية .. أو رياضى فى مباراة رياضية .. أو خطيب فى خطبة أو محاضرة سياسية أو أدبية .. بداية لحب جارف يكتسح جميع العقبات التى تقف فى طريقه !

الحب من أول نظرة !

● لكن هناك جواباً آخر ، أو تعليلا ثانياً للحب .. هو أنه من قبيل حوادث « القضاء والقدر » التى لا يستطيع أحد تفسير أسبابها أو مقاومة تيارها !.. وهذا ينطبق أكثر ما ينطبق على الحب السريع الخاطف الذى يطلقون عليه « الحب من أول نظرة ! » .

والقائلون بهذه « النظرية » يسوقون دليلا عليها أسطورة يونانية قديمة مؤداها أن الآلهة كانوا قد شطروا الإنسان فى بدء الخليقة شطرين ، فصار كل شطر يبحث عن شطره الآخر ، حتى إذا ما التقيا فى مناسبة ما سرى بينهما ذلك التيار العنيف الذى يسمونه « الحب من أول نظرة » أو « الحب الصاعق » .. فإذا كل منهما يحس أن الآخر يأسره بجماله ويسحر حسه ولبه بجاذبيته وحديثه ، بحيث تغدو اللحظة التى يقضيها معه كأنما هى لحظة يقضيها فى الجنة !.. وهكذا يندفع فى حبه والتعلق به بكل عاطفته وحواسه دون ما تحفظ .. وفى حمى ذلك الحب يخيل إليه أن صوت صاحبه هو الموسيقى بعينها ، وحديثه هو السحر الحلال .. والحب الذى من هذا النوع ، الذى مبعثه إعجاب العقل وشوق الجسد فى وقت واحد ، هو الحب المثالى الذى يحقق لطرفيه المتعة الكاملة ..

لكن فريقاً من الناس ـ رجالا كانوا أو نساء ـ لا تصادفهم فرصة الحب الاضطرارى ، ولا الحب من أول نظرة .. فيبحثون

مضطرين عن شخص يحبونه وهم بملء حريتهم واختيارهم .. فهل في مقدور « فن الحب » أن يعطى أفراد هذا الفريق بضع نصائح عامة تساعدهم على أن يحسنوا الاختيار ؟

قد يرى البعض في مجال كهذا أن الصبر ، والمرح ، والطبع السمح ، هي صفات أو فضائل يلزم أن تتوافر في شريك الحياة كي يسعد به شريكه الآخر .. ولما كانت هذه الصفات لا تتوافر عادة إلا في الأشخاص الأصحاء جسماً وعقلا ، فإنه ينبغي أن يتحرى المرء بكل دقة وعناية في اختيار الشخص المطلوب ، بل وانتقاء أسرة ذلك الشخص أيضاً ، باعتبار أن السعادة لا تنبت إلا في التربة التي أثبتت من قبل أنها تستطيع إنباتها .. وأن الحب لا يلبث أن يذبل ، ويضمحل في جو الحزن والكآبة ..

وقد يرى البعض أيضاً أن المرأة تستمتع بالسعادة عادة في كنف الرجل المجتهد النشيط ، وأن الرجل يجد نفس السعادة في صحبة المرأة العاطفية الخاضعة له .. وقد ترى أغلبية النساء أن الزوج المثالي الذي يحلمن به هو الذي يتيح لهن فرصة السيطرة عليه .. لكن الحق الذي لا مرية فيه أنه ما من امرأة ذاقت طعم السعادة مع رجل جبان ضعيف .. كما لا يوجد رجل وجد السعادة الحقة مع زوجة « مسترجلة » تنقصها الأنوثة الكافية !

والواقع أن الظروف يندر أن تدع للإنسان فرصة اختيار شريك الحياة بملء حريته ومطلق إرادته ، وهذا من حسن حظه ..

لأن حكم الغريزة في هذا الباب — برغم أخطائها — أسلم عاقبة من حكم العقل والذكاء ! .. والشخص العاقل هو الذي لا يسائل نفسه حين يرى شخصاً يحظى بإعجابه : « هل أترك قلبي يحبه ؟ » .. لأن الحب الصحيح ينبغي أن يصدر من القلب قبل أن يفكر العقل في أمره .. ومولد الحب — كمولد كل كائن حي — شيء من عمل الطبيعة أولا وأخيراً .. أما عمل الإنسان في صدده — وهو ما نسميه «فن الحب» — فيأتي دوره في المرتبة الثانية .. وهنا يحسن بنا أن نحدد اللحظة المناسبة التي تبدأ فيها هذه المرحلة ، فيبدأ الفنان في صياغة ما قدمته له الطبيعة من المواد الأولية .

كيف يبدأ الحب ؟

● يقول « ستندال » في كتابه الممتع الذي أطلق عليه «في الحب» (De L'amour) إن الحب يبدأ عادة «بتصادم» يقع في النفس بتأثير الميل ، أو الإعجاب أو الشهرة ...

فنحن نرى مثلا في قصة تولستوى المشهورة « أنا كارنينا » أن البطل فيرونسكى « يغادر القطار ، بعد أن رأى أنا كارنينا ، محدثاً نفسه في تفكير واستغراق : « لكم هي جميلة ! .. ولكن ترى ماذا أرادت بإطالتها النظر إلى ..؟ » .

أما في قصة بلزاك المعروفة « أوجيني جرانديه » فنحن نرى بطل القصة « شارل » يقتحم حياة ابنة عمه ذات يوم في صورة الرجل

التعس المعذب .. فتقع فى حبه منذ تلك اللحظة إلى نهاية حياتها .. !

فإذا أحدث ذلك « التصادم » أثره، وركز انتباه المرء فى شخص بذاته ، صار « الغياب » عاملا هاماً يعين على إنماء الحب وتمكينه فى النفس .. ذلك أن سلطان المرأة الأكبر هو فى تأخرها عن موعدها مع الرجل أو تغيبها عنه .. لأن التقاء الشخصين اللذين حدث بينهما التصادم – فى المرحلة الأولى للحب – يساعد على فضح نقائص كل منهما ومواضع الضعف فيه .. فى حين أن الغياب فى هذه المرحلة يجعل كلاهما فى نظر الآخر أمنية عزيزة مشتهاة .. حتى لكأنه بعض ما فى الجنة من حور عين !

ويطلق « ستندال » على هذه المرحلة من مراحل الحب « مرحلة التبلور » ، إذ يشبهها بقطعة الخشب حين تترك مدة ما فى منجم من مناجم الملح فتكتسى ببلورات براقة تعطيها هيئة الأحجار الكريمة اللامعة ومظهرها !

اللقـــاء الثـانى

● فإذا تمت مرحلة « التبلور » هذه صار المحبوب فى خيالنا شخصاً ممتازاً يفوق حقيقته بكثير .. وفى هذا يقول الأديب القديم « مارسيل بروست » : « إن الشخص منا حين يحب ، لا يحب فى الواقع شخصاً حقيقياً ، بل وهماً خلقه فى خياله .. والجمال الذى نضفيه على المحبوب إنما ينبع من أنظارنا نحن لا من صورته هو ! » .

وبعد أن يتم هذا التبلور – غيابياً – يصبح فى الإمكان التفكير فى ترتيب لقاء ثان مع المحبوب ، دون أن يكون هناك مجال للخوف من أن يؤثر هذا اللقاء على الحب الناشئ تأثيراً ضاراً .. لأن عاطفتنا تتكفل ساعتئذ بإخفاء صورة الشخص الحقيقية عن عيوننا ، وجعلنا لا نرى غير الصورة « المتبلورة » البراقة التى رسمها خيالنا ، ولا نسمع الأحاديث والتعليقات الدالة على عقلية سخيفة جوفاء ، ولا نتنبه إلى عيوب الشخص الذى نحبه .. لأن الحب إنما ينبعث فى هذه المرحلة الثانية من داخل نفوسنا ، لا من خارجها ! .. وفى هذه المرحلة يكون الحب عادة رحيقاً من السعادة الصافية التى لا تشوبها شائبة .

لكن النار لا يمكن أن تستمر فى الاشتعال بغير وقود ... وهنا يكون وقود الحب هو الأمل ، والتشجيع بأية صورة من الصور : بنظرة ، أو ضغط على اليد ، أو كلمة مديح ... إلخ .

الشك يحيي الغرام

● فإذا استمرت علامات التشجيع هذه – بوضوح – أنتجت حباً متبادلا ، بدلا من الحب الذى هو من طرف واحد .. لكن المغالاة فى تأمين العاشق على مكانته عند معشوقه قد تنتج عكس الغرض منها ؛ قد تحطم الحب وتهدمه من أساسه ! .. فإن غذاء الحب لدى الكثيرين هو الشكوك ، والتقلب المستمر بين الفتور والحرارة ..

ولا صلة لهذا فى الغالب بعواطف الشخص الحقيقية .. وهكذا قد يرى العاشق فى حركة من محبوبه أنها صادرة عن احتقار . مع أنها قد تكون عن خجل أو تواضع .. وفى مقابل هذا قد يكون فضول العاشق – الذى لا يشاركه فيه غير رجل البوليس السرى ! – سبباً فى تأويل المضايقة الناجمة عن الصداع مثلا . بأنها تدبير شر .. إلى آخر التفاهات التى يبنى عليها المحبون فى العادة أكثر معتقداتهم . فتراهم يحللون النظرات والكلمات . ويعللون الإشارات والحركات . ويذهبون مذاهب شتى فى استنتاج علة الجفاء الذى يلقونه ممن يحبون .. وكلما غمضت تلك العلة فى نظر المحب – ولا علة فى الواقع ولا جفاء ! – ازداد تفكيره فى محبوبته . وتمكن حبها فى قلبه وعقله .. فالحب الناتج عن القلق أشبه بالشوكة التى تنغرس وتتوغل فى جسم المصاب كلما حاول انتزاعها !

فالتقلب إذن يزيد الحب حدة واشتعالا .. ومثل الرجل الذى يترك نفسه فريسة لامرأة مراوغة كمثل القطة التى تحاورها ببكرة الصوف . فتدنيها منها إذا ابتعدت ، وتبعدها عنها حين تقترب !.. ومطاردة البعيد . والفرار من القريب . خصلة من الخصال الطبيعية فى البشر ، كما فى القطط !

لكن المشاهد أن مغالاة المرأة فى استخدام هذا السلاح قد تحدث عكس المقصود منها . فتقتل الحب بدل أن تلهبه . كما حدث للعاشقة الشهيرة « مدام ريكامييه » مع حبيبها الروائى المعروف « بنيامين

كونستان » .. مما فصله المسكين فى قصته الخالدة « أدولف » ، التى ليست غير قصة حب مؤلفها نفسه !

المرأة تعبد القوة .. أو المال !

● وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال :

إذا أحب رجل امرأة ولم تبادله هى الحب ، فهل ثمة وسيلة تلين قلبها ؟

الجواب يختلف باختلاف العصر والبيئة :

فى العصور القديمة البدائية كان الرجل يستخدم سلاح القوة الجثمانية .. كان يخطف المرأة التى يحبها ويفر بها ، فكان الأمر ينتهى بها إلى أن تقع فى هواه !.. ولعل ذلك لأنه اختارها دون سواها من النساء ، فشرفها بهذا الاختيار .. أو لأنه صار سيدها ومولاها ، وأخضعها لسلطانه بالقوة ..!

وهكذا كان سلاح القوة الجثمانية وسيلة الرجل إلى ترويض المرأة المتمردة فى العصور الأولى .. ثم تلاه فى العصور التالية سلاح المال ، وسلاح القوة « المعنوية » كالشهرة أو النفوذ .. وفى الأسطورة اليونانية نرى الإله « جوبيتر » قد ظفر بمحبوبته « داناى » حين تخفى فى ثياب الثرى الذى يلعب بالذهب !

لكن حب المرأة المستعبدة لسيدها خليق أن لا يرضى غرور الرجل الأبى ، فنحن نريد أن « تختارنا » المرأة ، لا أن « تتحملنا » !.

وغزو قلب المرأة لا يكون ممتعاً إلا إذا كانت تملك كامل حريتها ، لذلك يندر أن يحب « السلطان » نزيلات الحريم ، لأنهن سجينات لا إرادة لهن .. !

• لكن العكس المطلق صحيح أيضاً .. فالمرأة التي تزخر بها الشواطئ في الصيف قلما توحي بالحب أو تحرك عاطفة الرجل جدياً . لا لشيء إلا لأنها طليقة مباحة أكثر مما يجب !.. وهل يكون للانتصار في الحب لذة حين لا يوجد حجاب ، ولا حاجز ، ولا عصمة ذاتية تقف في طريقه ؟!

أما حين تكون المرأة صعبة المنال ، فإنها تكون هدفاً لمطاردة حامية من الرجل .. فالشاب المراهق الذي يشغف حباً بممثلة لم يرها إلا على خشبة المسرح ، ينسج حولها هالة من الصفات الخارقة التي يخيل له من سماع صوتها ورؤية وجهها أنها تتحلى بها ، في حين أنها تكون مجردة منها تماماً .. وعندما يراها تمثل إحدى مسرحيات دي موسيه ، أو شكسبير ، يضفي عليها ما في الشخصية التي تمثلها من سحر وجاذبية ، ويغفل عن شخصيتها الحقيقية ، وسنها الحقيقية .. والتجاعيد التي في وجهها ، والتي تخفيها أضواء المسرح المتألقة !.. كما يجهل كل شيء عن طبعها السيئ ، وغرورها المرذول ، لأنه لم يعش معها . وفي هذا يقول بايرون : « إنه لأسهل عليك أن تموت من أجل المرأة التي تحبها ، من أن تعيش معها ! » .

كذلك الأمر بالنسبة للفتاة التي تعشق مؤلفاً روائياً ، فهي تسبغ



كان الرجل يستخدم سلاح القوة الجثمانية .. كان يخطف المرأة التي يحبها ويفرّ بها ..

عليه جلال أبطال قصصه ، غافلة عن « الرومانتيزم » الذى يشل مفاصله ، وعسر الهضم الذى يعانيه ، جاهلة كل شيء عن بلادته وكسله .. أو عصبيته وحدة طبعه ... إلخ .

والخلاصة أنه كلما كان الشخص بعيد المنال ، سهل عليه أن يحظى بإعجاب الناس ..

فن الغـــزل

● وإذا كان الأمر كذلك .. فهل يحسن بالمحب الذى يريد أن يظل محبوباً ، أن يبقى مجهولا .. على أضواء القاعدة السالفة ؟

لا يستطيع أحد أن يقول بهذا ، لأن العاشق لن يلبث أن يحس فى نفسه رغبة جارفة فى أن يصير معشوقاً .. فما هى الوسـائل التى يستطيع بها أن يصل إلى هدفه المرموق ؟.. فى الماضى كانت الساحرات يصفن له جرعات من أدوية سحرية ناجعة المفعول . كما يحدثنا الشعر القديم عن عصر « أوفيد » و « تيوكريتس » . بل إننا لا نزال نشاهد فى العصر الحاضر — فى غرف حقيرة بأحياء باريس ولندن ونيويورك — عجائز كئيبات الخلقة يتلقين نفس السؤال الحائر القلق من أفواه الشباب مئات المرات فى اليوم الواحد : « ماذا أفعل كى أجعله — أو أجعلها — تحبنى ؟ » .

وفى هذا المجال تجيبنا التجارب البشرية الطويلة ببضع وسـائل ، ومراسم ، ومناورات ، وحيل خاصة ، هى التى نطلق على مجموعها

« فن الغزل » . ومنها ما هو بدائى بسيط يشاركنا فيه حتى الحيوان .. ومنها ما هو معقد راق ابتكره ذهن الإنسان ..

وفيما يلى أهم هذه الوسائل :

أولا : العناية بالزينة

● من أكثر وسائل « لفت النظر » شيوعاً : استخدام الزينة .. وقد سبقتنا الطبيعة إلى هذا المضمار : فالأزهار تجذب بألوانها الحشرات كى تلقحها فى الوقت المناسب .. والفراشة واليراعة كلتاهما تضيء نفسها ليلا كى تفهم جنسها الآخر أنها متأهبة للحب !

وهكذا المرأة .. تتزين بأفخر الثيـاب والجـواهر كى تعجب الرجل فيختارها .. فالزينة فى المرأة غريزة طبيعية !

ثانياً : المنافسة على التفوق

● ومن وسائل « لفت نظر » الجنس الآخر محاولة إتيـان ما يعجز عنه الآخرون ، فترى كل عاشق يسعى جهده كى يظهر براعته فى فنه . وطرائق ذلك جد متنوعة : فبعض الطيور يغوص فى الـبرك ليخرج الأعشاب المائية لرفيقاته . وحين سئل الأديب « شاتوبريان » عما يبغى من رحلته إلى الشرق أجاب : « أبغى الشهرة ، حتى أظفر بالمعجبات ! » .. وقد عاد من سياحته فى الأقطار الشرقية بعبارات غزل خالدة لمدام دى نواى !

وكم من رواية ألفت كى تجد فيها النساء تصويراً لعواطفهن قصد

به إثارتهن .. مثال ذلك قصة « المسار الذهبي » للناقد المشهور « سانت بيف » .. ولو تتبعنا بواعث الإلهام التي أوحت إلى عباقرة الموسيقى ألحانهم الخالدة لخرجنا بنتيجة واحدة ، هي أنهم إنما أرادوا بها ترجمة عواطفهم ، والتعبير عن نزعاتهم المكبوتة ..!

وأخيراً فإن لاعب التنس الذى يتقن لعبه ، وسائق السيارة الذى يظهر جرأة فى قيادتها بسرعة طائشة .. والراقص الذى يفتن فى إظهار رشاقته .. كل أولئك ينشد هدفاً واحداً : هو الحظوة بإعجاب المرأة !

ثالثاً : شهرة الشخص فى العشق

● والرجل الذى يذيع صيته كفارس أو « دون جوان » يحظى بإعجاب النساء .. إنما يمسك فى يمينه بصولجان أخطر قوة يمكن استغلالها للتأثير فى العذارى الغريرات ، اللواتى يستسلمن غالباً لإغراء الرغبة فى الاستئثار بعاشق ذائع الصيت ، واستلابه من امرأة منافسة ، بل صديقة !

وهذه الرغبة الغريزية فى النساء رغبة معقدة ، لحمتها الغرور .. وسداها احترام « ذوق » الغريمة والميل إلى تعزيز الثقة بالنفس عن طريق الحصول على نصر عسير مضن !

والعاشق المشهور هو الذى يختار عشيقته فى البداية .. أما بعد أن تتوطد شهرته فى هذا المضمار فإن الوضع ينقلب ، فيخترنه هن .. ويسعين هن إليه .

رابعاً : التلويح بالقوة .. أو الثروة !

● والمرأة تنشد فى الرجل دائماً الأمان والحماية ، فتراها تختار من تتوسم أنه أكفأ الرجال لتحقيق هذه الغاية . وكلما كانت ضعيفة ازداد ميلها إلى الرجل الذى يستطيع — بقوته ، أو بعبقريته ، أو بثروته — أن يكفل لها الحماية والعون ..

خامساً : سلاح الهدايا .. والإطراء

● وللهدايا قيمة كبرى فى استمالة المحبوب ، وهى سلاح تعرفه جميع المخلوقات .. فطائر « البطريق » والحصان يهديان إلى محبوبيهما الحصباء الملونة البراقة .. والعصفور يهدى إلى رفيقته أغصان اللبلاب وأوراق الشجر ، كيما تفرش بها عشهما المشترك .. ذلك أن « عصفورة الجنة » والمرأة سواء فى أن كلتيهما تفكر فى تأثيث عشها حال عثورها على رفيق حياتها .. لذلك كانت خير هدية يقدمها الخطيب لخطيبته حلية تتزين بها ، أو تزين بها بيتها .. أو باقة من الورد فى المناسبات !

ومن أساليب الإهداء إطراء الحب لمحبوبته ، وأكثر أشعار الغزل تتألف من تشبيب وإطراء وإشادة بمحاسن المحبوب ..

والإطراء يروق لكل إنسان فى الغالب ، لأن لكل منا — حتى المعتز بنفسه — مركب نقص يعوزه تعويضه ؛ فالمرأة الجميلة تشك فى ذكائها ، والذكية تحتاج لمن يؤكد لها جمالها .. وهكذا بلذ لكل

شخص أن يجد ما يطمئنه على تحليه بالصفات الجميلة التي لا يثق تماماً بتوافرها فيه .. ومن هنا كان المدح حسن الوقع كبير التأثير فى كل نفس ، سواء بالنسبة للمرأة أو الرجل . وكم من امرأة محرومة من الجمال والجاذبية عاشت طيلة حياتها محبوبة من الرجال لأنها كانت تحسن إطراءهم !.. وكم من رجل دميم عبدته النساء لأنه أتقن فن الإشادة بمحاسنهن !

والمشاهد أن كل إنسان يجب أن تطرى فيه مواهبه الكامنة ، التي لم يشتهر بها أو تؤثر عنه .. فالقائد لن يسره أن تشيد بانتصاراته الحربية بقدر ما يسره أن تحدثه عن سحر عينيه المتقدتين !.. والروائي المشهور قلما يهمه أن تبدى إعجابك بكتبه وقصصه ، ولكنك لو حدثته عن وقع نبرات صوته الجميل لبدا عليه الاهتمام فى الحال ، وانتشى زهواً ..!

سادساً : المشاركة الوجدانية

● للمرأة فى كسب قلب الرجل أسلوب خاص ، يكفى لإيضاحه أن نسرد قصة غزو « مدام دى مانتنون » لقلب الملك لويس الرابع عشر ، فى ظروف لم يكن أدعى منها لليأس !.. كانت هى فى ذلك الحين قد جاوزت مرحلة الشباب ، وكانت صلتها الوحيدة بالملك مستمدة من وظيفتها كمربية لأولاده الذين أنجبتهم له عظيته الفاتنة « مدام دى مونتسبان » التى كان لها على الملك تأثير ونفوذ بالغان ..

وبرغم ذلك فقد نجحت المربية فى استلاب الملك من غريمتها الخلابة .. بل نجحت فيما لم تجرؤ المحظية الجميلة حتى على مجرد التفكير فيه .. نجحت فى إقناع الملك بالزواج منها ..!

فما هو سر نجاحها العجيب ؟

لقد بدأت بالتقرب من الملك فى صورة رسول للسلام بينه وبين فاتنته ، التى كان طبعها النارى وغيرتها الحمقاء مبعث نزاع متجدد بينهما .. فوجد الملك فى الوسيطة مزيجاً من البساطة والوداعة أرضى شوقه إلى الحياة الهادئة ، ككل الرجال .. وبذلك كسبت « مدام دى مانتنون » المعركة الأولى !

وحين اطمأنت إلى مركزها جعلت همها أن تشارك رجلها همه الأكبر : عمله !.. فصارت تحرص على ملازمته وهو يصرف شئون مملكته ، وتصغى إلى التقارير الرسمية التى تتلى على مسمعه ، وتناقشها مناقشة المتتبعة الواعية .. حتى انتهى بها الأمر إلى أن صارت تستدعى الوزراء إلى جناحها الخاص لتناقشهم وتوجههم !.. وبهذه الطريقة استولت على لب الملك تماماً . ذلك أنها أدركت بفطنتها أن الرجل — الجدير بهذا الوصف — يهتم بعمله أكثر من أى شيء فى الوجود .. بل أكثر من المرأة التى يحبها !.. ولو أنها حاولت أن تصرفه عن عمله إلى نفسها لانتهى إلى نبذها والبحث عن أخرى تكون قد ألهمت سر السيطرة على الرجل عن طريق الاهتمام بمهنته !

سابعاً : الموسيقى والصورة والقصص

● ولهذه الفنون الثلاثة فى الحب دور لا يستهان به .. فكثيراً ما يستميل الرجل امرأة بقصيدة من شعر « بودلير » يقرؤها لها همساً على ضوء أحمر خافت .. أو بمقطوعة من موسيقى شوبان ، أو بتهوفن . أو فاجنر . يعزفها لها فى خلوة ! .. وكم من غرام بدأ بين دهاليز وردهات معرض للصور .. وكم من قصة ممتازة وصلت حبل الحديث بعد أن انقطع بين حبيبين فى لحظة من لحظات سوء التفاهم ! .. وهكذا كثيراً ما يكون الفن والثقافة المشتركة سبيلا إلى التقريب بين القلوب المتجاوبة ..

ثامناً : المشاركة السياسية أو الدينية

● والمشاركة فى الإيمان السياسى . أو الدينى . أو الوطنى — أو الإيمان بأية رسالة فى الحياة — أداة هامة من أدوات تقوية الحب . فإن من العسير على أى مؤمن متحمس لفكرة أن يحس عاطفة قوية دائمة نحو شخص لا يشاركه فكرته ولو بقدر .. بعكس الحال لو تمت المشاركة بلا تحفظ بين المحب ومحبوبته . فإنهما تكفل حينئذ أكبر قسط من السعادة . كما يحدث للعشاق الذين يمارسون مهنة واحدة . إذ ما من شىء أمتع من الحب والعمل حين يجتمعان !

تغذية الحب .. بعد ولادته

● فإذا انتقلنا من مرحلة الغزل ، إلى مرحلة مولد الحب .. واجهتنا مهمة تقوية هذا الوليد الصغير وتغذيته حتى يشتد ساعده .. وهى مهمة عسيرة ، لأن نسبة « الوفيات » فى الحب فى مرحلة طفولته كبيرة جداً ! .. ومن ثم يجب بذل أقصى قدر من العناية فى تنشئته بعد فوات المرحلة الأولى التى يكون فيها كل من الطرفين غنياً بذكرياته وأحاديثه ونوادره التى يتبادلها مع محبوبه بين العناق والقبلات ..

فإذا ما انتهى فيض الأحاديث السابقة ران الصمت والوجوم والحيرة على لقاء العاشقين . وهنا يتعرض الحب الوليد لخطر الموت المبكر . ما لم يتداركه صاحباه بالمقويات .. وأهمها : أن يعرف الشخص كيف « يجدد نفسه » . ويخلق الأحاديث الشائقة فى كل لقاء بخصوبة مستمرة .. وهنا الفارق بين الشخص الجذاب وغير الجذاب فى حديثه ..

والمبدأ الثانى فى فن تغذية الحب : هو تمكين المحبوب من أن يكون طبيعياً غير متكلف فى خلوته مع حبيبه ! .. فلا شىء ينفر الإنسان أكثر من أن يجد نفسه مضطراً إلى الظهور أمام محبوبه بمظهر مصنوع يرهق الأعصاب . ويغرى بالفرار منه . أو تجنب لقائه ، أو لقائه وهو مهموم .. !

ويلى هذا فن تدبير اللقاء فى أماكن مناسبة وشائقة .. والعاشق البارع هو الذى يعرف متى يفضل محبوبه الأماكن الخلوية . ومتى يميل إلى أماكن اللهو الصاخب ! .. متى يحن إلى نزهة فى ضوء القمر . ومتى يتوق إلى حضور رواية هزلية . أو مأساة عنيفة . وهكذا .. والمرأة أقدر من الرجل على فهم هذه الأمور . ومن ثم ينبغى أن يترك الرجل لها أمر اختيار « مسارح » حبهما ..

والمبدأ الرابع : هو السيطرة على الأعصاب وقت « الأزمات الغرامية » ! .. وهنا يجدر بالرجل أن يوطن نفسه على أن المرأة مخلوق عاطفى لا يقتنع بالمناقشة والمنطق . قدر ما يقتنع بالملاطفة والصبر والصمت .. وأنها تعيش أسيرة لأعصابها أكثر حياتها ! .. وما أشبه تموجات نفسها بأمواج المحيط .. ومن ثم فالرجل — أو الزوج — العاقل هو الذى لا يفقد سيطرته على أعصابه . بل يظل أبداً كالبحار الذى يواجه بسفينته العاصفة .. فهو يرخى الشراع . وينتظر ويأمل . حتى تنقضى العاصفة .. دون أن يفقد حبه للبحر !

فن اجتناب غضب المحبوب

● وهناك قواعد عامة فى هذا الفن تصلح لكلا الجنسين :

أولاها : إظهار الرقة والدماثة البالغتين فى الخلوات . كما فى اللقاء الأول القديم سواء بسواء ! ..

وثانيتها : الاحتفاظ بروح الدعابة فى كل الظروف والمناسبات .

وعدم بعث الماضى وذكرياته فى المناقشات التى تدور فى جو من التوتر .. !

وثالثها : حصر الغيرة فى أضيق الحدود ، وتجنب المجاهرة بالشك .. وكذلك اجتناب خطة المقاطعة أو عدم المبالاة .. !

والقاعدة الرابعة : هى انفصال الزوجين أياماً كل حين — كل عام مثلا — لإنعاش حبهما وإشعال جذوته من جديد ! ..

أما القاعدة الخامسة : فهى تعمد التخاطب بالرسائل المكتوبة بين الحين والآخر ، لأن اللفظ المكتوب يكون أرق عادة وألطف من الحديث الشفوى ، ومن ثم فهو يوقظ الإحساس والعاطفة وينشطهما ..

وأخيراً ، فإن واجب الزوج الحكيم أن يستمر فى مغازلة زوجته غزلا عاطفياً على الدوام ، كما كان يفعل وهو يخطب ودّها قبل أن تكون له .. وإلا تطرق الملل إلى قلبها .. واشتاقت إلى من تسمع منه عبارات الغزل الحارة التى ألفتها فى البداية ! فحذار ! ..

* * *



فن الزواج



فن الحب .. وفن الزواج

• إذا كان فن الحب هو فن تحويل الرغبة الطارئة إلى عاطفة مقيمة .. فلابد أن تواجهنا في صدده حالة رجل يتصدى له القانون أثناء ممارسته هذه الرغبة بالقول : « قف ! أنت لا تستطيع الاستسلام لغرائزك الطبيعية ما لم توقع عقداً شرعياً يربطك بالمرأة التي تشعر نحوها بهذه الرغبة ، وبالأطفال الذين قد يولدون نتيجة هذا الارتباط ! » .

وهذا الرباط قد يصعب حله ، أو يسهل ، باختلاف الأزمان والعادات السائدة والأديان المختلفة ؛ فالمسلم يستطيع أن يطلق زوجته بإيقاع يمين خاصة ، أي النطق بعبارة معينة بسيطة .. بينما الكاثوليكي لا يستطيع أن يتحرر من زوجته إلا إذا منحته الكنيسة قراراً بإلغاء زواجه ، وهو إجراء يكاد يدخل في باب الأمر النادر ، بل المستحيل في أكثر الأحوال ! .. وبين هذين الدينين المتناقضين توجد أديان ومذاهب تتوسط في أحكامها فتجيز الطلاق في حالات قليلة محددة وبشروط خاصة ..

وأحياناً يعزز الشرع رباط الزواج القانوني بالقوة ، فيخرقه أحد الزوجين سراً ، سواء في خفية عن الآخر ، أو بعلمه وموافقته أو تسامحه ! .. وأحياناً أخرى — كما في أمريكا مثلا — يسهل فصم عرى هذا الرباط الشرعي بعد اتخاذ إجراءات بسيطة مرسومة ..

وسواء سهل الطلاق أم أحيط بضمانات صارمة ، فالثابت أن الإقبال على الزواج ماض في طريقه أمس واليوم وغداً ، في أربعة أركان المعمورة ! .. وفي رأيي أن هذا هو الاتجاه الصحيح — كما سأوضح فيما بعد — أما الآن فلأدع خصوم الزواج يبدون وجهة نظرهم أولا :

دون جوان .. والزواج

• أول وأهم اعتراض جدي على الزواج هو الذي عبر عنه الشاعر الإنجليزي (شيلي) بقوله : « إن الحب يموت حين يقيد بقيود .. وإن دوافع العاطفة أو بواعثها ، أو محركاتها ، لا تخضع بطبيعتها لنظام ، ومن ثم لا يمكن أن يحكمها قانون ! » .. ويعلل خصوم الزواج فرض هذا الرباط الشرعي على الحب ، برغم أنه مضاد له بطبيعته ، بقولهم : « إن من مصلحة النساء دائماً أن يأسروا — مدى الحياة — الرجال الذين بلغ بهم التهور إن أحبوهن ! » ولا حاجة بنا إلى القول إن جميع خصوم الزواج هم من الرجال .. !

ويسخر برنارد شو في كتابه « الإنسان والإنسان الأسمى » من الزواج ، على لسان بطله « دون جوان » ، بقوله : « عندما كنت في الأرض ، وكنت أعرض على النساء تلك العروض التي يعتبرها المجتمع منافية للأخلاق ؛ وهي نفسها التي جعلت لي هذه الشهرة العالمية وخلقت مني بطلا من أبطال الأساطير ، كانت كل امرأة

منهن تعرب عن قبولها لما أعرض بشرط أن تكون تلك العروض غير منافية للشرف !.. فإذا سألتها عما تعنى بذلك أجابت أنها تطالبنى بالأمور الآتية :

أولا : أن أحرص على رفقتها الدائمة لى ، وأطلب مشورتها ، وأكفل لها حق التحدث معى حتى آخر أيام حياتى . وأن أعرض نفسى للعقوبات إذا لم أظل طيلة عمرى مفتوناً بتلك الرفقة والمشورة والأحاديث !...

ثانياً : أن أدير ظهرى لجميع نساء الأرض الأخريات ، مدى الحياة ، من أجلها !.. ولم أعترض أنا على هذه الشروط لأنها تعسفية وغير إنسانية فحسب .. بل كان اعتراضى لأنها غير معقولة أو مقبولة أصلا !.. قلت بصراحة تامة : أولا : إنه إذا لم تكن شخصية المرأة وذكاؤها يساويان أو يفوقان شخصيتى وذكائى ، فإن أحاديثها سوف تهبط بمستواى ، ومشورتها سوف تضللنى وتقودنى إلى الأخطاء ، ورفقتها الدائمة سوف تضجرنى وتثقل على.. وإننى لا أستطيع الارتباط بعواطفى لمدة أسبوع واحد مقدماً. فكيف أضمن تعلقها بشخص ما مدى الحياة ؟.. وثانياً : إن الحيلولة بينى وبين الاتصال بغيرها من النساء مدى الحياة سوف تضللنى وتضيق أفق عقلى وقلبى إذا خضعت لها والتزمتها .. أو تلق بى إلى أحضان اللعنة المسماة « الخيانة الزوجية » إذا تمردت عليها !.. وأخيراً ، إن العرض الذى تقدمت به إلى هذه المرأة — أو تلك — لا يتصل بشىء

من هذا كله على الإطلاق ، وإنما هو نتيجة طبيعية لميل غريزى بسيط للغاية : هو ميل رجولتى نحو أنوثتها » .

وخلاصة هذا الاعتراض الأول على نظام الزواج هو أنه يفرض الاستقرار فى شىء غير قابل بطبعه للاستقرار .. ويطلب الدوام لشىء لا يمكن أن يدوم !.. والجميع متفقون على أن الحب الجنسى غريزة طبيعية مثل الجوع أو الظمأ .. لكن دوام الحب ليس أمراً غريزياً .. فإذا كان الحب الجنسى يتطلب التغيير ، ففيم إذن هذا النظام القائم على الوعد بالحب لشخص واحد ، مدى الحياة ؟

الزواج يضعف الشجاعة

● والاعتراض الثانى على الزواج هو أنه يضعف شجاعة الإنسان ونشاطه العقلى ، وفى هذا يقول (رومان رولون) : « الرجل المتزوج ليس أكثر من نصف رجل ! » .. ويحدثنا رديارد كبلنج عن الكابتن « جادسبى » ضابط السوارى الذى تزوج فصار زوجاً ناجحاً وضابطاً فاشلا ، فإن حرصه على إنقاذ حياته من أجل زوجته وولده جعله لا يحارب بنفس البسالة النارية التى كان يحارب بها قبلا ..!

ويرى السياسى الفرنسى العظيم « بريان » أن السياسى ينبغى أن لا يتزوج : « فلننظر إلى الحقائق ونواجهها .. لقد استطعت طيلة كفاحى الشاق لتكوين مستقبلى أن أحتفظ برصانتى وصفاء ذهنى ، لأنى كنت أخلد إلى الراحة فى المساء بعد مجهود اليوم الشاق . لم تكن

لى زوجة طموحة غيورة تذكرنى فى كل حين بنجاح زملائى وتذكر لى الانتقادات التى تقال ضدى !.. كانت لى قوة الذين يحيون بمفردهم ! » .. فالزواج يجعل الرجل قابلا للعطب ، ويعرض سفينة حياته العملية لشتى المخاطر بمضاعفة مساحة « الشراع » المعرض لعواصف الحياة الاجتماعية ..!

هل تفضل الأديان العزوبة ؟

● فإذا انتهى خصوم الزواج من إثبات هذا الاعتراض الثانى انتقلوا إلى الذى يليه ، وهو حكم المنطق والأدلة .. فقالوا : ألم تعترف الكنيسة الكاثوليكية نفسها — التى تفضل الزواج على العزوبة — بأن العزوبة أليق بكرامة الرجل وهيبته ، ففرضتها على قساوستها وكهنتها؟ .. مكررة فى كل مناسبة أن لا شىء أدعى إلى الضحك والسخرية من فيلسوف متزوج ؟ فهو إن استطاع تحرير نفسه من ضعفه لن يستطيع أن يحرر منه زوجته ، والمرأة دائماً هى أقوى الزوجين من ناحية التأثير المعنوى ، فضلا عن أن المستوى العقلى لحياة الزوجين يكون عادة هو مستوى الشخص الأضعف منهما ..

والاعتراض الرابع الذى يسوقه أعداء الزواج هو أن الشاب والفتاة اللذين يتزوجان إنما يرتضيان باختيارهما تطليق الحياة العاطفية والمغامرات وسحر التعارف لمستمر بأشخاص جدد من الجنس الآخر ، والنشوة العجيبة التى يحدثها الوقوع فى الحب كل مرة .. وبتطليقهما

ذلك كله يطلقان المنبع الرئيسى للنشاط النفسى والحسى ، ويحكمان على نفسيهما بالجمود والبلادة السابقين لأوانهما ، فينهيان حياتهما وهى لم تكد تبدأ .. ولا شىء يمكن أن يبدد ملل وسآمة الحياة المبنية على الواجبات والمسئوليات ، إذ لا يلبث حب الزوجين أن تشوبه أثقال المتاعب البيتية وتربية الأطفال .. فيبلغ الزوجان أرذل العمر دون أن يستمتعا ببهجة الشباب التى لا يحققها غير الحب العنيف .. والزواج يقتل هذا الحب .

دفاع أنصار الزواج

● تلك هى حجج خصوم الزواج ، وهى من القوة بمكان .. ولكن برغم ذلك كله فإن نظام الزواج قد عاصر شتى الاضطرابات والانقلابات السياسية والدينية والاقتصادية مدى آلاف السنين ، وبدلا من أن يتلاشى أو يضعف نراه قد ازداد قوة عن ذى قبل .. فلنحاول فهم الأسباب الاجتماعية العميقة لاستمراره وثباته ..

فالبشر بطبعهم أنانيون . وهذه ليست جريمة ، فهم يجب أن يكونوا كذلك كى يعيشوا ويتغلبوا على عوامل الفناء .. وهم يملكون فى ذواتهم غريزة حفظ النوع التى تدفعهم — كما يقول سبينوزا — إلى السعى وراء الأمان . والطعام والمأوى . حتى لو كان ذلك على حساب إخوانهم .. ولو لم يملك البشر سوى هذه الغريزة لاستحال عليهم إنشاء مجتمع بشرى والمحافظة عليه . ولصيرتهم الأنانية وحوشا

يلتهمون بعضهم البعض .. ومن هنا وجدت غرائز أخرى فى مثل قوة غريزة حفظ النوع ، كى تستنفد نشاطهم وسعيهم وأفكارهم .. وأهم هذه الغرائز الأخرى التى تشتبك فى صراع مع غريزة النوع ، غريزتان : الغريزة الجنسية .. وغريزة الأمومة . ومن هنا نجد الحيوانات المتوحشة ذاتها تنسى وحشيتها وتأخذ فى ملاطفة إناثها وهدهدة صغارها ، فى فترات الحب والأمومة .. وهكذا ، عن طريق تكوين العائلات ، أو الخلايا الصغيرة فى جسم المجتمع ، تغلبت البشرية على الأنانية الغريزية فى الإنسان .. لأن التضحية تصبح فى العائلة أمراً طبيعياً يسير جنباً إلى جنب مع الرغبة الجنسية والأمومة ..

وهذا يتطرق بنا إلى الحجة الأولى من حجج أنصار الزواج ، إذ كيف يبنى الإنسان خلية اجتماعية دائمة تقوم على الرغبة الجنسية إذا كانت هذه الرغبة تغير وتبدل أهدافها من البشر كل حين ؟ كيف يبنى الرجل بيتاً إذا كان يغير المرأة كلما راق له ؟ وكيف تؤسس المرأة أسرة مؤلفة من والدين وأطفال إذا كانت تغير رجلها كلما شاء لها هواها ؟..

من هنا وجد الزواج ، أى الرباط الذى يكفل استمرار الصلة بين الرجل والمرأة ، وحماية المرأة من الرجال الآخرين ، وحماية أطفالها من عاديات الزمن !

العاشق ليس أسعد من الزوج !

● وهنا قد يحتج « دون جوان » — باعتباره ممثل وجهة نظر أعداء الزواج — بأنه لا يبالى بالخلية الاجتماعية أو حفظ النوع ، وأن الحياة فى نظره هى تجديد مستمر للرغبة والمتعة دون قيود .. ولكن هل صحيح أن حرية تغيير العشيق كل حين ، تجلب السعادة ؟ بل هل صحيح أن العاشقين غير المتزوجين يستمتعان بحرية تفوق حرية الزوجين ؟ الواقع أن الحب بين غير المتزوجين لا يقل قيوداً عن الزواج .. فإن المشاكل التى تعقد الحياة الزوجية وتنغصها — مثل المشاجرات ، والغيرة ، والملل واختلاف الأذواق — توجد فى كل صلة بين رجل وامرأة ، شرعية كانت أو غير شرعية .. والحب الحر ليس فى الواقع حراً ! .. وإذا أردت مثلا على ذلك فاقرأ قصة غرام الموسيقى « ليست » و « مدام داجول » .. أو اقرأ — فى قصة أنا كارنينا — الفصل الذى يصف فرار « أنا » مع « فرونسكى » ، تجد فرونسكى يعانى من شكوك عشيقته وخوفها من فقده أضعاف ما يعانيه الزوج من مضاعفات الزواج ..!

الزواج رابطة .. لمصلحة الطرفين

● والحجة الثانية من حجج أنصار الزواج هى أن أى حب لا يخلو من اختلاف ومشادات بين الحبيبين ، بين الحين والآخر .. فإذا لم يكن هناك رباط مقدس يربط بينهما فإن أى خلاف أو مشادة

بينهما قد تؤدى إلى انفصالها ، الذى لابد أن يندما عليه بعد وقوعه .
وبالمثل تتعرض صلة الحبيبين للانقطاع فى كل مناسبة تهددها ، مثل مرض أحدهما زمناً طويلا ، أو بلوغ أحدهما طور الشيخوخة أو غير ذلك من الأزمات التى ينعكس تأثيرها فى حالة الزواج فتقوى من الرابطة بين الزوجين بدلا من أن تضعفها أو تنهيها .. فالزواج هو الرابطة الوحيدة التى يزيدها « الزمن » قوة على قوة ..!

والحجة الثالثة فى تأييد الزواج هى أنه خير صلة تحقق التفاهم بين الجنسين وتغذى التجاوب الروحى بينهما .. فالزوج بحكم خبرته الكاملة بنفسية زوجته يستطيع أن يفهم النساء عامة فهماً أعمق من فهم الأعزب لهن . ومن يفهم النساء يستطيع أن يفهم الحياة كلها فهماً أدق وأصوب .. والأعزب مخلوق غير اجتماعى ، وحريته حرية أقرب إلى الفوضى .. ثم إن انشغال العوانس والعزاب بأنفسهم انشغالا متزايداً كلما تقدموا فى السن قد يفقدهم اتزانهم العقلى ، فالعزوبة بالنسبة للرجل العادى — وقد يستثنى من ذلك الفنانون — تؤدى إلى انحطاط مستواه الذهنى وتدهوره .. فضلا عن أن انغماسه فى ملذاته الجنسية الحرة لا يمنحه عشر معشار سعادة الزوج والأب ورب العائلة فى الزواج الموفق .. ناهيك بما يحسه الأعزب المتقدم فى السن من وحشة كئيبة وفزع من الموت ، يصاحب غالباً كل معيشة متحررة من القيود .. وإذا كانت حياة المرأة مع الزوج عسيرة فإن حياتها مع العشيق أشد عسراً وتعقيداً..!

فشل إلغاء الزواج فى روسيا

● ولعل أحدث تجربة بصدد المفاضلة بين الزواج والعشق الحرام هى التجربة التى قامت بها روسيا بعد ثورتها الشيوعية .. فقد حاول المجتمع الروسى أن يلغى الزواج فى البداية ، أو يجعله حبراً على ورق .. ولكن لم تمض سنوات حتى أيقن الجميع — نساء ورجالا — أنهم أشقى بكثير مما كانوا . وقد عبرت امرأة روسية عن هذا المعنى فى رسالة كتبتها إلى حبيبها وقالت فيها : « أريد سعادة ولو ضئيلة خاصة بى ، وقفاً على سعادة شرعية ! .. إنى أحلم بركن هادئ أستطيع أن أنفرد بك فيه .. ألا يفهم المجتمع أن هذه ضرورة إنسانية ؟ » .

زواج الحب

● قد يحدث أن يتم الزواج نتيجة حب سابق بين الرجل والمرأة ، لكن الأمر ليس دائماً كذلك .. ففى العصور القديمة وفى أكثر الشعوب الشرقية يتم الزواج ضد رغبة أحد الطرفين أو كليهما ، نتيجة اتفاق الأسرتين مثلا ، أو وساطة الوسطاء . وكثير من هذه الزيجات غير المبنية على الحب تكون سعيدة موفقة ، وأحياناً أسعد من مثيلاتها المؤسسة على الحب .. وهذا أمر يسهل تعليله ؛ فإن الحب العنيف يولد أحلاماً خيالية لا يمكن أن تتحقق فى الحياة الواقعية . والعشاق حين يتزوجون يصابون غالباً بخيبة أمل ، لأنهم كانوا يتوقعون من



والشاب العصرى يجهل أيضًا أنه خلال حياته الزوجية سوف يقع بصره على زوجته بثيابها البيتية وشعرها المشعث ومزاجها الحاد ..

الزواج سعادة تفوق ما يمكن أن تسمح به الحياة نفسها .. وفى أمريكا تتم أكثر الزيجات نتيجة حب سابق ، لكن نسبة الطلاق فى أمريكا تفوق نسبتها فى أكثر البلاد الأخرى أيضاً ..!

فالشاب العصرى يحلم بزوجة فى جمال كواكب السينما وأناقتهن.. لكنه يغفل عن حقيقة هامة – بل حقائق – تنكشف له بعد الزواج .. من هذه الحقائق أن جمال كواكب السينما أكثره خداع مصور بارع ، والجزء الحقيقى منه يساهم فيه جيش من خبراء الجمال والحلاقين والمزينين والمدلكين ، فهو جمال مصنوع لا مطبوع ..!

والشاب العصرى يجهل أيضاً أنه خلال حياته الزوجية سوف يقع بصره على زوجته بثيابها البيتية وشعرها المشعث ومزاجها الحاد .. والشابة العصرية تجهل بدورها أن الرجال أنانيون بطبعهم ، وأنهم كثيراً ما يكونون منهوكى القوى بسبب أعمالهم فيعودون إلى بيوتهم فى حالة يرثى لها من العصبية وحدة الطبع .

فماذا تكون النتيجة ؟.. يصاب الزوجان بخيبة أمل ، وبدلا من أن يقولا لنفسيهما أن لا شىء فى هذه الدنيا كامل ، ولا حتى الحب ، تراهما يحسبان أنهما قد أخطآ الاختيار ، وأن الكمال يمكن أن يوجد فى شريك حياة آخر .. ومن ثم يسعيان إلى الطلاق ويحصلان عليه ، فيأخذ كلاهما فى البحث عن الشريك الجديد .. ثم تتكرر المأساة وبتكرر الطلاق ، فالزواج ، فالطلاق .. حتى تعلمهما الشيخوخة والتجارب أن يقبلا التسامح واللين ، أو « الحل الوسط » الذى كان

ينبغي أن يقبلاه في حبهما الأول !.. ولو أنصفت الجامعات والمدارس لأدخلت في برامجها دراسة أساليب « التسويات » الزوجية ، أي التقابل في منتصف الطريق..ثم دراسة نفسية الأزواج والزوجات .. فإن الزواج الناجح هو الذي يقوم على التسوية والتراضي ، والتسامح ، لأنه من العسير ، بل المستحيل أن يوجد إنسانان يتفقان في الطباع والعادات والميول . فإذا لم يوطن كل طرف نفسه على شيء من التضحية . وقدر من التساهل والتراجع عن مطالبه . وإذا لم يتعلم كيف يقابل الشجار بالمزاح .. فقل على الحياة الزوجية السلام ..!

المشكلات الجنسية

● على أن أصعب ما يمكن تسويته من أبواب الخلاف الزوجي هو باب الخلاف الجنسي .. ولا شك أنه توجد حالات يتم فيها التوافق الجنسي الناجح بين زوجين ذوي طبيعة حارة مثلا ، ولكن في أكثر الحالات تمتع المرأة زوجها دون أن تستمتع هي باللذة الجنسية .. ويزيد من عذابها ما تقرؤه في القصص والأشعار عن العالم الساحر الذي يعيش فيه غيرها من النساء !.. ولابد لتحقيق التوافق الجنسي الكامل بين الزوجين من أن يكيف كل منهما طبيعته وفق طبيعة الآخر : بالصبر الجميل ، والمحاولات المتكررة ، والتسامح المتبادل . والتقدير السليم .. وهذه المشكلة تواجه المتزوجين زواج حب مثل ما تواجه المتزوجين زواج مصلحة . على السواء ..

والمشاهد أن زواج المصلحة قد بدأ في التناقص منذ نهاية الحرب العالمية الأولى (سنة ١٩١٨) وأخلى مكانه لزواج الحب . أو في القليل لزواج « الرضا المتبادل » بين الطرفين نفسيهما . لا التراضي بين أسرتيهما !.. وهكذا صارت المرتبة الأولى من الاعتبار للنظرة الجذابة ، والطبع الرضي ، والتوافق في الذوق والميول الجثمانية والذهنية .. بعد أن كانت للمركز الاجتماعي والمكانة الشخصية أو الثروة المالية !.. ورغم ذلك فإن اجتماع الجاذبية الجنسية والذهنية المتبادلتين معاً . غير كاف لتكوين زيجة سعيدة .. وسواء كانت الزيجة زيجة حب أو مصلحة فإن الشرط الأساسي الذي لا بد من توافره لتحقيق السعادة الزوجية هو أن تصح نية الطرفين ورغبتهما الخالصة من البداية على أن يكون زواجهما زواجاً دائماً .. أما لو قال الرجل لنفسه وهو مقدم على الزواج : « إذا سئمت زوجتي فسوف أخونها سراً مع نساء أخريات ! » .. أو لو أضمرت المرأة هذه النية : « إذا لم يعجبني زوجي فسوف أحصل على الطلاق ! » فإن زواج مثل هذين الطرفين لا يمكن أن يدوم ..!

وإذن فخير مسلك ينبغي أن يسلكه كل من الزوجين هو أن يبيت النية على قمع نزواته وشهواته . ويقسم لنفسه هذا القسم : « إني أقيد نفسي بشريكي هذا مدى الحياة . ومنذ الآن سيكون هدفي : ليس أن أبحث عن شخص آخر يمتعني ويسعدني . بل أن أمتع وأسعد

هـذا الشخص الذى اخـترته ! » .. فإذا كان هـذا القسم جـدياً « ومخلصاً » فهو قد يكفى وحده لتحقيق الزواج السعيد

صعوبات الحياة المشتركة

● إن مصاعب الحياة المشتركة كثيرة ومتشعبة .. والسبب الرئيسى لها هو الاختلاف الطبيعى بين أساليب تفكير ومعيشة كل من الجنسين وأساليب الجنس الآخر ، وإن كان الاتجاه الحديث يميل إلى الغض من أهمية هذا الاختلاف . فقد صارت برامج تعليم البنات شبيهة ببرامج تعليم الذكور ، والوظائف التى يشغلها النساء هى ذات الوظائف التى يشغلها الرجال ، وفى كثير من البلاد منحت المرأة حق الانتخاب .. لكن هذه المسألة ينبغى أن لا تنسى الرجال أن المرأة هى المرأة دائماً ، وأن جنس الإناث هو الجنس العاطفى ، أو السلبى ، وجنس الذكور هو الجنس النشط أو الإيجابى .. وأن هناك بين عقل المرأة وجسمها صلة أوثق وأقرب من الصلة بين عقل الرجل وجسمه .. فالرجل يفكر فى العالم الخارجى والمرأة تفكر فى مملكة بيتها ، وفى الحب والأمومة ...

أفكار الرجل تسير بسرعة الطائرة ، وأفكار المرأة تسير بسرعة القدمين .

الرجل يبتكر الأنظمة والنظريات والمبادئ والآراء الفلسفية .. والمرأة لا تفكر إلا فى الحقائق ، ولا تهتم بالنظريات المجردة إلا إذا

كانت تحب رجلا يؤمن بتلك المبادئ ، أو إذا كانت تعانى مرارة اليأس من إهمال مثل هذا الرجل لها .. فالفلسفة عند المرأة هى بمثابة الحداد الخفى على عاطفة فقدتها .. !

الرجل يخلص للآراء والمبادئ ؛ والمرأة تخلص للكائنات البشرية ... فإذا ارتفعت أسعار الأطعمة مثلا ، أو نشأ خطر نشوب حرب ، بسبب سياسة حزب معين ... أخلص الرجل لحزبه ودافع عنه . أما المرأة فهى لا تتردد فى ترك حزبها كى تحافظ على سلام بيتها وسعادته .. !

عندما يحب الرجل .. والمرأة

● وقد يسأل سائل : ولكن كيف يختلف تفكير المرأة عن تفكير الرجل ، وهما يتعلمان فى مدارس واحدة ، وطبقاً لبرامج ومواد واحدة ؟.. وليس أبلغ فى الرد على هذا من العبارة التى قالتها يوماً طالبة فى كلية الطب : « لو شقى الطبيب بسبب فشله فى الحب فإنه يستغرق فى زيارة مرضاه والعناية بهم كالعادة .. أما لو أصبت أنا مثلا — أو أية امرأة — بصدمة فى حب . فإنى ألازم فراشى لأبكى ليل نهار ! » فالنساء لا يمكن أن يشعرن بسعادة إلا إذا عشن فى جو عاطفى .. والمرأة الناجحة فى عمل من أعمال الرجال تتمنى أن تجد رجلا يتولى عنها عملها كى تصبح هى مساعدة له ، وحبذا لو استطاعت أن تحبه ! .. فالنساء رائعات كمساعدات للرجال .

لا كمديرات أعمال أو خالقات مشروعات .. لأن الشيء الوحيد الذى تنبغ المرأة فى خلقه ، هو طفلها !

على ضوء هذه الاختلافات بين طبيعة المرأة وطبيعة الرجل ينبغى أن يواجه كل من الزوجين خلافاته مع الآخر ، ويسويها ..

● وهناك عدة أساليب فى تسوية الخلافات المحتومة بين طبيعة المرأة – التى قوامها الحب – وطبيعة الرجل التى قوامها العالم الخارجى .. والأسلوب الأول منها هو سيطرة الرجل الأنانية على بيته .. فرجل الأعمال أو الفنان يثور – وله الحق فى أن يثور – على طغيان الزوجة ، وقد يهجر بيته – كما فعل « تولستوى » فى أخريات أيامه – إذا لم توفر له زوجته فيه جواً يلائم رسالته التى يعيش من أجلها .. وحينما يكون من المحتم أن يفاضل الإنسان بين الحب والعمل، أو الحب والواجب .. نرى المرأة تناضل بقدر طاقتها للاحتفاظ بالاثنين .. أما الرجل فهو لا يكون رجلا إذا طغت عاطفته على هدف حياته .. وأمامنا أمثلة حية يقدمها لنا الروائيون فى قصصهم المستمدة من صميم الحياة ، منها مثل « كارمن » ، التى دمرت حياة حبيبها الضابط ومستقبله ... « ومانون ليسكو » التى قادت حبيبها إلى ارتكاب الجريمة بعد الجريمة !

● وحتى الزوجة يجب أن تخشى بأسها وخطرها إذا أرادت أن تسيطر على حياة زوجها من جميع النواحى ، وتستأثر به ، فإنها عندئذ لا تلبث أن تدمره .. وهو يكون قد قضى على نفسه إذا وصل إلى

المرحلة التى تصبح فيها زوجته – أو زوجته وطفله – محور وجوده واهتمامه وحدها . وإنها لعلامة خطرة أن يحس الرجل أنه لا يكون سعيداً إلا فى مجتمعات النساء .. فإن الرجل الكامل الرجولة يحب اصطراع العقول كما كان أجداده يحبون تشابك السيوف !... واصطراع العقول لا يكون فى مجتمعات النساء ، أو حتى فى مجتمعات النساء والرجال المختلطة ..!

ساعة لعملك .. وساعة لقلبك

● لكن هذا لا ينفى دور المرأة ونصيبها فى الحياة الزوجية السعيدة .. فلئن وجب على الرجل أن يخرج من بيته فى النهار ، ليقضى ساعات عمله مع غيره من الرجال ، فإنه حين يعود بعد انتهاء حصته من العمل يجب أن يجد فى بيته جواً آخر مغايراً للجو خارج البيت .. أو على حد تعبير د . ه . لورنس : « إن الرجل لا يمكن أن يكون رجل أعمال أربعاً وعشرين ساعة فى اليوم .. فحتى نابليون كان يسره أن يعود إلى بيته بعد انتهاء عمله ليخلع حذائيه ويجلس عند قدمى زوجته ، ويخضع لسحرها ، ولعالمها الخاص : عالم الحب ، والعاطفة والعطف . وإنه ليلذ لكل رجل أن يخلد فى وقت الراحة للمرأة وعالمها الخاص ،

والمرأة الحقة لا تغار من حب زوجها لعمله وتفانيه فيه ، أو من نشاطه السياسى أو العقلى .. وهى قد تتألم من ذلك فعلا ، لكنها تكتم ألمها وتشجعه على الاستمرار فى طريقه .. وفى القصة القديمة أن

« أندروماك » أخفت دموعها حين حانت ساعة رحيل « هيكتور » فقد كانت تعرف ما ينتظر من المرأة أن تقدمه للرجل من معونة ...

الزواج .. ورقة يانصيب !

● وإنه لمن المهم في هذا الصدد أن نذكر دائماً أنه مهما كان كلا الزوجين راغباً في الزواج من الآخر ومتحمساً له قبل إتمامه ، فإن وصول الطرفين إلى التوافق المرجو أمر عسير المنال .. ومهما بلغ عمق الحب المتبادل بين الاثنين ، وذكاء عقليهما ، فلا بد أن يجد كلاهما نفسه في الأيام الأولى من الزواج بإزاء شخص يكاد يكون غريباً عنه تماماً !.. ولقد سميت الأسابيع الأولى التالية للزواج باسم « شهر العسل » . والواقع أن كل صعوبة تنسى خلال تمل الليالي الأولى التي يقضيها الزوجان معاً ؛ فالزوج يهجر أصدقاءه ، والزوجة تهمل هواياتها السابقة .. ولكن قد لا تنقضي أسابيع أو شهور حتى نسمع لهجة كلا الزوجين في الحديث عن الآخر قد تغيرت ، فإنه يكون قد مل العواطف العنيفة وتاق إلى هواياته الأولى الهادئة !..

ولكن أحياناً تسوء الأمور أكثر من ذلك ، وينقلب « عدم التفاهم » إلى عداء خفي . فترى كلا الزوجين يحدج صاحبه بنظرة انتقادية تتصيد الأخطاء .. فإذا أويا إلى فراشهما كانا أشبه بغريبين صامتين ، مفتوحي العينين .. ثم تنفلت الزوجة فجأة في البكاء . وتتساقط دموعها من عينيها في الظلام . والرجل يصغي إلى نشيجها

صامتاً !.. في مثل هذه الحالات يكون لا بد من أن يتنازل كل طرف عن بعض أحلامه القديمة ويلتقي مع شريكه في منتصف الطريق . وليذكر الاثنان أن الكمال لا يمكن بلوغه ، ولو بلغاه – بمعجزة من معجزات الحب – فإنهما يعجزان عن الاحتفاظ به طويلا . والواقع أنه من الخطأ أن يتزوج المرء كما يشترى تذكرة اليانصيب ، قائلا لنفسه : « من يدرى ؟ ربما أصير سعيداً ! » .. وإنما ينبغي بدلا من ذلك أن يكون لسان حاله هكذا : « أنا أعرف أني لا بد سأصطدم بشيء من الشذوذ في شريك حياتي .. لكني يجب أن أتغاضى عنه وأنجح في حفظ بنيان بيتنا من الانهيار ... وسوف أنجح ! » .

والواقع أن أي مشروع يقدم عليه الإنسان في حياته لا يمكن الوثوق من النجاح فيه ، مهما صحت عليه نيته ، وتوفر له الحماس والعناية ، ولاسيما إذا كان الأمر يتعلق بأكثر من شخص واحد .. ولكن إذا انعدمت الثقة في النجاح من البداية فالفشل مؤكد لا ريب فيه ..!

الزواج الناجح يحتاج إلى مجهود متواصل !

● والزواج – كأي مشروع – لا يكفي أن ينجح في البداية . بل لا بد من مداومة بذل المجهود المتواصل للاحتفاظ بذلك النجاح !.. أما لو قال الزوجان لنفسيهما « لقد ربحنا المباراة .. فلنأخذ قسطاً من الراحة ! » فإنهما يرتكبان أكبر خطأ في حق سعادتهما المشتركة .

فالزواج الناجح صرح يجب أن يعاد بناؤه كل يوم وإلا تهدم !.. والنظرة فى هذا المقام، أو الابتسامة، قد تغنى عن العتاب والإيضاح. .. ولكن لا شيء فى حياتنا اليومية يبقى إذا أهمل : لا البيوت ، ولا الصداقات ، ولا المتع ... السقوف تسقط على من فيها ، والحب يتبخر وينتهى .. البلاط إذا قدم به العهد يحتاج إلى تثبيت .. والمفصلة فى الباب تحتاج إلى إصلاح .. وسوء التفاهم بين الأشخاص ينبغى أن يزال ويصفى ، وإلا تولدت عنه المرارة فى النفس !.. والشعور إذا تعمق فى النفس يصبح مركزاً للفساد والتعفن ، وذات يوم يتفجر « الدمل » أثناء مشاجرة فيرتاع كل من الزوجين حين يرى الصورة التى يحتفظ بها الآخر له فى نفسه !

لابد من التساهل !

● وما من زواج يمكن أن يكون سعيداً ما لم يحترم كل طرف فيه ذوق الطرف الآخر وميوله ، فإنه من السخف أن يتوقع أحد اتفاق اثنين فى أفكارهما وآرائهما ورغباتهما ، لأن ذلك مستحيل ، بل وغير مرغوب فيه ... وفى شهر العسل يريد كل زوج أو زوجة أن يوهم نفسه أنه متفق مع الآخر فى كل شيء .. ولكن مع مضى الأيام تسترد كل شخصية قوتها وحقوقها الطبيعية . وهنا لا بد لمن يريد أن يجعل الزواج سعيداً أن يخلط الصداقة بالحب بين الزوجين . والصداقة فى هذا المجال تتخذ معنى التساهل والتسامح . فإن الزوجين يدركان أنهما يختلفان ذهنياً وأخلاقياً لكنهما يقبلان عن طيب خاطر

اختلاف طباعهما لأنهما يجدان فيه فرصة للنضج الروحى .. فالمرأة اليقظة البارعة الكتومة تستطيع أن تعين زوجها بأفكارها ، وفى هذه الصداقات الذهنية يتضاءل عادة دور المطالب الأولية ومنها الحب الجنسى ، الذى كان ذا أهمية كبرى للزوجين فى البداية .. وبالنسبة لزوجين متآلفين تآلفاً حقيقياً روحياً ، على هذا النمط ، لا تغدو الشيخوخة أمراً كريهاً مرهوباً ، لأن متعة الزوجين حين يشيخان معاً تفوق خوفهما من فقدان الشباب ..!

● والخلاصة أن الزواج الموفق الناجح أمر عسير .. وكيف يمكن أن تكون سهلة حياة إنسانين يعيشان معاً ، إذا كان كل منهما عرضة لنوبات من العصبية ، والانفعال ، والأخطاء ، والأمراض ، التى تفسد حياة صاحبها ؟.. الواقع أن زواجاً بغير خلاف هو أمر مستحيل ، استحالة وجود وطن لا تصيبه أزمات !.. ولكن حين يعتاد الزوجان تسوية خلافاتهما بالتسامح والرقة تصبح أزماتهما أمراً تسهل معالجته ، وخطراً فقد شوكته .

فالزواج إذن ليس ما يتصوره العشاق .. ونجاحه لا يحتاج فقط إلى جاذبية جنسية ، بل إلى عزيمة ، وصبر ، وكياسة ... فإذا توافرت هذه الشروط أمكن الوصول إلى شركة جميلة فى الحياة ، مدى الحياة !.. شركة عمادها أركان أربعة : الحب ، والصداقة ، وإرضاء الحواس ، والاحترام المتبادل !

* * *





فن الحياة العائلية

الحب المنزه عن الغرض

● لعل أصدق ما قيل فى وصف الحياة العائلية قول الشاعر الملهم (بول فاليرى) : « فى كل عائلة يكمن نوع من « الضجر » الخفى المكتوم الذى يدفع أفرادها إلى الفرار من جوّ بيتهم والعيش على هواهم !.. كما توجد أيضاً بين أفراد كل عائلة « قوة » تقليدية عجيبة تقرب بينهم ، وهذه القوة تظهر على حقيقتها حين يلتئم شمل أفراد الأسرة حول مائدة العشاء فيحسون أنفسهم أحراراً وينطلقون على سجيتهم ! » .

وهذا القول يعجبنى لأنه يفصح عن نبل الحياة العائلية ، وعن أسباب تعاستها فى الوقت نفسه !.. ونحن نجد فى كل عائلة تقريباً هذين الشعورين المتناقضين : الضجر النفسى ، والرابطة المشتركة . فمن منا لا تعيد عبارة « فاليرى » هذه إلى وعيه ذكرى اجتماع لطيف من الاجتماعات العائلية ؟ ومن منا لم تصدمه الحياة يوماً ما بصدمة وجد الملاذ والمهرب منها فى جو بيت عائلى هادئ فى الريف ؟..

الواقع أن المحبة العائلية كنز لا ينبغى التفريط فيه ؛ فإن صديقك يحبك من أجل ذكائك ، وعشيقتك تحبك من أجل جاذبيتك .. أما حب عائلتك لك فهو الحب المجرد من السبب والغاية ، المنزه عن الغرض !.. فأنت قد ولدت فيها ، وخلقت من لحمها ودمها !..

ومع ذلك فإن عائلتك قد تثيرك وتحنقك أكثر من أية جماعة

أخرى على ظهر البسيطة !.. وأى إنسان لم يقل لنفسه ذات يوم ، فى مرحلة من مراحل شبابه : « إنى أختنق هنا ، ولست أستطيع العيش مع عائلتى بعد الآن .. إنهم لا يفهموننى وأنا لا أستطيع أن أفهم ! » ..؟

● ومع ذلك ، فأى إنسان حين يجد نفسه مهملا وسط الغرباء ، أو محتقراً ، لا يحس بحنين للعودة إلى العائلة التى تعتبره قرة عينها ومحط آمالها ؟.. لقد كتبت الأديبة « كاترين مانسفيلد » فى مفكرتها ، وهى فى سن الثامنة عشرة ، أنها تجد من واجبها أن تهجر عائلتها لأن عقلها لا يستطيع أن ينضج فى وسطها النضج الذى ترجوه !.. لكنها فيما بعد ، وهى بعيدة عن أهلها ، مريضة وسط قوم غرباء ، كتبت فى نفس المفكرة تعبر عن حنينها إلى أيام طفولتها ، حين كانت جدتها تحمل إليها فى فراشها آنية اللبن الساخن والخبز وتقول لها — بصوتها الناعم الحنون : « إليك يا حبيبتى .. » وهكذا أحست كاترين فى محنتها أن مجرد الأمل فى أن تجد نفسها مرة أخرى وسط الأسرة التى احتقرتها وهجرتها ذات يوم ، يدخل على نفسها بهجة وسعادة لا توصفان ..!

والحقيقة التى لا مرية فيها أن العائلة — مثل الزواج — هى من الأنظمة التى يرجع تعقدها إلى فرط أهميتها !.. فهى ليست نظاماً نظرياً من خلق مشرع أو حاكم ؛ وإنما هى نتيجة طبيعية لانقسام البشر إلى جنسين ، ولعجز الطفل عن حماية نفسه ، وللحب الأموى

الذى يعوض هذا العجز . والحب الأبوى الذى هو أكثر صناعة وتكلفاً من حب الأم ، وأحدث عهداً منه فى تاريخ البشرية ، والذى فيه فى الواقع نصيب من الحب للأم نفسها — أى للزوجة — مساو لما فيه من الحب للطفل !

أثر الغرائز فى الروابط العائلية ..

• ويصح فى صدد الروابط العائلية عموماً ما قلناه فى صدد الروابط بين الزوجين بصفة خاصة : وهو أن هذه الروابط العائلية جميعاً تستمد قوتها وسندها من « الغرائز » الطبيعية .. فالعائلة هى جماعة طبيعية أو غريزية حولتها حماية القوانين والمعتقدات إلى جماعة لها كيان دائم .. فواجبات الآباء نحو أولادهم ، والأولاد نحو آبائهم ، وشرعية الوراثة .. إلى غير ذلك من الروابط العائلية ، تدور حول شعور طبيعى للغاية ، حتى ليوجد فى كثير من أنواع الحيوان ، هو غريزة الأمومة !

• فالشعور الذى تحسه الأم نحو طفلها شعور نقى وجميل ، ليس فى ذلك خلاف .. فالأم فى نظر طفلها ملاك طاهر ، قوى ، صائب الرأى دائماً ، يحميه ويدفع عنه الأذى والألم ، ويمده بأسباب الحياة والمتعة والغذاء .. وبالاختصار فهى ملجأه وملاذه الأعلى ، الذى يجد فى كنفه الدفء ، والراحة ، والصبر ، والحب .. والطفل فى نظر أمه — من الناحية الأخرى — هو إلهها المعبود ، الذى « تعبده »

بإذن من الله وتصريح من الدين ! .. وليس حب الأم لابنها ، وتفانيها فى العناية به ، بالفضل الذى يحسب لها أو يحمد .. لأنه فى حقيقته لون من الأنانية ! .. فهى تضحى بنفسها راضية فى سبيل طفلها ، لأن طفلها جزء منها ، من لحمها ودمها .. وقد تعلم المتوحشون كيف يحبون قبل أن يوجد أى مجتمع بشرى ، وذلك بفضل الحب الجنسى .. الحب الأموى !

الحب الجسدى .. والحب الأموى

وإذا كان الحب الجنسى مبنياً على غريزة الجسد أو غريزة حفظ الذات ، فإن الحب الأموى — على العكس — مبنى على إنكار الذات ، وهو أنقى صور الحب الغريزى .. بل إن حب المرأة للرجل هو نفسه قد يمتزج بشىء من الحب الأموى ، كما فى حب الأديبة « جورج صاند » للشاعر « ألفريد دى موسيه » ، أو حبها للموسيقى « شوبان » .. فقد كان حبها لكليهما أموياً أكثر منه جسدياً ! .. ولم تكن حالتها بالشاذة أو النادرة ، فمن قبلها أحب « جان جاك روسو » « مدام دى فارين » التى كانت تكبره فى السن ، وأطلق عليها « أماه » .. وبرغم أنها كانت خليلته فإنها كانت تعامله بحنان الأم وحدبها وعنايتها .. وتكررت القصة ذاتها بين « بلزاك » الشاب وعشيقته « مدام دى بيرنى » ..

ومن هذه الأمثلة — وسواها — يتضح إمكان نشوء علاقات

عاطفية وجنسية بين شبان وبين نساء ناضجات يكبرنهم فى السن . وهى علاقات يكون قوامها الحب العنيف من جانب الشاب . أما من جانب المرأة فلا يزيد الأمر عن كونه خليطاً هزيلا من الحب الجنسى والأموى .. فهذه الفئة من النساء المتقدمات فى السن لا تستطيع الواحدة منهن أن تحب إلا إذا أحست بشعور من « الحماية » لشخص أضعف منها ، يوقظ فيها أعمق غرائزها الدفينة ، التى هى غريزة الأمومة !.. فهى تحب الشخص القوى فى مظهره ، الضعيف فى حقيقته ونفسيته !.. وفى قصتى «برنارد شو» المعروفتين : « السلاح والرجل » و « كانديدا » أمثلة أخرى توضح هذه الحقيقة الأزلية .

حب الأم لطفلها .. وكيف ينبغى أن يكون !

● وحب الأم لطفلها هو أول صورة يتعلم منها الطفل فى سنواته الباكرة كيف يكون الحب المثالى المضحى .. فهو إذا أسعده الحظ بأم جديرة بهذا الوصف يفتح عينيه أول ما يفتحهما على أمثلة تريه أنه ليس فى دنيا معادية له ، بل موالية ، يستطيع أن يجد فيها العطف والمحبة .. وإن هناك أناساً جديرين بالثقة المطلقة الساذجة ، أناساً يعطون كل شيء ولا يطلبون فى مقابله أى شيء !

وإنها لبداية رائعة أن يبدأ الطفل حياته فى مثل هذا الجو ، فهذا من شأنه أن يجعله يعيش حياته كلها متفائلا ينظر للدنيا بمنظار بهيج ولا يفقد إيمانه بها ، مهما تكاثرت عليه الأحزان أو صادفه الشقاء

وسوء الطالع ... بعكس الطفل الذى ينشأ فى كنف أم حمقاء غبية ظالمة ، فإنه يشب رجلا متشائماً سريع اليأس ملىء النفس بالعقد التى تفسد سعادته وتتلف حياته !

وقد عرفت فتيات كن أثناء فترة مراهقتهن فى نزاع مستمر مع أمهاتهن ، فلما نضجن صرن زوجات وأمهات ممرورات النفس ، يتحدين المجتمع ، ويعتقدن اعتقاداً جازماً أن جميع نساء الأرض الأخريات يناصبنهن العداء .. !

ومن ناحية أخرى ينبغى على الأم التى يشاء لها طيشها أن تنحرف عن الطريق المستقيم ، أن تصون مباذلها عن بصر وإدراك أطفالها ، الذين لو صدم مسلك أمهم نفوسهم الغضة المرهفة الإحساس ، لرسب فى أعماقهم « نفور » أو فى القليل « عجز » عن احترام هذه الأم .. الأمر الذى يجعلهم حين يكبرون ويصيرون آباء أو أمهات ، يعجزون بدورهم عن حب أطفالهم الحب المثالى المنشود !

حب الرجل لأمه قد ينقلب شذوذا !

● على أن مغالاة الأم – من الناحية الأخرى – فى إغداق حنانها وعواطفها على طفلها ، قد تؤثر فيه تأثيراً سيئاً بأن توقظ فيه غرائز وعواطف لا تناسب سنه الباكرة .. فتتسلل إلى العاطفة المشروعة نحو أمه . واحترامه المفروض لها . مشاعر « حسية » خطرة وغير مشروعة .. دون أن يدرى ! وقد أبدع فى وصف هذا الموقف

الثالث الروائي الإنجليزي « د . هـ . لورنس » الذي كان هو نفسه فريسة له ، والذي صور لنا في قصته الخالدة « أبناء وعشاق » حالة شاب أنشأته أمه على المغالاة في حبها . بحيث أعجزه حبه لها عن أن يحب غيرها من النساء بعد أن كبر ..!

ولا جدال في أن الحالات التي أشرنا إليها هي حالات شاذة ومتطرفة .. أما الطبيعي فهو أن الحياة العائلية تتيح لنا فرصة « نتمرن » فيها على الحب ! .. وهذا هو السبب في أننا نحس بعد ذلك بسعادة عجيبة في العودة إلى عائلاتنا ، برغم كل ما قد تنطوي عليه قلوبنا من ضغينة ضدها . لكن دروس الحب التي نتلقاها في عائلاتنا في فترة صبانا ليست هي السبب الوحيد الذي يغرينا بالعودة إليها . وإنما يغرينا بذلك أيضاً أن بيتنا العائلي هو المكان الذي تنطلق فيه نفوسنا على سجيتها ..

متعة الحياة بغير كلفة

● وقد يسأل سائل : وهل هذا مطلب عسير ؟ وهل نحن لا نستطيع أن ننطلق على سجيتنا أينما أردنا ؟ الجواب بلا شك : كلا ! فنحن في المجتمع نمثل دوراً ، ونتخذ لنفسنا مسلكاً خاصاً وشخصية نتقمصها . والمجتمع ومقتضيات أعمالنا تفرض علينا واجبات نؤديها .. إلخ — أما في داخل نطاق الأسرة المتآلفة فإن تلك الواجبات والمظاهر المختلفة التي يتكلفها أفرادها في الخارج تتضاءل إلى أضيق

الجمود : فهم يجتمعون في البيت في المساء . فيجلس الأب في مقعده المريح يقرأ الصحيفة أو ينعم بإغفاءة .. وتنهمك الأم في شغل الإبرة . وفي التحدث إلى كبرى بناتها في الثلاثة أو الأربعة الموضوعات التي تشغل كل ربة بيت .. بينما « يدندن » أحد الأبناء بنغم لحنه المفضل وهو يطالع قصة بوليسية .. ويأخذ آخر في إصلاح « كوبس » الكهرباء .. وينشغل ثالث بإدارة مفتاح الراديو .. وهذا كله مناف للسكون والهدوء . فالراديو يزعج الأب أثناء قراءته الجريدة أو إغفاءته .. وصمت الأب يضايق الأم .. وثرثرة الأم وابنتها تثير أعصاب الأولاد .. ولا يتكلف هؤلاء جميعاً إخفاء مشاعرهم — فقلما تراعى الآداب بين أفراد العائلة الواحدة ! — وهكذا تجد كل واحد من هؤلاء يعتقد في قرارة نفسه أن الآخرين مجانين لا يمكن احتمالهم . لكنه يحتملهم مع ذلك ويعلم أن عليه توطين نفسه على سماع تذمر مماثل من جانبهم ، أو تسامح مقرون بالمشاكسة ..!

وهؤلاء الأشخاص لا يجدون متعة مسكرة في الحياة العائلية . لكنهم يستطيعون كما ذكرنا أن ينطلقوا فيها على سجيتهم ، ويتمتعوا بالراحة التي ينشدونها . فهم يعلمون أنهم بين قوم قد ألف كل منهم الآخر . وإذا اقتضى الأمر شارك الآخر متاعبه .. فلو شكا أحد ممثلي « المسرح » الذي نصفه من حمى مفاجئة مثلا ، لقلق عليه الآخرون من فورهم وانزعجوا : فهرعت الأخت تعد له فراشاً . وسهرت الأم على تمريضه . ومضى أحد الإخوة إلى الصيدلي ..

وهكذا لا يجد المريض نفسه وحيداً . أما الرجل الذى بغير عائلة ، الوحيد فى الدنيا ، فإنه يرتجف من صقيع الوحشة . وفى البلاد التى تضعف فيها الروابط العائلية — لأسباب مختلفة — يشعر الرجال بحاجتهم إلى التقارب من بعضهم البعض ، وينضمون فى تفكيرهم إلى رأى الجماعة ، كى يستعيضوا عن فقد تلك الجماعة الصغيرة المتحابة ذات العواطف الدافئة : العائلة !

الشجار العائلى !

● وواضح أن الحياة العائلية قد تنطوى على بعض المخاطر الجدية : من قبيل ذلك تلك النزعات المتمردة التى تملأ عقول كثير من المراهقين . فالعائلة قد تنبت فيها الكراهية كما ينبت الحب . وهذه الكراهية تكون غالباً عنيفة ، لأن تضارب المصالح يغذيها ، ولا يوجد بين أفرادها قدر كاف من الأدب والمجاملة يخفف من حدة نزاعهم . وقد وصفت فيما سبق سهرة عائلية يستمتع فيها أفراد العائلة بالاسترخاء الكامل — الذهنى والجسمانى — ويتصرف كل على هواه دون أدنى تكلف . ولكن إلى أين تقودهم هذه الحرية المطلقة ؟ إنها ككل حرية غير مقيدة قد تقود إلى ذلك الضرب من الفوضى الذى يجعل الحياة عسيرة .. فتجد أهل البيت يتبادلون التذمر والشكوى المستمرين : فهذا تضايقه رائحة الزهور التى يحضرها الآخر .. وذاك يزعجه صوت أخيه المرتفع !.. واحد يحب السكون



فتجد أهل البيت يتبادلون التذمر والشكوى المستمرين : فهذا تضايقه رائحة الزهور التى يحضرها الآخر ، وذاك يزعجه صوت أخيه المرتفع !..

في الصباح لأنه يتأخر في نومه . والآخر يفضل الصمت في الليل لأنه يؤثر النوم مبكراً ! .. هذا يضيق بالمناقشات الدينية ، والآخر يصر على أسنانه غيظاً حين تدار دفة الحديث إلى السياسة ! وحق الاعتراض — « الفيتو » — مكفول للجميع دائماً ، وهو كثيراً ما يستخدم في غطرسة وعصبية تفسد العلاقات بين أفراد الأسرة ..

المستوى العقلي للأسرة

● وفي مثل هذه العائلة يسير أفرادها جميعاً على الروتين الذي يفرضه أضعفهم شخصية وعقلية ومستوى .. كما يحدث حين تسير جماعة في الطريق . بالسرعة التي تحددها خطوات أبطأ أفراد الجماعة سيراً ! وقد يكون نزول أفراد العائلة إلى مستوى أضعفهم وأقلهم شأناً . دليلا على إنكار الذات .. لكنه في الواقع يحط من مستوى الحياة العقلية للأسرة . والدليل على ذلك أن هذا المستوى يرتفع فجأة يوم يدعى ضيف ممتاز لتناول الطعام على مائدة تلك الأسرة ! فنجد يومئذ أفراد العائلة الذين كانوا يجلسون عادة صامتين . أو متحدثين في التفاهات . قد أبدوا فجأة ذكاء واضحاً وأدلوا بآراء قيمة ! وما ذلك إلا لأنهم يبذلون — لمجاراة هذا المتحدث الغريب — جهداً لا يبذلونه عادة في أحاديثهم مع بعضهم البعض !

لذلك فإن من أسوأ الأشياء أن تنطوي العائلة على نفسها وتكتفي باجتماعات أفرادها وجلساتهم التي لا « يطعمها » اشتراك شخص

غريب في الآراء والأحاديث .. وإنه لمن ألزم الأمور أن تتدفق في محيط العائلة تيارات جديدة على الدوام . كما تتدفق أمواج البحر في خليج واسع مفتوح للمياه المتجددة .

الدين .. والأدب .. والموسيقى

ولا يشترط أن يكون الضيف الغريب حاضراً بشخصه في وسط العائلة ، وإنما هو قد يكون حاضراً بأفكاره أو فنونه . كأن يكون أديباً عظيماً أو موسيقياً مبدعاً . تنصت الأسرة إلى كتاباته أو ألحانه في سهراتها الليلية .. كما أن للقراءات العائلية في كتب الدين أثراً لا ينكر في توسيع أفق المجتمعين وأفكارهم . وقد اعترف كثير من أدباء الإنجليز الممتازين بأنهم يدينون بأسلوبهم الأدبي للمطالعات المستمرة في الكتب العظيمة .. وإذا كان بين نساء إنجلترا في العصر الحاضر عدد كبير يمتاز بموهبة طبيعية في الكتابة . فإن جانباً كبيراً من هذا الفضل يرجع إلى أن مثل هذه القراءات الدينية قد حمتهن من الثرثرة العائلية التافهة وعرفتهن منذ سن باكرة بالأساليب الممتازة .. بل إن أديبات فرنسا الشهيرات في القرن السابع عشر — مثل مدام دي سيفينيه ومدام دي لافاييت — لم يصلن إلى مرتبتهن الأدبية السامية إلا بفضل دراساتهن اللاتينية الباكرة ..

ومن الأخطار التي تزيد من تفاهة الأحاديث العائلية الصرفة ما يألفه بعض أفرادها من عدم إتمام عباراتهم . فهم يفهمون بعضهم

البعض بسهولة من بداية الكلام ولا يرون داعياً لإتمامه .. وللتغلب على نتائج هذه العادة السيئة ورفع مستوى العائلة الذهنى ينبغى أن يتعرف أفرادها بانتظام على أعظم الروائع التى أنتجتها الإنسانية ، فى الدين والأدب والموسيقى والسياسة وغير ذلك ...

لا كرامة لنبى فى وطنه !

• وثمة خطأ آخر تقترفه العائلات فى حق بعض أفرادها . هو عدم النظر إليهم أو إلى هواياتهم نظرة جدية .. لا بدافع العداء أو الغيرة . وإنما لأنها اعتادت أن تنظر إليهم من زاوية معينة .. من قبيل ذلك مثلا أن الشقيقات « برونتى » اللواتى تركن للعالم تراثاً أدبياً خالداً (منه روايتا « مرتفعات وذرنج » و « جين إير » وغيرهما) لم يكن فى نظر أبيهن أديبات أو مؤلفات . بل كان أدبهن فى نظره « مجرد تسلية » !.. كما أن « تولستوى » كان فى نظر زوجته وأولاده رب عائلة شاذ أكثر منه أديباً عالمياً . ولو سألت زوجته الكونتة عنه أثناء حياته لتجاهلت أدبه وعبقريته وشكت لك من شذوذه الذى يجعله ينادى بعدم تشغيل الخدم فى المنازل ثم يطالب زوجته فى آخر لحظة بتحضير العشاء لخمسة عشر ضيفاً !

والواقع أن الإنسان لا يستطيع إلا أن يرسل نفسه على سجيتها فى جو بيته وأسرته .. ولذلك فلا مكان للبطل أو القديس فى بيتــه . « ولا كرامة لنبى فى وطنه » !.. ومن هنا يحدث كثيراً أن يقتنع

العظيم أنه لكى يؤدى رسالته كما ينبغى لا بد له من الفرار من جو أسرته !.. حدث هذا لتولستوى فهجر بيته ليعيش ناسكاً زاهداً .. وسمع الرسام « جوجان » نداء داخلياً يهيب به « اترك أباك وأمك .. » فهجر بيته هو الآخر ليعيش فى جزيرة « تاهيتى » راهباً يتعبد فى محراب الفن .. وكل واحد منا لا بد قد مرت به ولو مرة واحدة فى حياته أزمة نفسية سمع خلالها نداء « الابن الضال » يغريه بالتمرد على قيود الأسرة وممارسة حياة التحرر والانطلاق ..

وأنا أعتقد أن فوائد هذا القرار هى محض خيال ، فهو ليس إلا فراراً من الروابط العائلية « الطبيعية » إلى روابط خارجية « غير طبيعية » .. فالإنسان لم يخلق ليعيش وحيداً ، وسواء فر من بيته إلى عزلة النساك ، أو عزلة الأدباء المنطوين .. أو إلى عزلة الجنون ، والخبل – مثل نيتشه – فإن الذى لا سبيل إلى الشك فيه أن الحكمة الحقيقية ، كما يقول الحكيم « ماركس أوريليوس » ، لا تكتسب بالانزواء عن العالم ..!

والخلاصة أن الفرار من الحياة العائلية قد يكون سهلا ، لكنه عقيم وغير مجد .. والأنفع من ذلك ، والأصعب ، والأنبل ، هو محاولة رفع المستوى الذهنى لجو العائلى .. لكننا لا نستطيع فى الواقع الواقع أن نتجاهل أن هناك فترة فى حياة الشباب يكون فيها طبيعياً منهم أن يروا « قيود » الحياة العائلية أكثر مما يروا منافعها العظيمة .. وهذه الفترة هى التى نطلق عليها « سن الحيرة » ، ولكى نصورها

تصوراً صادقاً لابد لنا من تأمل العلاقات بين الأجيال المختلفة التى ينتسب إليها أفراد العائلة ، من وجهة نظرهم هم :

حذار من تدليل الطفل !

● وقد تحدثت فيما سبق عن المرحلة الأولى من هذه العلاقات بين الأجيال : مرحلة العطف الغريزى غير المحدود من جانب الأم نحو طفلها . والتعلق والثقة غير المحدودة من جانب الطفل نحو أمه .. وهذه العواطف المتبادلة طبيعية ولا شك . لكن غير الطبيعى هو المغالاة فيها إلى حد « تدليل » الأم لطفلها وإفساده بجعله يمارس سلطاناً خاصاً على أمه ، ويعتز بهذا السلطان وهذه « القوة » المستمدة من ضعفها هى !

ولا شيء أخطر على مستقبل الطفل من هذا التدليل . وهنا ينبغى أن تعلم كل أم أن تكوين عادات الطفل وطباعه يبدأ خلال « الأشهر » الأولى من حياته . بحيث لا ينتهى العام الأول من عمره حتى يكون قد تحدد أمر خضوعه للنظام أو تمرده عليه ! وقد طالما سمعت أناساً يقولون — بل لقد قلت أنا نفسى يوماً : « إن تأثير الوالدين على أطفالها ضعيف للغاية ، وليس فى وسعهما تغيير طباع هؤلاء الأطفال المتأصلة أو أخلاقهم الموروثة ! » .

لكن هذا الرأى خاطئ تماماً .. فى حالات كثيرة يكون فى وسع الوالدين تغيير طباع الطفل عن طريق التربية فى تلك السن

الباكرة ، التى قلما تعنى بها الأمهات أو الآباء .. فالطفل يجب أن يعود الخضوع للنظام منذ الأيام الأولى له فى الوجود ، وإلا كان مصيره المحتوم أن يتألم ويتعذب حين يكبر !.. ذلك أن للمجتمع قوانينه التى لا تتغير أو تتبدل ، وعلى كل إنسان أن يشق طريقه الخاص خلالها بالفأس والمنجل ، وهى مهمة عسيرة شاقة تتطلب صبراً ، ومثابرة ، وخضوعاً للأمر الواقع .

أما الطفل المدلل فيعيش فى عالم وهمى ، فهو يظل طيلة حياته يعتقد أن ابتسامة منه أو حركة غضب سوف تحقق له النتيجة المرجوة وتنيله مبتغاه .. وهو يريد أن يحبه الجميع الحب المضحى الذى ألفه فى طفولته من والديه غير الحازمين . وكلنا نصادف فى الحياة رجالا كانوا فى صباهم مدللين . وهؤلاء قد يصلون إلى أعلى المراكز ثم يفقدونها فجأة بسبب تصرف صبيانى ! ومن هذا القبيل أيضاً أولئك النسوة اللواتى يعتقدن وهن فى سن الستين أن فى وسعهن الحصول على ما يردن عن طريق استعمال سلاح « العبوس » !

والعلاج أو الدواء الواقى من هذه العواقب هو أن تعلم الأم طفلها الوليد ، فى تلك الأشهر الأولى من حياته التى يتلقى خلالها من أمه تعليماتها الصامتة ، بالإشارة ، أن هناك فى الحياة قواعد لا بد من الخضوع لها .. وما أعظم جناية الأم أو الأب اللذين يدللان طفلهما فيجيبانه إلى رغباته « التعسفية » ، سواء ليتجنبا بكاءه أو ليستمتعا بلذة رؤيته يبتسم ابتسامة الرضا والفرح !

غيرة الطفل !

● وأكثر الأطفال حظوة بتدليل الوالدين عادة هو الطفل الأول . الذى يمارس فيه أبواه لأول مرة متعة متابعة حركاته اللطيفة وملاغاته وتطور كلامه وتعبيراته . بحيث لا يلبث أن يصبح محور اهتمام الأبوين وعنايتهما . ويجب أن لا يتوهم الكبار أن الصغير لا يحس بهذا الاهتمام والعناية . فالحقيقة أنه سرعان ما يتنبه إلى مركزه الممتاز فى البيت .. فإذا ما ولد له بعد ذلك أخ جديد يشاركه حب والديه أو يحتل المكان المفضل فى قلبيهما – بحكم ضعفه واحتياجه إلى العناية – صدم الطفل الأكبر صدمة أليمة قد تزعزع ثقته فى دنياه وتترك فى نفسيته أثراً سيئاً ، ومرارة لا تمحى بعد ذلك بسهولة !.. ومثل هذه العواطف تتعمق فى نفوس الأطفال إلى درجة مخيفة ، قد تبلغ أن يتمنى الكبير منهم موت غريمه الصغير الذى انتزع مكانته .. وبعض الأطفال – ولا سيما المرهفين – يحاول فى هذه الظروف أن يسترد اهتمام والديه به بالشكوى المتكررة ، وادعاء المرض ! – مثلما يحاول طراز من النساء أن يحظى بانتباه الرجال واهتمامهم عن طريق إثارة شفقتهم وعطفهم ! – وهكذا تفاجأ الأم بتغير ظاهر فى ابنها الأول . أو ابنتها ، الذى بعد أن كان عاقلا حسن التربية انقلب فجأة مخلوقاً لا يحتمل ، يثير أعصاب أمه بحركاته « السخيفة » وحماقاته التى كثيراً ما يحس هو نفسه بالندم عليها والاشمئزاز منها !

وقد أوضح العالم النفسانى الكبير « أدلر » مدى الضرر الذى ينجم عن سوء تصرف الأمهات اللواتى يعجزن عن مراعاة الإنصاف والعدل فى معاملة أطفالهن .. وأول نتيجة لهذا التمييز فى المعاملة أن يضمر الإخوة والأخوات البغضاء لبعضهم البعض ، بدلا من أن يكونوا أمثلة للصداقة الخالصة كما هو طبيعى . ولعل قصة « الأشقاء الأعداء » هى أفجع دراما كتبت منذ بدء الخليقة فى تصوير الكراهية بين الإخوة .. ولسوء الحظ تتكرر هذه الدراما فى العائلات كل يوم ، بسبب حماقة الأمهات العاطفيات اللواتى يميزن بين أطفالهن فى المعاملة ويدللن كل وليد جديد !

الابن الأكبر .. والأصغر

● والملاحظ أن الطفل الأكبر يحتفظ طيلة حياته بطابع يميزه عن إخوته ، وكذلك الطفل الأصغر أو الأخير .. فالأول ينشأ محافظاً ، ميالا إلى الجد والرزانة ، والاكتئاب .. يشتاق دائماً إلى التحدث عن الماضى البعيد ، والحنين إلى طفولته الباكرة ، التى كانت أسعد فترات حياته !.. بعكس الابن الأصغر الذى يتطلع دائماً إلى المستقبل . إلى اليوم الذى يتخلص فيه من أخيه الأكبر ويطرده من البيت (يوم يتزوج الأخير أو ينتقل من البلدة) كى يصبح هو رب البيت ! وبقدر ما يميل الأول إلى اعتناق المبادئ المحافظة ، ينزع الأخير إلى اعتناق المبادئ الثورية والتقدمية .. ومن يدرس تطور ذهن

« شاتوبريان » يجد أنه بحكم كونه الابن الأصغر لأسرته كان أميل — ولاسيا فى شبابه — إلى تحبيذ الأفكار الثورية التى انتشرت فى القرن الثامن عشر .

والطفل الأصغر يكون بدوره مدللا فى الغالب ، وخاصة حين يكون فارق السن بينه وبين إخوته كبيراً .. لكنه يعيش طفلا سعيداً، لأن « امتيازاته » لن تسلب منه يوماً ما .. فهو مدلل من والديه ومن إخوته الكبار أيضاً ، الذين يعاملونه عادة بعطف « أبوى » ! .. وهو ينجح فى حياته فى أغلب الأحوال ، لاحتفاظه بثقته بنفسه من ناحية .. ثم لأنه بحكم معيشته مع إخوته الكبار ينهج على منوالهم ويحاول أن يستفيد من تجاربهم ويلحق بهم .. وهو ذكى ، فطن « دبلوماسى » . لأنه ، وهو أضعف إخوته ، مضطر إلى مساومتهم والتفاهم معهم بالحسنى !

الخلاف بين الوالدين

● وينبغى على الوالدين اللذين يوجد بينهما خلاف أو عداء أن لا يسمحا لأطفالها باكتشاف هذه الحقيقة . التى تؤلمهم وتفقدهم احترامهم لوالديهم .. والأطفال الذين يلحظون فى صباهم بعد الشقة بين نصائح أبويهم وأفعالها . يشبون عادة متمردين على كل شيء . والفتاة التى تنشأ على احتقار أمها تشعر فيما بعد بنفس الاحتقار نحو بنات جنسها جميعاً . والأب المستبد يزرع فى نفوس أولاده — وبناته على الخصوص — بذور النفور من الزواج واعتباره نوعاً من

العبودية ! .. فى حين يتركز واجب الأب الأول فى أن يسبغ على أولاده أكبر قدر من السعادة يتناسب مع المستقبل الذى يعدهم له . وهذا الهدف ينبغى أن يكون مرعياً لسببين على الأقل ، أولهما : أن الحياة قصيرة ، وذكريات الطفولة هى أثمن ذكريات العمر .. وثانيهما : أن تعاسة الطفولة الكئيبة القاتمة قد تلازم الشخص مدى الحياة !

ولكن ، ينبغى على الوالد فى الوقت نفسه أن يكون حازماً مع أولاده ، وأن يعلمهم منذ صباهم الباكر أن الدنيا لا يمكن « غزوها» بسهولة .. وإلا أصيبوا حين يكبرون بصدمات متكررة ناتجة عن خيبة الأمل ! والطفل الذى تحصنه أمه ضد جميع مضايقات الحياة يدركه اليأس سريعاً حين يخالط فيما بعد رفاق المدرسة ، ورفاق العمل ، الخشنين القساة ! .. بل إن مثل هذا الشخص يشب عاجزاً عن مصارعة الحياة ، سريع الاستسلام للفشل . وفى اعتقادى أن أسلم طريقة للتدرج بالأولاد من سن الصبا إلى سن المراهقة والنضوج ، بأقل قدر ممكن من الألم ، هى الجمع بين واجب المراعاة لبضع قواعد صارمة من قواعد التربية ، وواجب بذل كل جهد ممكن — فى الوقت نفسه — لتأمين سعادة الأبناء ..

حب الأم .. وحب الأب

● وهنا يتساءل المرء : هل هناك فارق بين حب الأم لأولادها، وحب الأب لهم ؟

نعم . هناك فارق . بل فوارق .. كما أن الأمر يختلف تبعاً لجنس الأبناء . وما إذا كانوا بنيناً أم بنات !

وقد تحدثنا عن حب الأم لطفلها الرضيع . أما فى ما بعد مرحلة الطفولة الأولى فالأمر يختلف : فقد تنشأ بين الأم وولدها صلة « تعلق » وثيقة من أنبل الصلات البشرية وأقواها . وهذه الصلة تزداد بعد وفاة الأب . حيث يقوى حب الولد لأمه واحترامه إياها . ويقوى من الناحية الأخرى حب الأم لولدها واحترامها له . بحكم صيرورته رب الأسرة الجديد أو المنتظر !.. وهذا الخليط الرائع من العواطف يتمثل أكثر ما يتمثل فى الريف . حيث تحكم الأم المزروعة بمساعدة ابنها وزوجته . وحيث يتعاون الثلاثة تعاوناً لا تفسده غيرة الأم من زوجة ابنها (بعكس الحال فى المدن . حيث تكثر أمثلة الأم الأنانية التى تأبى التنازل عن سيطرتها على ابنها . والتى لا تحبه فى الواقع حباً كافياً كى تدرك أن سعادته قد انتقل زمامها الآن إلى امرأة أخرى !.. وليست قصة د . ه . لورنس « أبناء وعشاق » التى أشرنا إليها فيما سبق . بالقصة الوحيدة التى تصور هذه الأنانية والانحراف فى حب الأم لابنها !) .

أما العاطفة بين الأم وابنتها فأمرها يختلف : فأحياناً تصل العلاقة بينهما حداً تعجز معه الابنة — حتى بعد زواجها — عن أن يمر بها يوم لا ترى فيه أمها !.. ولكن أحياناً يقوم بينهما . من الناحية الأخرى . تنافس شاذ : إما لأن الأم ما تزال شابة حسناء . فهى

تغار من ابنتها .. أو لأن الابنة تكون غير واثقة من نفسها ، فتغار من أمها الحسناء .. وواضح أنه فى مثل هذه الظروف يكون واجب الأم — بصفتها الأكبر سناً — أن تقمع مشاعرها هى !

وأما حب « الأب » لأولاده وبناته فهو عاطفة أضعف بلا شك من حب الأم . وإن كان « بلزاك » قد وصف فى قصته « الأب جوريو » عاطفة أب يضحى بكل شىء فى سبيل إسعاد ابنتيه . لكن علماء النفس يميلون إلى اعتبار مثل هذا الحب الأبوى المغالى فيه حالة « مرضية » شاذة لا يقاس عليها . فى الوقت الذى يتقبلون فيه بغير دهشة أغرب صور مغالاة الأم فى حبها لأبنائها دون أن يروا فيها خروجاً عن العواطف « الطبيعية » .

وتعليل هذا الاختلاف بين عاطفتى الأب والأم نحو أولادهما أن الأب تشغله أعماله وتبعده عن البيت أكثر الوقت . فلا تتاح له فرصة التفرغ لأولاده . مثل الأم ، وتنمية علاقته بهم .. وهناك سبب آخر يعوق الأب عن المبالغة فى تدليل أطفاله . وهو أنه يتطلب فيهم الكمال والخلو من النقائص التى يعرفها فى نفسه أو تعويض الفشل الذى قد يكون منى هو به فى حياته . ومن ثم نراه يقسو فى معاملة أولاده كى يشبوا على الصورة المثالية التى يتمناها لهم .

وقد ينشأ شىء من التنافس بين الأب وابنه — مثل تنافس الأم وابنتها — يوم يضطر الأب إلى التخلى عن إدارة عمله لابنه . ويجد أن الابن قد تفوق عليه مثلا فى إدارة العمل المذكور !.. وكذلك

قد تنشأ علاقة وثيقة بين الأب وابنته – مثل العلاقة بين الأم وابنها – فنجد فى العصر الحديث فتيات شبيهات بـ « أنتيجون » بطلة رواية سوفوكل الخالدة ، ومن هذا القبيل ابنة تولستوى الصغرى التى كانت شديدة الألفة مع أبيها .. وكم من سفير أو سياسى اتخذ ابنته سكرتيرة خاصة له .. وكم من ابنة تشبهت بأبيها ونسجت على منواله وتطبعت بطباعه . مثل « أوجينى جرانديه » بطلة قصة « بلزاك » المشهورة التى أخذت عن أبيها بخله وشحه وتقتيره !

هل ينتفع الأبناء بتجارب الآباء ؟

● وحين يكبر الأبناء ويبدأ اصطدامهم بعقبات الحياة وصعوباتها المختلفة ، يذكر الآباء أخطاءهم الخاصة القديمة فيحاولون فى سذاجة حماية فلذات أكبادهم من مواطن الزلل وإفادتهم بثمرة تجاربهم الشخصية . لكن هذه التجارب قلما تنفع غير أصحابها . والحكمة التى تواتى أصحابها مع الشيخوخة لا يمكن أن يعتنقها الشباب !.. والتجارب لا تنتج آثارها إلا إذا سببت لصاحبها ألماً . وترك الألم طابعه على كل من الجسم والعقل !

فالسياسى الذى صار واقعياً بعد أن قاسى ليالى طويلة من الأرق والصراع مع الحقائق ، لا يستطيع أن يقنع بتجاربه الشاب المثالى الذى يريد أن يغير نظام الكون بغير أن يبذل مجهوداً !.. وتجاربنا الثمينة التى نعتز بها ونؤمن بفوائدها تبدو لأولادنا ثرثرة شيوخ تجلب

النعاس والسأم !.. كما أنه من العبث – والمستحيل سيكلوجياً – أن نخلق من الفتاة ابنة العشرين امرأة حكيمة زرقاء الناب .. أو على حد قول أحد الفلاسفة : « إن نصائح الشيوخ والعجائز لهى مثل شمس الشتاء ، تشع نوراً لكنها لا تشع دفئاً ! » ومن هنا نرى المبالغة فى نصح الأولاد تنتج عكس المقصود منها ، فهى تثيرهم وتزيدهم تمرداً ، وتحدث للكبار خيبة أمل ، فيسود الفريقين جو من التوتر والتوبيخ !.. وينبغى علينا نحن الآباء أن نعود أنفسنا أن نتقبل شقاوة الصغار وحماقاتهم « المعقولة » التى لا يمكن تجنبها ، بصدر رحب .

فلنكن منصفين !

● وخلال فترة مراهقة الأولاد – أو البنات – ينبغى على الآباء والأمهات أن يحاولوا تذكر أيام مراهقتهم هم . فلا يشكون مما لابد أن يجول فى رؤوس الصغار من أفكار وما يعتمل فى قلوبهم من مشاعر ونزعات تلازم فترة المراهقة عادة ولا سبيل إلى منعها أو تجنبها !

لكن الوالدين يجدون فى الواقع صعوبة كبرى فى تجاهل نزعات أولادهم فى تلك السن . ونحن جميعاً نقول لأنفسنا فى سن العشرين : « لو صرت والداً يوماً ما لسمحت لأولادى بكذا وكيت . وكنت لهم الأب المثالى الذى عجز أبى عن أن يكونه معى ! » .. لكننا لا نبلغ

الخمسين حتى نصير نسخاً طبق الأصل من آبائنا ، وبالمثل يصير أولادنا مثلنا حين يكبرون !

وهكذا تساهم كل هذه المشكلات وألوان الصراع والأحقاد فى طبع « سن الحيرة » بطابعها .. ويزيد الأمر تعقداً أن الولد أو البنت فى هذه السن يخرج من دائرة أسرته بعض الشيء إلى دائرة زملائه فى المدرسة ، ويكوّن لنفسه صداقات وعلاقات جديدة مختلفة ، فتفتر رابطته بأهله قليلا ويزداد تأثير زملائه وأصدقائه الجدد عليه ، فينزع إلى التمرد على والديه إلى حد ما .. لكن واجب الوالدين فى هذه الفترة الحرجة أن يظلوا على حبهم له وعنايتهم بأموره .

وقد ذكرت فيما سبق أن الحياة العائلية تغدو مملة كئيبة إذا لم تتخللها المطالعات العائلية فى كتب الدين والأدب ، وممارسة فن من الفنون .. وأضيف هنا أنه فى فترة المراهقة ، أو سن الحيرة ، يكون أمراً طبيعياً أن تثير نصائح الآباء الصارمة أعصاب أولادهم المراهقين الحالمين ، فيروحون يلعنون عائلاتهم وقوانينها وتقاليدها .. وينظرون إلى الحب باعتباره شيئاً رائعاً جميلا .. ويحسون بالحاجة إلى الصداقة والعطف والحنان .. فيعقدون الصلات الخفية ويتبادلون العهود والوعود .. ثم تخيب آمالهم حين يحنث أحباؤهم فى عهودهم ، ويخونون مواثيقهم ، ويتقلبون فى عواطفهم .. وهكذا تنقلب مقاصدهم عليهم فيقاسون مرارة اللوعة التى تصيبهم نتيجة لانهيار

مثلهم العليا واتساع الشقة بين أحلامهم الجميلة وبين حقائق الحياة الصارمة !

وإنها لفترة حرجة موجعة فى حياة كل إنسان .. فالشباب أفكارهم وآراؤهم ، لكنهم أحرار من المسئوليات ، معفون من الصراع اليومى مع الناس والأوضاع ، ليست لهم عائلات يعولونها ولا أعمال يديرونها ولا مسئوليات عامة نحو المجموع .. وهم يعتنقون أفكاراً نظرية خيالية بعيدة كل البعد عن الحقائق ، وينظرون إلى النساء والمجتمع نظرات تخالف الواقع كل المخالفة .. ومن هنا ينبع شقاؤهم الذى ينغص عيشهم فى تلك السن ! .. لكنهم حين يتجاوزون طور المراهقة ثم يتزوجون ويرزقون أطفالا ، تزيدهم المسئولية العائلية خبرة بالحياة وتضفى على ذكائهم القديم النظرى الخطر قوة جديدة وإلهاماً قوياً .. وشيئاً فشيئاً يتعلمون الحياة على حقيقتها فى مدرسة الأسرة ، والعمل ، والحياة العامة .. فيغدون رجالا حقيقيين يستطيعون معاونة أولادهم على اجتياز فترة المراهقة بخير ، بعد التعرض لنفس التجارب والمشكلات .. !

لذلك كله يحسن أن يقضى المراهقون جانباً كبيراً من « فترة الحيرة » بعيدين عن محيط عائلاتهم ، كى يكتشفوا العالم الخارجى ومتاعبه فى تلك السن الباكرة ، فتصبح عائلاتهم فى نظرهم — بالقياس والمقارنة — ملجأ وملاذاً يهرعون للاحتماء فيه مرحبين !

فإذا تعذر تدبير هذه الفرصة لأبناء الأسرة المراهقين ، وجب

على الوالدين أن يتذكروا أيام مراهقتهم فيصطنعون اللين والتسامح في محاسبة أولادهم على حماقات ارتكبوها هم أنفسهم من قبل !..
ويحدث أحياناً أن يعجز الوالدان عن اصطناع ذلك اللين والتساهل، فيتولاه بدلا منهم الأجداد، الذين لطف تقدمهم في السن من حدة طباعهم وجعلهم أقل صرامة وتدقيقاً، وأوسع أفقاً وتفكيراً من أبنائهم.. وبالتالي أقدر منهم على فهم الجيل الناشئ وتقدير ظروفه..!

المحبة والحزم معاً..!

● والخلاصة أن فن الحياة العائلية فن كبير الأهمية لحفظ كيان الأسرة .. فنحن نحمل في أعناقنا مسئولية تيسير الحياة على أبنائنا فيما لو عرفنا كيف نكفل لهم طفولة سليمة سعيدة .. وفي سبيل هذه الغاية فليتحد الوالدان على محبة أولادهما، وإسباغ رقتهما وحنانهما عليهم، في نفس الوقت الذي يفرضان فيه عليهم نظاماً رصيناً، ويراعيان المساواة التامة في معاملتهم .. فإذا داهمتهم تلك الفترة الحرجة المحتومة التي أطلقنا عليها « سن الحيرة » تعاون الوالدان على بذل النصح لهم، بقدر، وحكمة، وأنجع النصائح في هذا المجال هي القدوة الحسنة !

وأخيراً فإنه من الضروري لتجديد هواء الجو العائلي ترك التيارات النقية تهب عليه من العالم الخارجي بعد تكييفها تكييفاً مناسباً..

سؤال أخير يفرض ذاته فرضاً على الأذهان في النهاية : هل الحياة العائلية نظام سوف يدوم ؟ وأنا أعتقد أن الجواب بالإيجاب، فهو – مثل الزواج – نظام لا يمكن الاستعاضة عنه، لأنه يهذب الغرائز الفردية ويصوغها في قالب الضرورات الاجتماعية .. ولئن كان الأصوب أن يقضي المرء سنوات يفاعته الباكرة بعيداً عن أهله، فإنه بعد أن يتعلم الحياة في مدرستها الحقيقية ويتمرس بشيء من المغامرات التي لا مفر منها، تأتي الساعة التي يعود فيها مبتهجاً إلى نطاق تلك العواطف العائلية الطبيعية .. وبعد الأيام العسيرة التي يقضيها في عالم قاس لا يعبأ به أو يرحمه، يلذ له – سواء كان طالباً، أو فيلسوفاً، أو وزيراً، أو جندياً، أو فناناً – أن يعود مرة أخرى طفلا، أو أباً، أو جداً، أو رجلا عادياً، حين يجلس ليتناول عشاءه مع أفراد أسرته !

* * *





فن السعادة!

هذا الفن ...

● لعل فن السعادة هو أهم فنون الحياة على الاطلاق . فهو بمثابة الهدف الذى نبغيه من جميع فنونها الأخرى .. فنحن حين نسعى مثلا إلى إتقان فن العمل ، وفن الحب ، وفن الزواج ، وفن الحياة العائلية ، وفن الصداقة ... إلخ .. إنما نبغى من وراء ذلك كله أن نكون سعداء .. فالسعادة هى غاية كل منا وقبلته الأولى .

لكن السعادة بدورها « فن » يحتاج إلى دراسة وفهم . لأنها فى الواقع ليست هدفاً محدداً . إذا بلغناه قنعنا ورضينا .. وإنما هى « حالة نفسية » . قد تتوافر ونحن أبعد ما نكون عن آمالنا . وقد تتبخر حين نبلغ هذه الآمال ونمسك بها بين أيدينا !

أو — كما قال (جوته) بحق : « السعادة كرة نجرى وراءها ما دامت تجرى . وندفعها بعيداً بأقدامنا حين تقف » .

فلنحاول أن نتعلم من « أندريه موروا » كيف نلحق بهذه الكرة حين تجرى . وكيف نستأثر بها حين تقف !

السعادة .. سراب !

● وصف « فونتينل » السعادة بأنها الحال التى نود لو نبقى فيها دون ما تغير أو تبدل .. وليس من شك فى أننا نكون سعداء حقاً إذا أتيح لنا أن نبلغ حالا يرتاح إليها بالنا وبدننا ، فلا يتمالك المرء منا عندها أن يقول : « لكم أود أن يبقى كل شيء على حاله هكذا .. إلى الأبد » !

ولكن .. كيف تبقى حال من الأحوال دون تغير ، فى حين أن العناصر التى تتألف منها هذه السعادة الكاملة ، لا يمكن أن تستقر؟.. فلو أن السعادة تمثلت فى وجود شخص ، فلن يلبث الموت أن يتدخل فيختطف هذا الشخص .. ولو أنها واتتنا فى قطعة موسيقية ، فإن اللحن لا بد صائر إلى نهاية .. أو فى كتاب ، فلن نلبث أن نفرغ من آخر صفحاته .. وهكذا قد نتمنى بقاء حال ما دون تغير ، ولكنا ندرك أن بقاءها مستحيل .. وأنه لو قدر لنا أن نوقف مسرى الزمن عند لحظة فإن السعادة التى تحملها لنا أية لحظة فى أطوائها لا تلبث أن تتضاءل على أى الأحوال حين تذهب جدتها وطرافتها ..!

شقوة الأوهام أقسى من شقوة الحقائق

● ولقد كان من سوء حظنا أن ولدنا فى أيام عصيبة ، ولكن قسوة الزمن لا يجب أن تحرمنا السعادة ، فهى فى الواقع لا تتوقف على

● تعلمت أن أنشد سعادتى بوضع حد لشهواتى ، لا بإشباع هذه الشهوات !

« جون ستيوارت ميل »

الظروف الخارجية وإنما هى من نتاج قوة الإرادة .. وأكاد أسمعك تقول معترضاً : « من نتاج قوة الإرادة ؟.. أو ليست التعاسة . والمرض والاضطهاد . والحرب . بخليقة أن تجعل السعادة مستحيلة ..؟ » .

وهذا جائز . ولكنا يجب ألا ننسى أمرين :

أما الأمر الأول . فهو أن الناس تعانى من الشرور الموهومة . أكثر مما تعانى من الشرور الحقيقية .. وقد أخبرنى طبيب مشهور ذات مرة أن ثمانية من كل عشرة من المرضى الذين يقصدونه خالين من كل أثر للأمراض البدنية . ولكنهم يعتقدون أنهم مرضى .. لأن المرض الموهوم يسبب من الأوجاع ما يسببه المرض الحقيقى ، بل وأكثر فى بعض الأحيان .. !

وروى لى جندى إنجليزى شاب . أنه حين اشتدت الغارات الجوية على الجيش البريطانى أثناء انسحابه من «دنكرك» فى سنة ١٩٤٠ . أوى الجندى إلى حفرة فى الرمال أحس فيها بأنه آمن إلى حد ما .. لولا أن وسوس له فكره أن يدير مذياعاً صغيراً كان يحمله . فسمع مذيع محطة الإذاعة البريطانية يصف المأزق الذى كان الجنود البريطانيون يعانونه فى نفس البقعة التى كان فيها الشاب من ساحل

● قدرة الإنسان على السرور تموت بموت الآخرين . أما قدرته على الألم فلا تموت إلا بموته هو ! « ليدى بليسنجتون »

دنكرك .. واستطرد الشاب قائلا : « وكان وصفه رهيباً ، يشيع اليأس والقنوط ، حتى أننى هلعت وكدت أنطلق هارباً .. ولم أتمالك روعى إلا حين أسكت المذياع ، وتأملت الموقف الحقيقى على ضوء الواقع الذى ألمسه ! » .

هذه القصة مثال رائع لما يصيب معظم الناس .. إنهم يعانون من المخاوف الوهمية أكثر مما يعانون من الأمور الحقيقية التى تبرر الخوف !.. وقد يقضون الليالى الطويلة مسهدين ، قلقين ، من جراء أمور قد يحتمل أن تقع ، ولكنها لم تقع ، وقد لا تقع قط !

من الناس من لا يقنع إلا بالهموم

● أما الأمر الثانى فهو أن سوء الحظ – مهما كان حقيقياً – يمكن تحويله بفضل قوة الخلق والشخصية إلى فرص للسعادة .. فالمريض – إذا كان قوى العزيمة – يستطيع أن يفيد كثيراً من أوجاعه ، إذ تتيح له آلامه فرصة لاكتساب الصبر والجلد .. كما أن اعتكافه يفسح له الوقت للقراءة والتفكير ..

بل إن اقتراب الموت لا يحرم الرجل الشجاع حقاً من السعادة الداخلية .. وقد كان سقراط فى سجنه يبدى الكثير من الأنفة والابتهاج

● ليست السعادة فى أن يظفر المرء بالكثير ، بقدر ما هى فى أن يقنع بالقليل ! « ليدى بليسنجتون »

— برغم علمه بأنه مسوق إلى الموت — حتى لقد شجع جميع أصدقائه الذين جاءوا ليشجعوه !

فالظروف الخارجية إذن تستطيع أن تجعل السعادة متعذرة ولكنها لا تجعلها مستحيلة .. كما أنها من ناحية أخرى لا تجعلها مؤكدة . فإن الذى يصر على إثقال نفسه بالهموم ، يجد دائماً من الهموم معيناً لا ينضب ! ...

والرجل الطموح لا يقنع أبداً بما أصاب .. فلو أن « هتلر » عرف كيف يقف عند حده فى الوقت المناسب . لسعد . ووفق إلى الاحتفاظ بانتصاراته .. ولكنه لم يفعل !

وهناك محظوظون أوتى المرء منهم ثراء . وصحة . وزوجة طيبة . وأطفالا لطافاً .. فهل تراهم يركنون إلى الراحة ويستمتعون بحظهم ؟.. الواقع أن معظمهم يظل مشغول البال مثلا بأن هذه الناحية من نواحى استغلال المال غير مأمونة . أو بأن الأطفال قد يمرضون . أو بأن الوطن قد يتعرض للغزو ... إلخ ذلك أن ثمة صنفاً من الناس لا يقوى شيء على إسعادهم ! .. ومن هنا نستطيع أن نقول إن الظروف الخارجية لا يمكن أن تضمن السعادة . لأن السعادة إنما هى فى واقع الأمر « حالة نفسية ! » .

● لا شيء يغذى الجمال مثل السعادة . « ليدى بليسنجتون »

السعادة إشعاع ينبعث من أعماقنا

● ومن ثم كان لزاماً أن نميز فى العناصر العديدة التى تؤلف لنا حالة « السعادة » بين العناصر التى يتم تبدلها دون أن يقلل ذلك من هنائنا ، وتلك التى لا غنى عنها لتوافر الهناء .. والذين قرءوا قصة تولستوى : « أنا كارنينا » يذكرون كيف انطلق بطلها ، ليفن ، يهيم فى الطرقات عقب فوزه بيد فتاته . وهو لا يكف عن الإعجاب بكل شيء .. إذ بدت له السماء أكثر زرقة . والطيور أشجى تغريداً مما ألفها .. حتى نظرة حارس الباب . بدت له أفهم عطفاً مما اعتادها ! .. على أن سعادة « ليفن » ما كانت لتقل لو أنه كان فى مدينة أخرى .. فإن أية مدينة كانت خليقة بأن تبدو له أفتن مما اعتاد أن يراها ، ويبدو أهلها أرق مما ألفهم ! .. ذلك لأنه إنما يرى كل شيء تحت ضوء يشع من أعماقه .. وهذا الضوء الكامن هو .. روح سعادته !

وليست الأحداث والأشياء التى يستطيبها المرء هى مبعث السعادة .. بل تنشأ السعادة عن حالة ذهنية تخلع على الأحداث صفة خاصة .. ومن ثم فعلينا أن نتمنى بقاء تلك الحالة ، لا تكرر الأحداث السارة بالذات !

● السعادة لا تمنح ، وإنما تتبادل ! « الكونتة ديانا »

الفقر والمرض أول أسباب الشقاء

● وقد يكون من الأسهل كي نهتدي إلى طريق السعادة أن نحصي العقبات التي تعترض سبيلها .. فلنفض السدادة عن القمقم السحري الذي يحبس تعاسات البشرية . ولندعها تنطلق لنتأمل أكثرها شيوعاً :

إن الفقر والمرض هما أول عفريتين معتمين تنطلقان من القمقم فتنعقدان في الجو .. وهما أبغض أسباب التعاسة جميعاً . فإذا ما تكرر حلولهما في أوقات متقاربة . قلت أسباب « العلاج » التي تؤثر فيهما ..

وقد يكون من السهل أن تزعم — كما زعم الفلاسفة الرواقيون — إن المعاناة ليست سوى كلمة . وإن « معاناة آلام الماضي قد انقضت ولم يعد لها وجود .. ومعاناة متاعب الحاضر غير ملموسة ولا منظورة .. ومعاناة المستقبل لم نكابدها بعد ! » .. من السهل أن تزعم هذا ، ولكنه لن يجدي فتيلا . فليس الأمر كما يصوره « الرواقيون » في الواقع ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يفرق ويفصل بين مراحل وجوده .. بل إن تذكر آلام الماضي يجعل من عناء الحاضر عبئاً مطرد الثقل .. ولكن الإنسان القوي يستطيع بلا ريب أن يكافح العناء وأن يحتفظ بجلده . ولقد تحمل « مونتين » في شجاعة مرضاً مفدح الألم . ولكن .. ماذا يفعل العاقل الحكيم . بل القديس . إذا لم تكن حياته سوى أنات متوجعة متوالية ؟

● السعادة بضاعة « تبيعنا » إياها الطبيعة بثمن غال ! « فولتير »

لقد استطاع « ديوجين » أن يستخف بالفقر . لأنه عاش في جو دافئ ، ولأنه كان يملك قوته ، ودلو مائه .. ثم ، لأنه كان وحيداً في الحياة .. ولكن ، ما الذي كان يفعله لو أنه كان متعطلا ، يعول أربعة أطفال في مدينة باردة الجو ، لا سبيل إلى طعام فيها أو وقود إلا بالنقود ؟.. إنها لتكون تعاسة حقة . ومن المهين للمقرورين الجوعى أن تحاول التسرية عنهم بأقوال الفلاسفة ، فهم إنما يحتاجون إلى القوت والدفء !

شقاء الأوهام !

● ولا ينبغي أن نخلط بين هذه الحالات القصوى من المرض والفقر ، وبين المآزق الوقتية التي تعتبر رغم عنائها أهون احتمالا وأقل خلقاً للعوائق في سبيل السعادة .. وقد كان « الرواقيون » على صواب حين فرقوا بين مطالبنا « الطبيعية الضرورية » . كالغذاء والشراب .. ومطالبنا « الطبيعية غير الضرورية » التي سنتحدث عنها فيما يلي .. فهناك فقر حقيق ومرض حقيقي يستحق أصحابهما الرثاء فعلا ، غير أن المرضى بالوهم لا يقلون عن المرضى فعلا .. إذ أن لأذهاننا

● نحن نبغي أن نكون أسعد من الآخرين ، وهذا أمر يكون غالباً صعب المنال ، لأننا دائماً نظن الآخرين أسعد حالا مما هم في الواقع ! « مونتيسكيو »

سلطاناً على أجسادنا لا تكاد تصدقه العقول ، ومن ثم كانت معظم آلامنا وهمية !

● وكما أن هناك أمراضاً وهمية كذلك فى الدنيا فقر وهمى !.. والمقياس الذى يجب أن تزن به هذه الأمور هو أنك طالما كنت تملك سقفاً يظلك ، وطعاماً تأكله ، ولباساً ترتديه ، فأنت تهين الفقير حقاً إذا رحت تعلن تعاستك من جراء أزمة طارئة أثرت على سواك كما أثرت عليك وانتقصت من دخلك !.. ومن أمثلة الشقاء الموهوم ما رواه صديق لى يوماً عن امرأة قتلت نفسها إذ اضطرت إلى الانتقال إلى غرفة ضاقت بقطعة من أثاثها كانت تعتز بها !!

دع الماضى والمستقبل وتدبر الحاضر !

● ويعقب الفقر والمرض من أسباب التعاسة الفشل .. أى الإخفاق فى تحقيق مطمع . أو الخيبة فى الحب ... إلخ - فنحن نرسم الخطط للمستقبل فإذا بها تحبط أحياناً . وإذا آمالنا تنهار .. ونحن نبغى أن نكون محبوبين . فلا نظفر ببغيتنا . وتروح الغيرة تسمم أيامنا ولياليناً !.. وأحياناً نسعى إلى عمل . لكننا نخفق فى الحصول عليه .. إلخ .

● وأغلب هذه التعاسات غير حقيقية . نخلقها فى تصورنا فقط .. وينبغى أن نسأل أنفسنا : ما الذى يشقى الإنسان حين تكون آماله غير

● ما أمر أن تنظر إلى السعادة بعيون الآخرين ! « شكسبير »

ميسورة التحقق ؟.. أهو يشقى لأنه يستشعر ألماً جسدياً ؟.. أبداً .. وإنما يشقى لأنه يتذكر التراخى أو الإهمال الذى أدى إلى فشله فى الماضى ، ويروح يفكر فيما إذا كانت دسائس خصومه ستعرقل نجاحه فى المستقبل ؟!.. بينما لو أنه بذل جهداً فى إدراك الحاضر إدراكاً دقيقاً . بدلا من التفكير فيما كان ينتظر أن يصير إليه الماضى ، أو ما يحتمل أن يكون عليه المستقبل . لنجمت عن ذلك حال تبعث على الرضا التام .. وكم أود أن أرى الناس الذين يرزحون تحت متاعب موهومة . يعملون على تبين موضوع رغباتهم بجلاء ودون تحريف .. فمثلا أنت قد تبغى أن تغدو حاكماً أو وزيراً . ولكنك تخفق .. فما الذى يترتب على ذلك ؟.. يترتب أنك لن تغدو مضطراً لأن تقضى يومك كله فى مقابلة أناس تؤثر أن لا تراهم .. ولن تحمل هم مئات المسائل التى لا يتسع وقتك لتنظرها بعناية .. ولن تتعرض لمعارضة خصوم يفتشون فى حياتك الخاصة عن نواح يستمدون منها مادة لاتهامك بما لم ترتكب !.. بل إنك بالفشل تخلد إلى حياة هادئة مطمئنة ، وتتمكن من الاستمتاع بوقت فراغك . فتعيد قراءة ما تحب من كتب ، ويتاح لك أن تجاذب أصدقاءك الأحاديث إن كنت ممن يستمرئون الزمالة .. فهل نسمى هذه تعاسة ؟

● الإنسان بطبعه يريد أن يكون منبع كل سعادة من يحب . أو - إذا لم يستطع - منبع كل شقائه ! « لاروبير »

بالعزم ينال المرء ما يريد

● وهكذا . لو تدبر الناس أحداث حياتهم بعقول أكثر تفتحاً . لتبينوا فى كثير من الأحوال أنهم لم يكونوا صادق الرغبة فيما فشلوا فى نيله ! .. فما أبعد الفارق بين الرغبات التى نبديها وتلك التى تكون صادقة ملتهبة تتقد فى كل كياننا . وتكشف عن نفسها بالأعمال لا الأقوال .. وما لم يكن المطلب مستحيلا أو ممجوجا تماماً . كان نيله ميسوراً فى أكثر الأحيان إذا ما استخدمنا العزم : فراغب المجد كفيل بأن يناله . وراغبة الأصحاب خليقة بأن تنالهم . والساعية إلى غزو القلوب لا بد غازيتها .. بالعزم ! ولقد تمنى « نابليون » فى شبابه السلطان . وكانت العقبات التى تعترض طريقه إليه تبدو صعبة المنال .. ولكنه اجتازها وتغلب عليها !

ومن المسلم به أن ثمة حالات كثيرة يكون فيها النجاح مستحيلا بحكم الظروف . فليس من السهل أن تنال كل ما تشتهى . أو تزحزح الكون من مكانه .. ولكن كثيراً ما تكون الصعوبة من خلق الإنسان نفسه . إذ يظن أنه راغب فى تحقيق نتيجة محددة . ولكن قوة كامنة فى أعماقه تدفعه إلى اتجاه معاكس ! .. وما أكثر ما حدثنى كتاب عن رغباتهم فى أن يؤلفوا كتباً عن هذا أو ذاك من الموضوعات ،

● وأشباه لحال الإنسان : ما من قطرة من السعادة يناها إلا ومنبعها الجهل !

« بلزاك »

لولا أن الحياة التى يحيونها تجعل رغباتهم مستحيلة .. ولو أنهم كانوا راغبين فى تأليف تلك الكتب عن عاطفة صادقة متحمسة . لغيروا من حياتهم ليتسنى لهم التأليف ، وفى الحياة التى كان « بلزاك » يحياها — أو بمعنى أدق فى مؤلفاته ذاتها — خير دليل على قوة إرادته وتفانيه فى العمل ..

الطمع يقود إلى التعاسة ..

● وهذا حق .. فمن الناس مثلا من يقرر الزواج من امرأة معينة لما يرجوه من وراء ذلك من نفع اجتماعى أو عملى أو مالى ، وإن كان يدرك أنها زوجة « من الدرجة الثانية ! » .. وما إن ينقضى شهران أو ثلاثة . حتى يبدأ فى الشكوى من حظه و « نصيبه » .. فى حين أنه هو الذى اختار نصيبه بنفسه !.. ولا يحتاج الأمر إلى خبرة كبيرة كى نتبين أن السعى الجشع وراء المال أو النجاح يؤدى بالناس فى الغالب إلى الشقاء .. وقد يضطرنا الطمع والطموح إلى الاصطدام بغيرنا من البشر . ولكن الأسوأ من هذا أن نكون فى صراع مع أنفسنا .. لأننا لن نبلغ السعادة إلا إذا استعرضنا أعمال يومنا . وقسناها بأعمالنا طوال حياتنا . ثم قال الواحد منا لنفسه : « لعلنى تصرفت فى غير حكمة . وقد أكون أخطأت .. ولكننى

● أحياناً لا يشقينا أن يخدعنا أحباؤنا ، بقدر ما يشقينا أن لا يخدعونا !

« لاروشفوكو »

بذلت خير ما فى وسعى . ولم أنحرف عن مبادئى .. وإنى لأستطيع أن أردد ثانية ما جاهرت به ، أو أصرح بلا استحياء — إذا كانت آرائى قد تغيرت — بأن لأخطائى أسباباً قوية ، فقد بنيت على الإصغاء لمعلومات غير صحيحة ، أو على خطأ فى تفكيرى » ..

وهذا لا يتأتى إلا إذا كان المرء على وئام مع نفسه ، بحيث يشعر بالتحرر من القلق والانزعاج .. ومن ثم فعليه أن يحدد لنفسه هدفاً . وأن يعرف ماذا يبغى معرفة دقيقة . فإذا أراد الحب وجب أن يحدد نوعه : أهو حب الله . أم حب امرأة، أم حب الأطفال ، أم حب الوطن . أم حب العمل ؟ ... إلخ .

وفى الحب نوع من الخلاص، لأنه يضطرنا إلى أن نفكر فى سوانا . لا فى أنفسنا .. فهو يخلق فى حياتنا « وحدة الغاية »، التى تجعلنا نوقف هذه الحياة — حين نحب — على إسعاد من أحببنا !

وهكذا نرى مصداق القول إن السعادة وليدة الإرادة..فهى قرار نصدره بمحض رغبتنا لنضع نهاية للندم غير المجدى،وللأمانى الضائعة . فنعيش لشىء أكبر من مجرد أنفسنا !

● إنى أنصح كل من يبغى صنيعاً من وزير أن يلقاه بادى الأسى ، لا المرح .. فنحن لا نحب أن نرى الآخرين أسعد حالا منا !

« شامفور »

وإذا ما وجد هذا « الانسجام » الداخلى، أو السلام النفسى ، تلاشت الحاجة إلى الانطواء المؤلم ..

اعرف نفسك إن شئت أن ترضى عنها !

● على أن اتفاق المرء مع نفسه — على هذا النسق — نادر فى الحقيقة .. ففى جوف كل منا كائنان : أحدهما عضو فى المجتمع . والآخر مخلوق آدمى مشبوب المشاعر !.. أو بعبارة أخرى : أحدهما عاقل ، والآخر حيوان !.. ومما لا يسر حقاً أننا كثيراً ما نكون فرائس للتساهل مع النفس ومسايرتها .. والواقع أنه من الصعب على المرء أن يصل إلى توافق منسجم مع نفسه ، لأن كثيراً من الأفكار التى تخالجنا تختلف كل الاختلاف عن تلك التى نود أن تخالجنا .. وكم نزعم لأنفسنا أحياناً أننا نتكلم بتعقل ، بينما نكون جادين فى إثارة حقد قديم عن طريق عتاب لحوح !.. أو قد نعادى جماعة بأسرها من الناس لأن « أحد » أعضائها أصابنا بضرر جسيم .. ونحن غالباً نأبى أن نقر بنواحى الضعف هذه — وإن راح ضميرنا ينبئنا عن وجودها — ومن ثم لا نلبث أن نفقد الرضا عن أنفسنا ، وأن نقسو ونعنف ونوغل فى الباطل .. وقد نهين أصدقاءنا ، لأننا ندرك أننا لسنا كما كان ينبغى أن نكون .. ومن هنا تتجلى قيمة حكمة سقراط

● الحسد الذى تثيره السعادة حقيقة لا شك فيها ، أما السعادة نفسها فشكوك فيها !

« إيفان بانين »

إذ قال : « اعرف نفسك » ! .. فعلى الرجل الذكى إذا شاء أن يكون رصيناً هادئاً ، أن يتبين أولا كل العواطف والذكريات التى تشوه تفكيره ، فيستأصلها أو يبعدها عن أفق حياته ..

استباق الحوادث أسوأ من الواقع

● ومن أسباب التعاسة أيضاً : الخوف من الخطر ! .. على أن بعض المخاوف تكون مشروعة . لها ما يبررها ، بل إنها قد تكون ضرورية .. فالرجل الذى لا يعنى بتجنب الاصطدام بسيارة مسرعة ، يموت نتيجة قصر نظره وقصور تدبيره .. والأمة التى لا تخشى جاراتها حين تتسلح وتظهر لها العداء ، لا تلبث أن تغدو مستعبدة .. إلخ .

ولكن المخاوف لا تجدى فتيلا إذا هى نجمت عن أوهام لا وجود لها .. وكلنا نعرف رجالا تشتد بهم هواجس المرض حتى تقضى على حياتهم .. والرجل الذى يخشى على ماله أن يضيع ، ينفق عمره فى التحوط من الأخطار العديدة التى قد تفضى به إلى الخراب .. وبذلك يحرم نفسه السعادة الراهنة ، خوفاً من الشقاء الذى لن يصيبه — إذا تحقق — بأسوأ من الحال التى أوصلته إليها مخاوفه ! .. والرجل المشبوب العواطف يسبق الزمن فيصور لنفسه مشادات خطيرة مع

● السعادة الحقيقية رخيصة للغاية ، ومع ذلك فما أغلى الثمن الذى تدفعه لتزييفها !

« هوسيا بالو »



ومن أسباب التعاسة أيضًا : الخوف من الخطر ! .. على أن بعض المخاوف تكون مشروعة ، لها ما يبررها بل أنها قد تكون ضرورية ..

غيره من الرجال من أجل المرأة التي يحب .. فينتهي الأمر به إلى أن يقضي على حبه بالتهور الأحمق أو المغالاة في الغيرة والحذر ، وبذلك يجلب على نفسه النكبة التي كان يخافها ..!

والعذاب الذهني الحاد الذي ينشأ عن الخوف واستباق الحوادث يكون عادة أسوأ من الواقع .. فالمرض فظيع ، ولكنه أقل فظاعة مما يوحي به إلينا منظر المرضى من بني البشر . لأن الحمى وأعراض المرض تخلق من الجسد المريض جسداً آخر يختلف في تأثره وإحساسه بالمرض عن الجسد السليم !..

وكثير منا يخافون الموت ، ولكن كل ما نتصوره عن رهبة ساعات الاحتضار مثلا قد لا يصيبنا قط ، لأننا قد نموت فجأة !.. كما أن ظاهرة الموت الطبيعية تصحبها – في الحالات العادية – أعراض جسدية تخفف من وقعها ومن وطأة الإحساس بها كثيراً . وإني لأذكر بجلاء حادثاً وقع لي وكاد يقضي عليّ ، ففقدت ساعتئذ رشدي .. ومع ذلك فإن ذكرى اللحظات التي تلت الحادث مباشرة ، لم تكن مؤلمة !.. وأعرف رجلا غرق ثم أنقذ ، فقال : إن الموت – كما بدا له وقت غرقه – لم يكن قاسياً ..

لماذا نزيد الحياة شجونا ومتاعب ؟

● والواقع أن أغلب الأفكار التي تخالجنا عن المستقبل زائفة ،

● الإنسان هو صانع سعادته أو شقائه ! « هنري ثورو »

فنحن نتصور تعاسات مقبلة ونخافها قبل حدوثها ، فنعيش من خوف الشقاء في شقاء .. ومن خوف المرض في مرض .. ومن خوف الفقر في فقر .. في حين أننا لو أنصفنا لأدركنا أن الحياة صعبة في وضعها الراهن ، فلماذا نضيق عليها عنصر الهواجس المحزنة ؟..

أذكر من مشاهد مسرحية « قافلة الزمان » التي ألفها الفنان الإنجليزي « نويل كوارد » ، مشهداً على سطح باخرة . نرى فيه زوجين شابين في طريقهما لقضاء شهر العسل في أمريكا ، وقد وقفا متكئين على سياج الباخرة ، بينما تصاعدت إلى أسماعنا أنغام موسيقية .. ثم ابتعد الزوجان . فكشفا عن طوق للنجاة معلق على السياج وقد نقش عليه اسم الباخرة « تيتانك » !..

إذ ذاك بدا المنظر لنا – معشر النظارة – محزناً . لأننا نعرف أن « تيتانك » قد غرقت في تلك الرحلة . رحلتها الأولى والأخيرة !.. اما بالنسبة لهذين الزوجين فقد كانت أمسيتهما تلك على ظهر السفينة جميلة للغاية . ولو أنهما خشيا ليلتئذ حادثاً مؤلماً . لكان ذلك كفيلا بأن يفسد عليهما لذة الساعة دون ما جدوى . إذ ليس في وسع الإنسان أن يطيل في عمره عن المقدر له لحظة واحدة !.. وهكذا يفسد كثير من الناس حياتهم بتصور تعاسات يخالونها وشيكة الوقوع .. ولو أنصفوا لذكروا أنه : « يكفي اليوم ما شابه من شر » !

● الحياة السعيدة في راحة البال ! « شيفرون »

ضجر الأغنياء مبعث تعاستهم

● والسأم من أكثر أسباب الشقاء شيوعاً بين الأغنياء الكسالى .. بينما قد يعانى أولئك الذين يلقون صعوبة فى كسب عيشهم أشد العناء، ولكنهم لا يستشعرون سأماً على الإطلاق !.. أما الأغنياء – من الرجال والنساء – فيصيبهم الضجر لأنهم يعتمدون فى التماس المتعة على المسرح مثلا، بدلا من أن يجعلوا حياتهم ذاتها ممتعة.. والمسرحيات قد تساهم فى سعادة أولئك الذين لحياتهم قيمة (إذ يوقظ المسرح مواهب الابتكار والخلق فى نفوسهم : فالعاشق يستمتع بمسرحية غرامية هزلية ، لأنها تدور حول مشاهد من حياته .. والسياسى يحلم وهو يشهد مسرحية « يوليوس قيصر » بمجده الخالد ... إلخ) .. ولكن المتردد على المسرح لا يلبث أن يلقى الضجر فى ارتقابه إذا ما ظل دوره مقتصراً على المشاهدة ولم يشترك فى أداء مسرحية الحياة الواقعة .. إذ سرعان ما يغدو فريسة الهواجس الوهمية ، ولا يكف عن فحص نفسه ، وعن الندم على الماضى الذى ولى وانقضى ، وعن الخوف من المستقبل المجهول .. إلى آخر هذه القائمة من صور الشقاء الأرضى !

● ومن الغريب أن كثيراً من الناس يجدون لذة مريرة عليلة فى

● أسعد الناس من يقدر فضائل الآخرين ، ويفرح لأفراحهم كما لو كانت أفراحه هو ! « جوته »

التشدق بأن لا علاج لتلك التعاسات ، الحقيقية والخيالية .. فهم يستمرئون متاعبهم ، ويظهرون التجهم لكل من يسعى لمساعدتهم ! وليس من شك فى أن الألم كثيراً ما يجل عن العزاء فى الأيام الأولى لحزن على شخص أصابه شقاء عظيم ما كان ليستحقه .. ذلك لأن الأصدقاء لا يستطيعون أن يقدموا أكثر من العطف الصامت الصابر !.. ولكن ، ما عذر النساء اللائى يتخذن العويل والنواح صناعة فيبذلن قصاراهن ليحتفظن بالأحزان التى كان ينبغى أن تترك للزمن يمحوها ؟.. إن المرء قد يغتفر الأمر لأولئك الذين يتشبثون بماض لا رجعة له ، إذا كانت أحزانهم لا تؤثر على أحد سواهم .. لكننى لا أفهم قط حين يرجعون بما يشيعون من دعوة القنوط إلى « استدراج » الشباب أو ذوى الجلد ممن يرتقبون من الحياة مستقبلا سعيداً فمثل هذا المسلك يجب قمعه ، كى لا يشوب هناء الغير . ولقد رأيت مرة شابة – كانت قد نكبت فى مأساة فظيعة – ترافق جماعة مرحة .. فكان صمتها ، وابتسامتها العزيزة الضنينة ، والشرود الذى لم تقو على تمالكه ، لا تنفك كلها تفضح أساها .. ولكنها ظلت مع ذلك تحتفظ بهدوء مصطنع مكن لزملائها من الاستمتاع بمرحهم !..

● كثيراً ما يلعن الإنسان السعادة التى اشتاق إليها ، ويبارك الشقاء الذى كان يخشاه .. والتجربة ينبغى أن تعلمه أن يكون عديم المبالاة بالاثنين ! « الكونتة ديانا »

وإذا كانت ذاكرتك لا تنشط لإحياء ذكرى أعزائك الراحلين إلا بالعزلة غير الطبيعية والنواح اليومى ، فلا بد أنها فقدت دقتها واتزانها .. إذ ليس أفضل لتكريم من مات من الأصدقاء ، من إيلاء الأحياء ما كنا نكنه لهم من ود .

التعب الجسمانى خير دواء للكآبة !

● ولكن ، كيف ترى يعالج الاكتئاب والانطواء ؟.. أية وقاية يمكن أن نحتمى بها من تلك الحالات الذهنية العنيدة التى تتملكنا ، حتى فى النوم ؟.. الواقع أن الطبيعة تتيح لنا أكبر وأسهل الأسباب للوقاية من الكآبة .. فللبحر والجبال والغابات تأثير « مهدئ » لا شك فيه . يرجع إلى مالها من جلال وشموخ بالقياس إلى ما نحن عليه من ضآلة الشأن .. وما أكثر ما نرتاح – فى أشد اللحظات كآبة – إلى الاستلقاء على الأعشاب ، فى ظلة من الأشجار ، لائذين بهذه العزلة يوماً بأكمله ..!؟

إن علينا فى غمرة أعمق أحزاننا التزامات اجتماعية ، إذا ما انصرفنا عنها وقتاً أضعفنا مناعتنا وأوهنا صبرنا .. ومن هنا كان الترحال علاجاً ناجعاً للآلام الذهنية . فإن المرء إذا بقى فى الجو المشبع بتعاسته تجدد اكتئابه باستمرار ، وازدادت ذكرياته احتشاداً وإيلاماً ..

● إن سعادتنا تتبخر فى اللحظة التى تتمنى فيها أن تكون أسعد حالا مما نحن ! « لاندرو »

والموسيقى عالم آخر يستطيع صاحب العناء أن يلجأ إليه .. إذ هى تسيطر على الروح تمام السيطرة . وهى أحياناً تشبه السيل يندفع فى الذهن فيطهره ويجتاح آلامه .. أو فلنقل : إنها « تستدعى » آلامنا ، ثم لا تلبث أن تخلع على كل منها معناه الحقيقى . ذلك أن لكل عبارة تذكرنا بالآلام عبارة مقابلة تخفف من هذه الآلام .. وهذه العبارات المتقابلة الصامتة التى تقودنا إلى القرار النهائى ، ذات فعل كله عزاء ومواساة ..

القراءة لا تجدى !

ومن الأخطاء الشائعة ، الزعم بأن الاستغراق فى القراءة يكسر من شوكة الأسى .. لكن هذا فى رأيى زعم باطل ، إذ أننى لم أقو مرة على تسرية أساى بالقراءة ، لأنى لم أكن أقوى فى مثل تلك الظروف على تركيز انتباهى فى كتاب !.. فالقراءة تتطلب عقلا لا يشغل بسواها ، وأعتقد أنها قد تؤدى دوراً جليلا فى فترات النقاهة الذهنية .. أما الكآبة فلا سبيل إلى الخلاص منها إلا باستخدام وسائل أكثر وضوحاً وتحدداً ، ولا مجال فيها لعدم الانتباه : كالكتابة ، أو إدارة آلة دقيقة ، أو السير فى دروب

● كل الناس يتحدثون عن السعادة ، ولكن ما أقل الذين يعرفونها ! « مدام رولان »

خطرة .. وليس أفضل للمرء فى هذه الأحوال من التعب البدنى ، لأنه يستجلب النوم !

● ولكن المكتئب لا يلبث أن يقول فى أنين : « لا جدوى لكل هذا .. إن طرق علاجك ضعيفة ، عقيمة . وما من شيء يقوى على إيقاظ اهتمامى بالحياة .. ولا شيء يقوى على أن يحملنى على نسيان أساى » .

ولكن ، كيف عرفت ذلك ؟ .. هل جربت هذه الطرق فى العلاج ؟ .. خليق بك أن تجرب — على الأقل — قبل أن تتحدث عن النتائج .. فهناك وسائل قد لا تفضى إلى سعادة إيجابية ، ولكنها تمهد السبيل إليها ..

ونصيحتى إليك فى هذا الصدد أن تتجنب قضاء وقت أكثر مما ينبغى فى تأمل الماضى ! .. ولست أعنى أن التأمل فى ذاته أمر غير حكيم ، فالواقع أن كل قرار هام لا بد أن يسبقه تأمل ، ومن ثم لا ضرر من الاستغراق فى التأمل إذا ما تعلق بهدف محدد واضح .. إنما الضرر فى أن يظل الإنسان يقلب فى رأسه — بلا نهاية — أموراً تتعلق بخسارة ، أو إهانة ، أو إساءة .. أو — بالاختصار — أموراً لا سبيل إلى علاجها ! .. والمثل الإنجليزى يقول : « لا تبك على

● السعادة تنمو إلى جوار مدفئتنا ، ولا تلتقط من حدائق الغرباء !
« دوجلاس جيرولد »

اللبن المراق » .. كما ينصح « دزرائيلى » المرء بأن لا يسهب فى الإيضاح أو يضج بالشكوى ، أبداً .. ويؤثر عن ديكارت قوله : « لقد تعلمت أن أكبح رغباتى ، وألا أكافح ضد قوانين الدنيا الأزلية ، وأن أؤمن بأن ما لم يتسن لى أن أصيبه إنما كان بالنسبة لى أمراً مستحيلا ! » .

لا سعادة بغير عمل يشغلك !

● ولا بد من تنظيف الذهن وتجديده من آن إلى آخر .. فلا سعادة بلا نسيان ! وما عرفت قط رجلا عاملا حقاً يستشعر الشقاء خلال العمل . إذ أنه ينسى نفسه فى العمل . كما يفعل الطفل فى اللعب ..

لذلك يرى الأذكياء فى العمل مهرباً من الفكر ، وهو مهرب معقول حكيم . حتى ليمكن للمرء أن يقول إن « الذى يفكر ولا يعمل إنما يزرع الفساد » .. فالتفكير الذى لا يسوق إلى عمل ينطوى على خطر .. ونحن نرى الرجل العامل أبعد الناس عن أن يشغل ذهنه بمتناقضات الكون ، ومعقدات الحياة ، وإنما هو يتقبلها كما تواتيه .

على أن العمل وحده لا يكفى . بل يجب على المرء أن يراعى فى عمله التناسق مع المجتمع الذى يعتبر جزءاً منه .. ذلك لأن دوام

● القول بأن أسعد الناس هم أقلهم حساسية يذكرنى بالحكمة الهندية القائلة : إن الجلوس أفضل من الوقوف ، والرقاد أفضل من الجلوس ، ولكن الأفضل من ذلك كله : الموت !
« شاندور »

التعارض والتنازع يوهن المرء ، ويجعل العمل عسيراً، بل مستحيلا في بعض الأحيان ..

لذلك كان عليك أن تختار لنفسك جماعة تتجه جهودها اتجاه جهودك ، وتجد في وسطها اهتماماً بنواحي نشاطك .. فإذا كنت في نزاع مع أسرتك ، لأنها – في رأيك – لا تفهمك ، فابحث عن أصدقاء يجارونك في التفكير ، بدلا من أن تدمر سعادتك وسعادة سواك في هذا النزاع .. وإذا كنت متديناً ، فعش بين أتقياء .. أو ثورياً فعش بين الثائرين أمثالك – ولن يمنعك هذا من أن تظل في سعيك لإقناع من يناقضك ، بل إنك ستجد في هذا السعي تأييداً ممن يتفقون معك في الأفكار ..

ومن الأخطاء التي يؤمن بها كثيرون ، أن لا بد للمرء من أن يظفر بإعجاب واحترام عدد كثير جداً من الناس . كي يكون سعيداً .. لكن الواقع أنه يكفي المرء تقدير الجماعة المحيطة به عن قرب ، الأثيرة عنده ، وهذا التقدير يكاد يكون ركناً « ضرورياً » من أركان السعادة ..

● الإنسان الطيب وحده هو الذي يستطيع أن يسعدنا .. ولكن لا يلزم أن يكون المرء شريراً كي يتسبب في شقائنا !

« إيفان بانين »

استمتع بالحاضر .. ودع المستقبل لله !

ولا تثقلن نفسك بتوهم مآس بعيدة غير مؤكدة الحدوث .. وهذا يذكرني برجل قابلته منذ أيام في حدائق « التويلري » . وقد راح يسير تحت أشجارها وحيداً ، كئيباً ، لا يشعر بالأطفال المرحين ، ولا بالنافورات ، ولا بضوء الشمس ، وإنما استغرق في التفكير في نكبات مالية أو عسكرية توقع أنها ستحدث خلال عامين ! .. فقلت له : « أمجنون أنت ؟ .. منذا الذي يعرف ما سيحدث خلال العام القادم ؟ .. صحيح أن الحياة صعبة ، ولحظات الهدوء والطمأنينة فيها قليلة . ولكن المستقبل لن يكون – بالتأكيد – في مثل ما يصوره تشاؤمك من إظلام .. فاستمتع بالحاضر ، واقتد بهؤلاء الأطفال الذين يمرحون .. أو بعبارة أخرى : « أد ما عليك . ودع الباقي لله » ! ..

● ومن الجلي أن الإنسان يجب أن يتدبر المستقبل ، على أن يكون هذا التدبير في حدود قدرة المرء على التأثير في الأحداث .. والرجل الذي خلق للعمل . لا يجب أن يركن للقدر : فالمهندس المعماري يجب أن يفكر في مستقبل أي بيت يبنيه ، والعامل يجب أن يعد العدة لطمأنينة شيخوخته ، والنائب يجب أن يقدر الآثار المحتملة للميزانية

● هل توجد سعادة إلا ونحن نشتريها بقدر كبير أو قليل من الألم ؟

« مسز أوليفانت »

التي سيدلي بصوته بصددها .. ولكن راحة البال يجب أن تتوافر بمجرد فراغ المرء من اتخاذ قرار أو تدبير .. فمن العبث أن يحاول أحد أن يرى ما في أطواء الغيب من أمور ، ما دامت تعوزه أسباب ذلك !

● وإذا ما تحققت للإنسان السعادة . فمن أهم واجباته بعد ذلك أن لا يفرط في الفضائل والعوامل التي ولدت له هذه السعادة .. ذلك لأن كثيرين من الرجال والنساء ينسون في غمرة نجاحهم : الحكمة ، والاعتدال ، والرأفة ، والكرم .. وهي الأسباب التي أدت بهم إلى النجاح — فيتكبرون وينتفخون صلفاً وغروراً . ويمنعهم الاعتداد المتزايد بأنفسهم من أن يحرزوا جلائل الأعمال . فسرعان ما يصبحون غير أهل لما أصابهم من حظ حسن — وتراهم يدهشون حين يتبدل سعدهم من طيب إلى سيء .. !

وقد كانت عادة القدماء في تقديم القرابين والتضحيات إلى الآلهة لقاء ما يصيبهم من هناء . عادة حكيمة .. ولكن أعظم وسائل التضحية في نظري ، وأبسطها في الوقت نفسه : التواضع !

السعادة .. والحب !

ولسنا مبتدعين فيما نذكر من إرشادات إلى السعادة . فهي كلها إرشادات معروفة . كانت تلقن مذ وجد الفلاسفة الذين يحثون

● قبل أن يموت الإنسان ويدفن لا ينبغي أن يوصف بأنه سعيد ! « أوفيد »

التأمل والتفكير .. فكان الغابرون منهم — من رواقيين وأبيقوريين — ينصحون بأن يذعن المرء لقدره ، وأن يقتصد في رغباته ، وأن يعيش في وئام مع نفسه . هذه فلسفة الأقدمين ، وكثير من المحدثين ..

ولكن ثمة فلاسفة آخرين ، مثل « نيتشه » ، يقولون : « ما هذا الإذعان لقدر تافه أعوج ؟ .. وما هذه السعادة الفاقدة المعنى والقيمة؟ .. وما هذا العزوف عن حياة مليئة بالمخاطر ؟ .. ما هذا الاستسلام ؟ .. أهذا كل ما تقدمونه لنا ؟ .. لا ، نحن لا نبغي السعادة . وإنما نبغي البطولة .. والعمل ! » .

ولكن ، ما الذي يحول دون أن ينشد الإنسان السعادة وهو يؤدي عمله ؟ .. إن السعادة ليست مجرد راحة ، لا ولا هي البحث عن المسرة ، أو الكسل .. إن أكثر الفلاسفة تجهماً يسعى كسواه إلى السعادة ، ولكن بأسلوبه الخاص : بالحكمة مثلا ، التي هي من أولى مقومات السعادة . فهي تمهد الطريق إليها بتخليص العقل من نزعاته العقيمة .. وهي تسكت الجدل غير المجدي بين أكثر المشاعر تفاهة .. فإذا تحقق ذلك ، أمكن أن توجد السعادة .. ولكن ، ترى كيف تكون هذه السعادة ؟ .. إنني أعتقد أنها خليط من الحب وإنكار الذات .. وللحب أشكال شاسعة التباين . تبدأ عند الحب الذي يتبادله

● أسعد فترة من حياة الإنسان هي التي يقضيها مضطجعاً في فراشه بعد أن يستيقظ في الصباح ! « دكتور جونسون »

كائنان من البشر ، وتنتهى عند حب الإنسانية ، الذى أجاد الشعراء وصفه ..

وليس فى وسع من لم يقض الساعات ، أو الأيام ، أو الأعوام مع شخص يحبه ، أن يدرك معنى السعادة .. إذ لا قبل له بأن يتصور معجزة طويلة الأمد كهذه ، تخلق من المناظر والأحداث العادية وجوداً ساحراً .. !

ولقد كان « ستندال » واحداً من أولئك الذين فهموا حق الفهم ما بين السعادة والحب من « تفاهم » ! .. تجلى ذلك فيما أورده فى قصة له وهو يصف سعادة « فابريس » — بطل القصة — فى سجن (بارم) : كان الشاب مهدداً بالموت ، ولكن هذا الخطر هان عليه حين أخذت « كليليا » تزوره زيارات خاطفة ، فتشيع الضوء فى أيامه ، وتوشى لياليه بالأحلام السعيدة !

الحب يولد القناعة !

وشبيه بحب المرأة والرجل فى جلب السعادة ، عواطف حب أخرى منها : عاطفة الأمومة لدى الأم ، وحب الزملاء بالنسبة للزعيم ، وحب العمل لدى الفنان ، وحب الله لدى القديس .. فاللحظة التى ننسى فيها أنفسنا تماماً وتندمج فيها فى وجود آخر

● من ألوان السعادة أن نعرف إلى أى حد كان يمكن أن نكون تعساء !
« لاروشفوكو »

— مدفوعين بباعث غامض لا يدركه العقل — هى اللحظة التى نبلغ فيها شاطئ السعادة ، فلا تغدو ثمة قيمة للأحداث التى لا تتعلق بهذا الوجود الآخر الذى نفنى فيه .. فالمرأة غير السعيدة لا تكف عن طلب الترف والرفاهية ، أما المرأة التى تحب رجلا ، فتقنع بالأرض مرقداً .. !

وصحيح إن المرء إذا ما منح حبه لمخلوقات ضعيفة لا يلبث أن يغدو عرضة للشقاء ، مستعبداً لعاطفته .. فالذى يهيم بامرأة ، أو بأولاده ، أو بوطنه ، إنما يضع نفسه تحت رحمة الحظ .. فهو لا يلبث أن يعذب — وإن بدا موفور الصحة .. وأن يضعف — وإن ظهر قوياً .. وأن يضطر إلى التماس الرحمة ، مهما كان شجاعاً ، ذا صبر وجلد وقدرة على الاحتمال .. ذلك لأنه يغدو فى قبضة الحظ ، يرقب فى قلق مشبوب مرض أولئك الذين يهيم بحبهم ، إذا مرضوا ، الأمر الذى يسبب له عذاباً يفوق عذاب أى مرض يصيبه هو ! إذ أنه برغم اكتمال قواه البدنية ، يتوق إلى أن يمد يد المساعدة لعزيزه المريض ، ولكنه يشعر بأن مساعدته عديمة القيمة إطلاقاً .. وهو يتمنى أن يسلم نفسه للمرض بدلا من « رهائنه » الغالية ، غير أن

● السعادة تكمن فى مذاقنا ، لا فى الأشياء الخارجية نفسها ، ونحن نسعد بالحصول على ما نشتهيه نحن وليس ما يجده الآخرون شهياً !
« لاروشفوكو »

المرض – فى عتوه وطغيانه – يختار ضحاياه بعلاء حريته ، فى غير إشفاق ، فلا يلبث صاحبنا أن يشعر على الرغم من نفسه بأنه جبان غادر ، لأنه نجا من المرض .. وهذا أقسى ما يصيب الإنسان من ألوان العذاب ! !

وتلافياً لهذه الصدمات والآلام ينصح الفلاسفة الرواقيون بأن لا يودع الإنسان ذخيرته من الحب إلا حيث يكون واثقاً من الدوام والثبات والوفاء .. ومن هنا تنبعث السعادة الخالدة الخالصة التى يستشعرها الأتقياء الصادقون من المتدينين فى حبهم لله ولأنبيائه .

السذج أسعد الناس !

● ومن أخطر العقبات فى سبيل السعادة ، ما يلازم الإنسان فى عصرنا هذا من بلبلة حين يحاول – وهو ملء الذهن بالمذاهب والنظريات الحديثة المبهمة – أن يحلل ويعلل الإحساسات الحقيقية التى تمر به .. فى حين أن الحيوان والسذج من الناس ينالون السعادة بطرق أكثر تمشياً مع الطبيعة ، لأن رغباتهم أكثر بساطة وصدقاً من رغبات هذا الإنسان الحديث ! .. فما الإنسان المتمدين سوى ببغاء يعيش أسير ثرثرته ، ولا يكف عن الإيحاء لنفسه بما لا يشعر به فعلا من عواطف الحب والكراهية ..

● المتعة تتسلل أحياناً إلى مكان السعادة ، لكنها تجده واسعاً عليها !

« الكونتة دياتا »

● وقد نشرت صحيفة « التايمز » الإنجليزية منذ سنوات فى أحد الأعمدة التى كانت تخصصها للشكايات هذا السؤال : « هل ترغب فى أن تعرف سر السعادة ؟ » .. فانهالت عليها رسائل القراء « الباحثين عن السعادة » ، وإذ ذاك أرسلت الجريدة إلى كل منهم خطاباً تضمن هذه السطور من رسالة القديس متى : « اسألوا تعطوا .. اطلبوا تجدوا .. اقرعوا يفتح لكم .. لأن كل من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له » .. وهذا هو سر السعادة فى الواقع .. فلا بد لمن ينشد الحب أن يجده ، ولمن يتفانى دون تحفظ فى الود أن يلقى الأصدقاء .. ولن يجد السعادة سوى ذاك الذى يرغب فيها بكل قلبه .. !

وما السعادة – إذا حللناها إلى عناصرها الرئيسية – إلا ألوان من الكفاح والأسى ، يتخللها ذلك الإكسير السحرى الذى يسكب فيها كل متعتها ، وأعنى به : الأمل !

● ليس صحيحاً أن جميع السعداء متساوون فى سعادتهم ، فقد يكون الفلاح والفيلسوف كلاهما قانعاً ، ولكن سعادتهما ليست متساوية .. كما أن الكأس الصغيرة والكبيرة قد تكون كلاهما مليئة ، لكن الكبرى تسع من الشراب أكثر مما تسع الصغرى !

« دكتور جونسون »

لا سعادة بغير تفاؤل !

● من هذا كله نرى أن ليست هناك حياة سعيدة وحياة شقية .. وإنما هناك شخصية ، أو بالأحرى « نفس » سعيدة ونفس شقية .. فالمتشائم يقول إذا أحس ببرودة فى الجو : « أف .. أكاد أموت من هذا البرد الفظيع ! » .. أما المتفائل فيقول : « ما ألذ الجو البارد » . فهو ليس سعيداً لأنه يستشعر دفئاً ، وإنما هو يستشعر الدفء لأنه سعيد !.. وهو يظل متفائلا حتى فى المرض . وأذكر أن أستاذاً لى أصيب يوماً بداء الصفراء . وكان فيلسوفاً ، كما كان أعقل متفائل رأيته فى حياتى .. فقد كان يشعر بدائه ، ولكنه يقول : « إنى أعرف أننى مصاب بالصفراء ، وهذا خليق بأن يحزننى .. ولكننى لست حزيناً حتى أجد بنفسى ميلا إلى الحزن ! » .

على أننا لم نخلق كلنا فلاسفة لسوء الحظ .. والتفاؤل يقوم على عوامل عدة : أولها الوالدان ، والتربية فى مرحلة الطفولة . فالطفل الذى يولد لأبوين على وئام ، يغمرانه بالعطف ، يظل محتفظاً طيلة حياته بذلك الشعور الذى داخله منذ طفولته .. الشعور بعالم من الحب ودفء المشاعر والتفاهم المتبادل ... أما الأسرات المتصدعة المنقسمة على أنفسها فترى أناساً متشائمين .. والزوجة النكدة تستطيع أن تخلق من زوجها رجلا ينظر إلى الحياة بمنظار أسود !

● سر السعادة أن تحب بغير اشتهاء ، وهذه ليست سعادة ! «برادلى»

أربع « وصفات » للسعادة !

على أننا قلنا إن السعادة مسألة إرادية .. ومن ثم فى وسعنا أن ننشئ نفوسنا وشخصياتنا من جديد ، حتى بعد طفولة تعسة أو زواج غير موفق .. وعندى لذلك أربع « وصفات » ناجعة أستخلصها من كل ما أسهبت من قبل فى شرحه :

● ١ — العمل : أو على حد قول (شيلى) : « إن سعادة النفس تكمن فى العمل » . فالتفكير العقيم الذى لا يفضى إلى عمل ، يقود دائماً إلى الشقاء ، لأنه يولد الشك والحيرة .. بينما العمل ، أى عمل تصلح له ، كفيل بإسعادك .. وفى هذا يقول (برتراند رسل) : « إننى حين أصغى إلى مناقشات أصدقائى الأذكياء المثقفين أغدو متشائماً . ولكنى عندما أتحدث مع بستانى بسيط أشعر أن الحياة تستحق أن نعيشها .. فحتى العمل الذى لا يؤدى إلى نتائج إيجابية ، كممارسة الفنون والألعاب ، عظيم الفائدة .. فالفن يقود خيالنا خلال مسالك ممتعة .. ومباراة « بريدج » واحدة كفيلة بصرف أفكارنا عن المستقبل المجهول ، والماضى الذى لا يمكن إصلاحه !.. أو لم يصدق شيلى إذن فى قوله : إن سعادة النفس تكمن فى العمل . أياً كان نوعه؟

والعلاقة بين العمل والسعادة وثيقة إلى درجة تحتم على المرء أن لا يتقاعد تقاعداً كاملا يوماً ما .. فإذا ترك العمل الذى قضى فيه

● السعيد لا يقول يوماً ولا يسمع كلمة : وداعاً ! « لاندور »

حياته . لأنه بلغ سن التقاعد وجب عليه أن يبحث عن عمل آخر مهما قل شأنه .. أو أن يتخذ لنفسه هواية . أو يقبل على دراسة جديدة .. أى أنه يجب أن يعمل شيئاً على أى حال ، فهذه فرصته الوحيدة كى يبقى محتفظاً بشبابه ! وقد قال أحد تلامية سقراط له : « ولماذا تدرس الموسيقى وأنت فى السجن . وقد أوشكت أن تلقى حتفك ؟ » فكان جوابه : « لأزداد بها معرفة قبل أن أموت » .. فما أجمله من جواب وما أعمق معناه !

● ٢ – لا تفرط فى التأثر من أعماق قلبك لكل ما لا يتوقف أمره عليك .. إنك قد تقول : « شد ما أنا مستاء لما يجرى فى كوريا » .. أو « ماذا يمكن أن نعمل من أجل إيران » .. أو « إن حالة أندونيسيا تقلقنى وتسلبنى النعاس » .... إلخ .. ولكنك لست وزيراً ولا عضواً فى مجلس الأمن ، فخير لك أن تدع شواغل كوريا لمن هم فى مراكز تتيح لهم أن يلموا بها وأن يعملوا من أجلها .. وليس معنى هذا أن لا تحيط علماً بالأمور .. بل يكفى أن تلم بها إلماماً بسيطاً . أما مهمتك الرئيسية فهى أن تكون مواطناً صالحاً فى محيطك الخاص . فإذا أديت هذه المهمة على خير وجه ، و « إذا كنس كل مواطن الرصيف المواجه لبيته ، صار الشارع كله نظيفاً ! » .

● ٣ – تذكر أن تنسى ! .. عش فى الحاضر أكثر مما تعيش فى الماضى . فهناك كثير من الرجال والنساء يعيشون فى سعادة إذا لم تخالجهم ذكريات تعسة .. وكم من أزواج وزوجات يفسدون

حياتهم المشتركة بتذكر الأحقاد القديمة وتجديدها عند كل مناسبة أو أبسط عتاب .. بينما يجدر بكل امرئ أن ينسى ويصفح . فالذى يحسن الكراهية يكرهه الناس . والذى لا يصفح إنما يجمع حوله الأعداء . والعاقل من يعيش فى اللحظة الحاضرة !

● ٤ – لا تسرف فى استباق الحوادث ! فأن تكون « بعيد النظر » شىء محبب . ولكن لا تغالى فيه أكثر من اللازم . سيما وأنك لن تستطيع أن تتوقع كل شىء . وقد صدق شكسبير حين قال . « إن ما لا نتوقعه هو الذى يقع دائماً ! » ونحن لا نجهل المستقبل فحسب . بل حتى لو صدق حدسنا ووقع ما انتظرناه . فإن نفس الأشياء التى توقعناها قد يكون لها علينا تأثير مخالف للذى كنا نحسبه ! وهناك أشخاص يعيشون فى فزع من حادث سيارة أو كارثة طائرة . فى حين أن الحادث الذى يخشونه قد يقع لهم . لكن الوقت لن يتسع لهم يومئذ كى يحسوا بالخوف ! .. فالأمر يبدو لخيالهم من بعيد مرعباً . لكنه عند حدوثه لن يكادوا يشعرون به !

والآن . قد يقول بعضهم : « من المتعذر أن يجد الإنسان السعادة فى أعماق نفسه .. ومن المستحيل أن يجدها فى الظروف الخارجية .. ! » .

ولكن .. فلنحاول أن نجدها فى أنفسنا . فقد أثبتت تجارب كثير من الحكماء أن هذا أمر ممكن !





فن الاستمتاع بالحياة

في الشيخوخة..

أعد نفسك من الآن للاستمتاع بشيخوخة سعيدة !

● الشيخوخة مصير محتوم لكل إنسان تقدم به السن .. وقد طبعنا جميعاً على التهرب من هذا المصير ، ومحاولة « تأجيله » والتشبث بأذيال الشباب ما أمكننا ذلك . لكننا لو تأملنا الأمر في روية لرأينا أننا بنفورنا من الشيخوخة ومساوئها إنما نزيد من وطأة هذه المساوئ ونوحي إلى أنفسنا بمتاعب وألوان من الحرمان « وهمية » إلى حد كبير .. فالموظف الذي يحال إلى المعاش في سن الستين مثلا تسوء صحته ويصاب بشتى الأمراض بمجرد تلك الإحالة . لا بمحض المصادفة ، أو بسبب انقطاعه عن العمل كما قد يتبادر إلى الأذهان .. وإنما لأن شعوره بأنه قد شاخ ، وتوهمه أنه لم يعد صالحاً إلا لانتظار الموت ، يضعف معنويته .. فصحته .. ويعرضه بالتالي للمرض والانهيار !

وإذن فعلينا ألا نخشى الشيخوخة في ذاتها . فشيخوخة الجسم تسرع إلينا ، أو تبطئ ، نتيجة لشيخوخة نفوسنا أو شبابها .. فكيف نحتفظ بشباب النفس برغم تقدم الجسم في السن ؟ وكيف نستمتع بسنوات الشيخوخة إلى أقصى ما تتيحه لنا من فرص الاستمتاع ؟

هذا ما يحدثنا عنه « أندريه موروا » بأسلوبه الشائق في الصفحات التالية .. وإتماماً للفائدة رأيت أن ألحق بهذا الفصل فصلا تكميلياً ممتعاً يحدثك فيه العالم النفساني « جون مورجان » حديثاً « عملياً » عن كيفية استمتاعك بالحياة .. في شبابك !

الحياة تسير بالصبي إلى الشيخوخة ..

● أبدع « بروست » — في قصته التي سماها (الزمن المستعاد) — في وصف تلك الدهشة التي تعرونا حين نصادف رجالا أو نساء كنا قد عرفناهم في صباهم . ثم تقطعت بيننا وبينهم أسباب الاتصال ثلاثين أو أربعين عاماً .. إذ قال :

« لم أدر في البداية كيف تعذر على التعرف مراعاً على رب البيت وضيوفه . فقد بدوا لي وكأنهم تنكروا تحت شعور مستعارة ، ونثرت على وجوههم مساحيق « الماكياج » فغيرت مظهرهم تغييراً تاماً .. كيف لا وقد صارت لرب البيت لحية بيضاء . وصار يجر قدميه وكأنهما قد أثقلتا بنعلين من رصاص ! .. حتى شاربه ابيض لونه . كما لو كان قد تراكم عليه الصقيع ..

« ومع ذلك . فقد كنت أراه نفس الصديق الذي عرفته في الصبا . غلاماً كنت أدرى أنه يناهزني عمراً . لكني كنت أخال السنين لا تمضي بنا .. فلما سمعت بعضهم يقول إن شكله يناسب سنه ، أذهلني أن استبنت على وجهه أسارير لا تبدو إلا على وجوه الكهول ! .. عندئذ فقط أدركت أنه قد شاخ فعلا . وأن الحياة تجعل من الصبية بعد عدد كاف من السنين .. شيوخاً ! » .

شيخوخة الأقران تنبهنا إلى فعل السنين بنا

● والواقع أن تقدمنا في السن عملية يبلغ من غرابتها أننا كثيراً

ما تأبى أن نصدق أن الأيام تقوى على أن تنال منا كما تنال من سوانا .. فإذا ما نالت منا – برغم ذلك – فإننا لا نشعر بما أصاب وجوهنا وقلوبنا . إلا بمشاهدة الآثار التى أحدثها الزمن بمن هم فى أعمارنا ، سواء من الرجال أو النساء .. ذلك لأننا نظل فى نظر أنفسنا شباباً ، وتظل آمال الشباب ومخاوفه تساورنا . دون أن نفطن إلى تطور أوضاعنا بالنسبة لشباب الجيل الناشئ .. حتى لتدهشنا أحياناً بعض كلمات عابرة .. كأن يسمع الكاتب المسن كاتباً ناشئاً يناديه بيا « أستاذى » مع أنه يخاله فى مثل سنه ومن أقرانه .. وأقسى من هذا إيلاماً أن تكون فى الخامسة والخمسين مثلا ، أشيب الشعر – دون القلب – وتسمع من يقول عن فتاة شابة : « جنون منها أن تتزوج من رجل مسن أشيب الشعر ، فى الخامسة والخمسين ! » .

العاصفة تكشف فعل الخريف !

● ولكن .. متى تبدأ الشيخوخة ؟

إن الانتقال من الشباب إلى الشيخوخة يتم فى بطء شديد ، حتى أن الشخص منا لا يكاد يفطن إلى التغيير الذى يعتريه !.. ذلك أن الخريف – خريف السنة وخريف العمر على السواء – يزحف أحياناً مستخفياً . متوارياً وراء خضرة ، الصيف ، الباهتة ، الآخذة فى الذبول .. وفجأة . تهب عاصفة هوجاء ذات صباح من أيام نوفمبر ، فإذا هى تمزق القناع الذهبى عن وجه الشتاء .. وإذا أوراق الشجر التى

ظنناها حية تبدو ميتة . لا تشدها إلى الأغصان سوى بضعة خيوط واهنة .. وهكذا تكشف العاصفة السوء . وإن لم تكن هى مصدره أو سببه ؟

والمرض هو العاصفة التى تجتاح غابة البشرية .. فقد يبدو الرجل أو المرأة فى فترة الشباب . برغم تقدمه فى السن . فلا تملك أنفسنا من الإعجاب بما يبديه من نشاط . وحضور ذهن . ولباقة حديث .. ولكن يكفى أن يصيبه مرض طارئ . حتى تتبين فجأة أن العاصفة قد اجتاحته .. فإن المناسبة التى لا تخلف بالشاب أكثر من صداع أو برد خفيف ، تصيب صاحبنا بنوبة قلبية . أو بالتهاب رئوى .. وفى أيام قلائل . نرى وجهه يتجعد . وظهره ينحنى . وعينيه تفقدان بريقهما !

وهكذا قد نتعرض لحظة تحيلنا إلى كهول . فندرك فجأة أننا قد ودعنا الشباب من أمد طويل وغدونا شيوخاً ..

خط الظلال .. بين الأربعين والخمسين !

● وقد تسأل : فى أية فترة من حياتنا تجتاحنا عاصفة الخريف هذه ؟

يقول « كونراد » : إن المرء إذا بلغ الأربعين . لاح له خط من الظلال يجتازه وهو يرتجف ، وبنفسه يقين من أن عوالم الشباب الفائتة قد أوصدت دونه حتى نهاية الأجل !

ونحن فى عصرنا هذا ، ندفع الخط الوهمى إلى حوالى سن

الخمسين . ولكننا لا نقوى على محوه . فهو موجود وإن تأخر .. وقد يظل من يتجاوزونه نشيطين ، حاضرى الذهن ، ولكنهم عند اجتيازهم إياه يستشعرون الرجفة الخفيفة . ولحظة القنوط العابرة ، اللتين وصفهما « كونراد » ..

ومما يؤثر عن « ستندال » أنه حين أشرف على الخمسين . أعد – فى عناية ودقة – قائمة بأسماء النساء اللواتى أحبهن !.. وكان فى العشرين من عمره قد تصور المغامرات الغرامية بخياله مراراً ، ومارسها بالفعل مراراً أخرى . بفضل ما كان له من دراية بأساليب الهوى والغزل ومن إدراك لقيمة المشاعر .. ولكن النساء اللواتى هفا إلى حبهن حقيقة لم يوجدن فى غير الكتب التى ألفها . إذ كن من خلق قلمه .. فلما عبر « خط الظلال » . بكى حسرة على أولئك العشيقات اللاتى لم يحظ بهن !

وهكذا الكاتب . إذا ما بلغ الخمسين استعرض ما أنجز من أعمال . وعندئذ ينتابه شعور بأنه لم يكتب بعد كل ما لديه من أفكار . وأن الكتب التى أصدرها ليست سوى بعض ما يود أن يصدر .. ويهوله أن يتصور الزمن الذى يتطلبه إصدار تلك الكتب . فتخور عزيمته . ويهلع قلبه .. وهذه شيمة الشيخوخة !

أسوأ ما فى الشيخوخة تخاذل الروح

• على أن الشيخوخة ليست مجرد شيب وتجاعيد وشعور بأن

الفرص قد فاتت . ودور الإنسان قد انتهى وآن له أن يخلى المسرح للجيل الناشئ .. إلخ – ومن ناحية أخرى ليس الضعف الجسدى هو أسوأ ما فى الشيخوخة . وإنما أسوأ ما فيها هو تخاذل الروح وتقاعسها .. فالمرء إذا ما اجتاز « خط الظلال » . افتقد الرغبة فى العمل أكثر من افتقاده القدرة عليه .. وهل فى إمكان الإنسان بعد خمسين عاماً من التجارب والخيبة أن يظل محتفظاً بالفضول الطاغى الذى يتملك الشباب . وبالرغبة فى أن يعرف وأن يفهم . وبالقدرة على أن يحب بجماع قلبه .. إلى آخر المتع الذهنية والحسية التى يتيحها الشباب ؟

إننا حين نتخطى الشباب إلى الكهولة . نستبدل متعاً بمتع . وكفايات بكفايات . فنجد مثلا خلف ذلك الفاصل الوهمى عالماً آخر تغمره أضواء هادئة . تستبين الأعين فيها الأشياء والناس على حقيقتهم . إذ تكون قد تخلصت من أضواء الشهوة والرغبة .. الأضواء البراقة الوهاجة التى كانت تبهرها وتعشيها فتحجب عنها حقائق الأمور ..

ومن الكهول من يقول بعد أن يجتاز خط الظلال ويرى الأمور على حقيقتها : « ما الفائدة ؟ » .. ولعل هذه أخطر عبارة تصدر عن المكتهل .. إذ أنها تستطرد فى الاتساع والتعميم .. فبعد أن يقول : « ما فائدة الكفاح ؟ » ، يجد نفسه مسوقاً إلى أن يقول : « وما فائدة الخروج من البيت ؟ » .. ثم : « ما فائدة الخروج من غرفتى ؟ » .. ثم « ما فائدة مغادرة فراشى ؟ » .. وينتهى إلى أن يقول : « وما فائدة الحياة ؟ » .. فتتفتح له أبواب الموت !

لا بد من الشيخوخة مهما طال العمر !

• والواقع أن كل كائن حي — فيما عدا الحيوانات ذات الخلية الواحدة — لابد أن يبلغ الشيخوخة فى سن معينة من حياته ، تختلف باختلاف نوعه وفصيلته .. فمن الفراشات ما تلق منيتها بعد ساعتين تقضيهما فى لذائذ الهوى . فى حين أن السلحفاة والببغاء — مثلا — يعيشان قرنين من الزمن !.. فما السر فى هذا التفاوت ؟ ولماذا يمتد الأجل ببعض الأسماك — كالبلطى والحربة — لثلاثمائة عام . فى حين أنه لم يمهل « بايرون » أو « موزار » سوى ثلاثين ؟.. إن علم ذلك عند ربك !.. وقد يكون من الصحيح أن متوسط عمر الإنسان منذ مائة عام كان أربعين سنة . وأنه استطال فى أرقى الدول مدنية — فى عصرنا — فبلغ الستين . وأن من المحتمل إذا لم تعق الحروب والثورات تقدم علم الصحة . أن يغدو المتوسط العادى لعمر الإنسان فى القرن القادم مائة سنة !.. قد يكون هذا كله صحيحاً . ولكنه لا يمس موضوع الشيخوخة .. إذ أن طول العمر لا يعنى التخلص منها ، بل لا بد منها مهما طال الأجل !

الصراع بين الشباب والشيخوخة !

• وكلما كان الإنسان قريباً إلى الطبيعة والفطرة ، ازدادت قسوته على الكهول .. ولقد صور لنا « كبلينج » فى (كتاب الغابة) كيف أن الذئب المكتهل يظل محتفظاً باحترام رفاقه طالما كان قادراً

على اقتناص فريسته وقتلها ! فإذا حان اليوم الذى يعجز فيه عن ذلك ، حانت معه نهاية سلطانه وسطوته .. كما وصف لنا الكاتب نفسه كيف أن الذئاب الشابة خلصت الذئب العجوز — الذى فقد أسنانه — من شقوته بأن قضت عليه !

وأهل البداوة من الناس كالحيوان فى هذا الصدد .. ففى جزر البحار الجنوبية مثلا . يجبر القوم كهولهم على أن يتسلقوا أشجار جوز الهند الشاهقة الارتفاع . ويروحون يهزون تلك الأشجار . فإذا استطاع الكهول أن يتفادوا الوقوع حقت لهم الحياة .. أما إذا وقعوا ، فسرعان ما ينظر القوم فى أمرهم . ويبرمون فيهم قضاءهم !

وقد تبدو مثل هذه العادات وحشية . ولكن فى حياتنا المتحضرة ما يشبهها : فما الخطابة فى المحافل العامة ، والمحاضرات ، والتمثيل على المسرح . سوى اختبارات كاختبارات الصمود على أشجار جوز الهند . يحكم خلالها الرأى العام على السياسى ، أو المؤلف ، أو الممثل !.. فإذا قيل إنه « انتهى » . كان ذلك بمثابة الحكم بموته .. لأن اعتزاله لن يلبث أن يؤدى إما إلى الفقر ، وإما إلى القنوط والمرض !.. والحروب بالنسبة للقائد هى أشجار جوز الهند .. وكذلك الصبايا الحسان بالنسبة للشيوخ المتكالبين على الفسق والفجور يعتبرن بمثابة اختبار لمدى شيخوختهم أو شبابهم ..

مجتمعات تمجد الشباب .. وأخرى تمجد الشيوخ

• ولا تزال القوة الجسدية هى الحكم الذى ينظم العلاقة بين الأجيال فى أوساط الفلاحين ، حيث الحياة أقرب ما تكون إلى الفطرة .. كذلك نرى فى المدن أن تمجيد الشباب أرجح فى أوقات الثورة والانقلابات السريعة ، لأن الشباب أقدر على الاستجابة وتشكيل نفسه بأسرع مما يستطيع الكهول .. فالشباب يمثل القوة المجردة فى أظهر آياتها ، وهو الذى يدعم قوة أصحاب الدعوات — كهتلر — ممن يرسمون أهدافاً بسيطة ، ويبشرون بآمال جسام ..

وعلى النقيض من ذلك ، نجد أن الحضارات العريقة التى طال عليها الأمد ، تجنح إلى الانصياع لسلطان الشيوخ ، إذ أن الخبرة والتجربة تغدو من الميزات العظيمة القيمة فى الأوساط التى لم تتعرض لأى تغير منذ آجال طويلة .. وقد كانت الصين — فيما مضى — تخلع على الكهول امتيازاً ودياً كريماً ، إذ كانت ترى أنه « لا ينبغى أن يرى رجل أشيب وهو يحمل متاعاً فى الطريق » .. ولكن أمثال هذا الشعور الرقيق يتضاءل فى الصين الحديثة ..

والشيخوخة تجلب معها صعاباً لا حصر لها ، وإن كنت لا أراها مستحيلة التذليل .. غير أن تذليلها يتطلب مواجهتها فى اعتداد .. وسأحاول أن أرسم هنا صورة كاملة صريحة ، لمساوئ الشيخوخة ، لأنصح قرائى بأن لا يرهبوها .. مثلى فى ذلك مثل الطبيب الذى يتبين

فى مريضه علة خطيرة تتطلب احتياطات معينة ، فيعمد إلى مواجهته بما سيترتب على تراخيه فى العناية بنفسه ، ثم يعقب قائلا : « على أن شيئا من هذا لن يحدث إذا اتخذت الاحتياطات التى أوصيك بها » .

وأول المساوئ يتمثل فى أن الجسد المكتهل أشبه الأشياء بالمحرك القديم .. يستطيع أن يواصل العمل إذا عولج بعناية ، وفحص ، وأصلح .. ولكنه مع ذلك لا يعمل بنفس قوته الأصلية ، بل يجب تفادى الضغط عليه .. وكذلك الإنسان ، يشق عليه العمل بعد سن معينة ، إلا فى حالات استثنائية — كحالة « فولتير » إذ ألف « كانديد » وهو فى الخامسة والستين .. و « فاجنر » إذ أتم « بارسيفال » وهو فى التاسعة والستين ! .. ومما يؤثر عن « لاروشفوكو » قوله : « إن الشيخوخة طاغية تحرم الانغماس فى ملاذ الشباب ، وتعاقب من يجترئ على العصيان بالموت ! .. » .

الحب فى الشيخوخة

• والحب أول الملاذ المحرمة على الشيخوخة .. فكبار السن من الرجال والنساء يعسر عليهم أن يبعثوا الحب الشاب فى قلوبهم ، مهما كانت أرواحهم وقواهم .. فإذا رأيت حباً متبادلا بين شيخ وشابة ، أو بين كهلة وشاب ، فثق أن للاحترام ، والإعجاب ، وإنكار الذات ، نصيباً كبيراً فى قيامه .. وفى قصص « بلزاك » أمثلة كثيرة للحب « المفجع » الذى يتورط فيه الشيوخ .. فترى العاشق منهم يدمر

نفسه تهالكاً على كل شابة لعوب تعرف كيف توقظ فى صدره أملا مجنوناً ، وتغريه بأن « يشترى » بإغداق المال والهدايا عليها ما كان يحظى به فى شبابه بمحض جاذبية رجولته !.. وقد خلف لنا « شاتوبريان » ـ الذى عرف تمام المعرفة هذا الضنى والعذاب ـ مؤلفاً رائعاً هو « حب الشيخوخة » ، وصف فيه هذه الحال أبشع وصف .. فأظهر حب الشيخوخة على حقيقته ، فى صورة لوعة طويلة ، حزينة ، تتملك عاشقاً يعز عليه أن يشعر بكبر السن .. أو بالأحرى يعز على قلبه أن يشيخ .. فالحب فى الشيخوخة « عقاب » يحل بأولئك الذين عاشوا طيلة حياتهم مولعين بالحب !.. أما النساء اللواتى أحببن كثيراً فى شبابهن ، فعقابهن أن تسمع المرأة منهن شاباً يقول معلقاً على تعلقها بالحب فى كهولتها : « يقولون إنها كانت فى شبابها رائعة الجمال ! » .

وهناك حالة عكسية ، هى حالة الكثيرين من الناس الذين يشيخ قلبهم قبل الأوان : إما لإخفاق شهوتهم البدنية فى إلهاب عواطفهم بالدرجة الكافية .. أو لأن تعقلهم وإدراكهم لقصر الحياة قد أضعف عندهم الشهوة وأوهن العاطفة !

والحب فى الشيخوخة ينطوى غالباً على شىء من الأثرة ، التى قد تبلغ عند بعض الكهول درجة تدعو إلى الدهشة ، كما يبدو لنا من قصة « أفيل » مع « يونيس » .. فلقد قضى معها حياته كلها . أحبها وهى فى السابعة والعشرين ، وما زال بها حتى تركت زوجها ، دون

أن يستطيع الزواج منها . لأنه كان متزوجاً ! .. فهجرت أسرتها ، وأولادها ، وأصدقاءها ، ومكانتها ، وأوقفت حياتها على متعته ، وعمله .. وأعقبت حبهما صداقة طويلة .. حتى أنهما ظلا يلتقيان يومياً وهو فى سن الثمانين !.. وحين ماتت « يونيس » فى النهاية لم يبق من معارفهما من لم يرث لحال « أفيل » . إذ ظنوا أن النكبة ستقضى عليه .. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، بل إنه تمالك نفسه فى الحال.. ذلك لأن الشيخوخة لم تؤد إلى فتور الحب عنده فحسب ، وإنما قتلت فيه الشعور بالألم أيضاً !

هذه « الأثرة » الطبيعية ، التى تتملك الشيوخ ، تحول دون قبول الشباب لصداقتهم ، إذ يفتقد الشباب فيهم تلك « الحرارة » التى يصعب أن تتوفر مع ما للشيوخ ـ بحكم سنهم ـ من حكمة مبنية على التجارب والاختبارات ..

البخل والتقتير أنواع ..

● ومن مساوئ الشيخوخة البخل ، الذى مبعثه فى الغالب إدراك المكتهل أن كسب العيش لن يغدو ميسراً له فى شيخوخته ، وأن العمل الشاق سوف ينهكه .. ومن ثم يقبض يديه على ما لديه ويتحايل على إخفاء ماله فى شتى « المخابئ » ، خشية الأحداث !..

على أن خوف الحاجة ليس الداعى الأوحد للتقتير ، كما ترى عند مطالعتك قصة « بلزاك » الخالدة « أوجينى جرانديه » .. أو على حد

تعبير الناقد القديم (لابروبير) : « ليس خوف العوز هو الذى يجعل الكهول يضمون قبضاتهم على المال ، إذ أن منهم من يتوافر لديه من المال ما لا سبيل له إلى حصره .. ثم ، كيف يخشون الحرمان من متع الحياة ورفاهيتها ، وهم يحرمون أنفسهم طواعية بالاستجابة لنوازع الشح ؟ » .

إنما الأصح أنها رذيلة تخلقها الشيخوخة ذاتها .. ولعل الكهول يرون فيها وسيلة لإشباع حاجتهم الغريزية إلى ملهاة يشغلون بها أنفسهم !

عندما ينسى الشيوخ شبابهم !

● ومن مساوئ الشيخوخة أيضاً ازدياد « أخطاء الذهن » ، إذ يعجز الكهل عن إدراك الأفكار الجديدة ، لقصور قدرته على هضمها واستيعابها .. ومن ثم يتشبث فى عناد وإصرار بالأفكار التى كان يعتنقها فى مرحلة النضوج ! ويداخله الغرور فى أنه قادر على حل أية معضلة .. وتثيره المعارضة فيرى فيها لوناً من عدم الاحترام ، ولا يفتأ يقول : « ما اعتدنا قط فى أيامنا أن تعارض من يكبروننا » ، وكأنما نسى أن جده كان لا يفتأ يوجه إليه نفس هذه الكلمات فى صغره ! وهكذا يعجز الشيخ عن أن يساير الأحداث والزمن ، إذ تعوزه القدرة على أن يحمل نفسه على الاهتمام بما يجرى حوله ، فيتحول إلى قصص ماضيه يرويها مراراً وتكراراً حتى يسأمها الشباب

الملتفون حوله ، فينتهى بهم الأمر إلى تحاشى مجالسته .. ويسلمونه بهذا إلى الوحدة ، وهى شر بلايا الشيخوخة ! .. وحين يرى المكتهل أصدقاءه الأقدمين وأقاربه الذين ألفهم ، يختفون واحداً بعد الآخر ، ولا يجد من يحل محلهم ، تضيق فى وجهه « صحراء » العمر ، ويبدأ يستحث الموت أن يوافيه ..

الشيخوخة كما وصفها تولستوى ..

● وقد أبدع « تولستوى » فى رسم صورة امرأة لم تعرف كيف تتمشى مع تقدمها فى العمر ، وتتقبل الشيخوخة ، فقال : « لم تكد جثة ابنها تهدأ فى مثواها ، حتى مات زوجها ، فأحست بأنها غدت منسية فى الدنيا على غير انتظار .. غدت مخلوقاً بلا هدف أو غاية .. كانت تأكل وتشرب وتنام وتجلس ، ولكنها لم تكن تحيا .. إذ لم تكن الحياة تثير فيها أى شعور !

« ولم تعد تنشد من الحياة سوى الراحة ، وما كان لها أن تجد الراحة فى غير الموت .. ولكنها كانت مسوقة إلى أن تحيا — وأن تستغل حيويتها — حتى يوافيها الموت .. ومن ثم بدأ يتمثل فيها كل ما يلاحظ فى الأطفال الصغار والكهول الهرمين ، ولكن بدرجة كبيرة ظاهرة .. لم يعد لحياتها هدف ظاهر يميزها ، بل انصرفت — على ما بدا — إلى ممارسة ميولها وأهوائها الفردية .. كانت تشعر بالضرورة تدفعها إلى أن تأكل وتشرب ، وأن تنام قليلا ، وتفكر

قليلا ، وتتكلم ، وتذرف بعض الدمع ، وتؤدى شيئاً من العمل ، وتفقد حلمها بين آن وآخر ، إلى غير ذلك .. لمجرد أنها أوتيت معدة وعقلا وأعصاباً وكبداً وعضلات ! فهى لم تك تفعل كل هذا لأن ثمة محفزات خارجية تدعوها إلى فعله .. لم تكن تفعله كما يفعله أولئك الذين فى عنفوان الحياة ، حين يحفزهم الهدف الذين يكافحون من أجله إلى أن يبذلوا كل قواهم فى سبيل بلوغه ، وإن لم يفطنوا إلى ذلك .. وإنما كانت تتكلم لمجرد شعورها بالضرورة الطبيعية لأن تحرك لسانها وتمرن رئتيها .. وكانت تبكى كالطفل لأنه كان لزاماً عليها أن تتمخط وأن تندى أعصاب الدمع فى عينيها .. فالهدف والغاية بالنسبة لسواها من المتهالكين كل قواهم ، لم يكونا سوى مجرد عذر وعلة بالنسبة لها ..

« وأدرك أهل البيت أنها فى مرحلة تشبه مرحلة الطفولة ، وإن لم يذكر أحد شيئاً من هذا ، بل عمدوا إلى محاولة إرضاء رغباتها بكل الوسائل .. دون أن يبدو عليهم ما يوحى بهذا الإدراك ، إلا لماماً . وفى نظرات مختلسة ، متبادلة .. وكانت هذه النظرات تحمل أيضاً معنى آخر .. كانت تعلن أن صاحبتهم قد أدت دورها فى الحياة ، وأن المخلوق الذى كانوا يرونه أمامهم لم يكن المرأة التى عرفوها وعاشروها ! .. وإنها على أى الحالين منتهية إلى نهاية واحدة ، ومن ثم فمن بواعث السرور أن يرضخوا لها ، وأن يكبحوا أنفسهم من

أجل هذه التعسة التى كانت يوماً حبيبة إليهم ، وكانت مثلهم مفعمة بالحياة ، فباتت اليوم .. ميتة حية .. أو حية ميتة ! » .

ذلك أن الشيخوخة تفت من قوانا ، وتسلبنا متع الحياة واحدة بعد أخرى ، وتهصر منا الروح والجسد ، وتجعل المغامرة والصداقة عسيرتى المنال . وتحيل الحياة إلى « فترة ارتقاب » يشيع فيها التفكير فى الموت ظلاماً وحلكة .. !

التحايل على إخفاء الشيخوخة بالزينة !

● ويتألف فن الحياة فى الشيخوخة من شقين : الصراع ضد مساوئها .. والعمل على أن تكون خاتمة الحياة سعيدة برغم هذه المساوئ ! .. وهنا يتساءل المرء : هل هذا الصراع وهذه الخاتمة السعيدة ميسوران بالرغم من مهاجمة الشيخوخة لجسدنا ؟ .. أفليست الشيخوخة تطور بدنى طبيعى لا سبيل إلى تفادى زحفه ؟ .. أفليس الإنسان فى خريف العمر كالشجرة فى خريف الزمن ، تحاول أن تتشبث بأوراقها ، وأن تشدها إلى فروعها ، ولكن زوابع الخريف لا تلبث فى الموعد الموعود أن تطيح بالأوراق ، وتحيل الشجرة إلى هيكل أسود .. ؟

على أن الحضارة والتجربة علمتا الناس كيف يكافحون « مظهر » الشيخوخة إن لم يقووا على الشيخوخة ذاتها .. وتقوم الزينة بدور رئيسى فى هذا الكفاح . فترى المكتهلات يبدين بشبابهن اهتماماً يفوق

ما تبديه الشابات ، ويغالين فى التحلى بالجواهر البراقة التى تجتذب الأنظار فتصرفها عن نواحى النقص فى الجسد !.. وهكذا نجد أن كل ما يجعل من المتعذر التفرقة بين الشباب والشيخوخة من عمل المدنية .. فالمساحيق والخضاب تجعل الشابات وجداتهن سواء ، وتبدى المريضات فى مظهر الموفورات الصحة .. ودور الأزياء وبيوت التجميل تبتكر من المستحدثات — « المودات » — ما يفتح أبواب الأمل للمكتهلات .. وإنك لتجد فن اختيار الثياب يتجه — بعد سن معينة — إلى إخفاء عيوب الجسد ، وهذا لون من ألوان الأدب !.. وما الحجاب إلا ابتكار رائع لتمويه الصورة وإضفاء مخايل الجمال على لابسته .. وهكذا كل أنواع الزينة ، أحجبة وأقنعة لإخفاء عبث الأيام بقدر الإمكان ..

تجارب العلم لتجديد الشباب !

● ولكن .. أترى العلم مستطيعاً يوماً أن يصد الشيخوخة عن تقويض أبداننا ؟.. وهل يتاح له يوماً أن يخلق نافورة للشباب نسترد إذا اغتسلنا فى مائها شبابنا ؟.. لطالما قيل : إن عمر المرء لا يعرف بشهادة الميلاد ، وإنما بحال شرايينه ومفاصله ؟.. فابن الخمسين عاماً قد يكون أكثر اكتهالا من ابن السبعين ، ومن ثم فلا سبيل إلى رد المرء إلى شبابه إلا بتجديد خلاياه وتنشيط وظائفها ، وقد استطاع علماء الحياة أن يحققوا هذا بالنسبة لبعض الحيوانات الدنيئة .. وعلى



التحايل على إخفاء الشيخوخة بالزينة !..

ضوء التجارب . قد نجد من الجائز أن شيخوخة خلايانا ترجع إلى تراكم إفرازاتها . وعندئذ يكون بوسعنا أن نطيل أعمارنا بإزالة هذه الإفرازات ..

ولقد أجريت تجارب لرد الحيوان إلى الشباب بوساطة تطعيم بعض الأعضاء ، أو الحقن ببعض الهرمونات .. فإذا الفئران التى تعالج بهذه الطريقة تسترد فتوتها وقوتها ونشاطها الجنسى لمدة شهر من الزمن .. وأمكن تكرار العلاج والوصول إلى هذه النتيجة أربع مرات على الحيوان الواحد .. وبهذا تسنى إطالة متوسط العمر العادى للفأر مرة ونصف مرة . عما كان قبلا .. على أن آثار هذا العلاج تتضاءل . وأمده يقصر ، كلما تكرر ..

وتعتبر تجارب الدكتور « فورونوف » من أشهر التجارب المعروفة . وإن لم تكن نتائجها فى الإنسان بمثل الوضوح الأكيد الذى أسفرت عنه فى الكباش .. على أن كل هذه المحاولات تبدو تافهة إذا علمنا أن أى إنسان يستطيع – فى عصرنا هذا – أن يعيش إلى الثمانين . لو أنه حرص فى حياته على نهج صحى سليم ، مستقيم .. أفترانا نطمع فى العيش إلى أبعد من هذا ؟

الموت « مربية » جمعت بين العطف والحزم !

● إن المرء إذا بلغ الثمانين يكون قد خبر كل شىء : الحب ، ونهايته .. الطموح وفتوره .. المعتقدات الطائشة والحقائق التى

تصححها .. وليس خوف الموت بالشىء المهول فى ذاته .. فما الحياة إلا عرض سينمائى مستمر . كذلك الذى يرى فى بعض دور السينما ، حيث يستمر البرنامج متواليا ، متكررا فى تعاقب . وحيث يحق لكل رائد أن يظل فى مقعده ما شاء أن يظل .. فقد أثبت الواقع أن الرائد لا يلبث أن يغادر الدار إذا ما عادت المناظر التى سبق أن رآها إلى التوالى على الستار .. وهكذا الحياة ، فإن الأحداث تتكرر بعينها كل ثلاثين عاما ، فتغدو مبعثا للسأم .. ولا يلبث النظارة أن يغادروا الدار واحدا بعد الآخر !

ولقد اجتمع فريق من المؤلفين الإنجليز يوما لتكريم « ه . ج . ويلز » حين بلغ السبعين من عمره ، فلما وقف فيهم خطيبا قال : إن المناسبة ذكرته بالشعور الذى كان يداخله كلما قالت له مربيته وهو طفل : « آن موعد نومك » .. فالطفل يحتج عادة ويتذمر إذا حان موعد نومه ، وإن كان يشعر فى قرارة نفسه أن النعاس لن يلبث أن يواتيه ، وأنه أشد ما يكون حاجة إلى الراحة .. واستطرد « ويلز » قائلا : « والموت مربية تجمع بين العطف والحزم ، فإذا حان الموعد ، أهابت بنا أن قد آن موعد النوم .. وقد نتذمر أو نحتج . ولكننا ندرك عن يقين أن موعد الراحة قد أتى ، وأننا – من أعماق قلوبنا – نتوق إليه ! » .

العناية بالصحة فى الشباب تصون من الضعف فى الكبر

● ولو تقبلنا دون كثير غضاضة أن أمد الحياة محدود ، لحق علينا أن نحرص على الاحتفاظ بصحة أجسامنا وسلامة عقولنا حتى نبلغ نهاية الطريق .. وهذا أمر ممكن قطعاً ، فليس لزاماً أن يكون الكبر مصحوباً بالمساوئ العديدة التى ذكرناها ، وكم من حيوان انتقل من الحياة إلى الموت دون ما تغير شامل فى تكوينه الطبيعى .. ولا شك أن الجسد الذى يعنى صاحبه بمرانه ورياضته يظل محتفظاً بمرونته ورواءه طويلا .. ومن ثم فالسر يتمثل فى حرص المرء على أن لا يهمل نفسه .. فالمران والانتظام يفعلان المعجزات ، وكم من رجال فى السبعين من العمر يمارسون المبارزة والملاكمة والسباحة ولعب التنس ! ذلك لأنهم كانوا من الحكمة بحيث مارسوا رياضتهم المفضلة بانتظام حتى آخر لحظة ممكنة ، ودون انقطاع أو إقبال لمجرد إرضاء نزوة عابرة ..

وليس من الممكن اعتراض زحف الشيخوخة إذا ما بدأ ، وإن كانت النفوس تهفو إلى أن تنكر على الكبر حق السيطرة على أجسادها ، ولو أن هذا الإنكار عسير .. وفى هذا يقول (مونتين) « ليس أسهل من إطالة علل الإنسان وأمراضه ، وذلك بالإسراع فى تقبلها والتمكين لها .. على أننى أفضل أن تطول بى الشيخوخة ، عن أن أشيخ قبل أوانى بسبب المرض ! » ..

لا عيب فى أن يتبادل عجوزان الحب !

● وكما أنه لا ينبغى للمرء أن يستسلم للتداعى البدنى قبل الأوان ، كذلك ينبغى عليه أن يقاوم التداعى العاطفى .. فالقلب كالجسد فى حاجة إلى المران والرياضة ، ومن الطبيعى أن إيقاظ المشاعر ليس أمراً فى يد الإنسان ، ولكن ، لم يطالب المرء بأن ينكر على نفسه المشاعر التى يستمرئها — ويمكن أن يمارسها صادقاً — لمجرد كبر السن ؟.. إنما يعاب ذلك على المكتهلين إذا هم نسوا شيخوختهم وتهوروا أو ارتكبوا الحماقات .. ولكن لا عيب مثلا فى أن يتبادل الحب الصحيح عجوزان ، يرى كل منهما فى الآخر نفس الميزات التى طالما كان يعجب بها فى شبابه .. فالحنان ، والعطف ، والإعجاب ، لا تعرف عمراً ولا سناً .. بل كثيراً ما يحدث أن يخلف عواطف الشباب الملتهبة إذا ما خبت ، حب متنسك زاهد جميل ، فيتبخر مع ضعف الشهوة البدنية كل جموح حسى ، وتخبو مع انطفاء الشباب كل غيرة ، ويضمحل التهور باضمحلال قوة الجسد .. فتقوم على أنقاض الشباب العاصف عاطفة حب رزين بين شيخين ... مثل ذلك مثل النهر الذى يتخطى الصخور الوعرة فى اندفاع جامح قرب منبعه ، لكنه كلما اقترب من مصبه فى البحر ازدادت مياهه صفاء وهوادة فى استرسالها ، فتنعكس على صفحتها صور الأشجار القائمة على الضفتين ، والنجوم التى ترصع سماء الليل ..!

● ومن غراميات الشيخوخة ما يضارع غراميات الشباب صدقاً وتلهفاً ، إذ تجمع بين طهر الصداقة ولهفة هوى الشباب الملتهب .. ولقد كتب « فيكتور هيجو » يذكر كيف اهتزت عواطفه حين رأى « مدام ريكامييه » ، و « شاتوبريان » يلتقيان لقاء المحبين فى شيخوختهما ، والأولى عمياء والثانى مشلول ! :

(.. كان المسيو « دى شاتوبريان » يحمل فى الساعة الثالثة من بعد ظهر كل يوم إلى جوار فراش مدام « ريكامييه » .. وكم كان لقاؤهما مؤثراً ! كانت المرأة ، التى لم تعد قادرة على الإبصار ، تمد يدها تسعى إلى الرجل الذى لم يعد قادراً على الحس .. وتلتقى يداهما .. يا سبحان الله ! .. كانا كلاهما على شفا الموت ، ومع ذلك فقد ظل كل منهما يحب الآخر حباً رائعاً !) .

وكان « دزرائيلى » يتحامل على نفسه فى كل مساء إلى المجتمعات ليحظى بنظرة إلى « ليدى برادفورد » .. ولا شك فى أنها كانت سبب بعض آلامه ، ولكنه كان مدلهاً فى هواها ، لا سبيل إلى شفائه منه .. وخليق بالنساء أن يستخدمن أنوثتهن فى استثارة أهواء الكهول ، ليملأن أيامهم الأخيرة بانفعالات الشباب العذبة .. وكم من حياة عاطفية ظن أنها انقضت إلى الأبد ، فإذا بها تتأجج فجأة بسعير مدهش !

حب الأحفاد أعظم متع الشيخوخة

● على أن الحياة العاطفية لا تتألف من أحاسيس الهوى وحدها .. فحب العجوز لأولاده وأحفاده قد يشغل أحياناً كل أفقه العاطفى .

فما أبهج أن يرى أبناءه وبناته يشقون سبلهم فى الحياة .. إننا إذ ذاك نستمتع بمسراتهم ، ونألم لآلامهم ، ونحب حين يحبون ، ونساهم معهم فى كفاحهم وصراعهم .. وكيف نظن أننا صرنا منبوذين من الحياة ونحن نراهم يؤدون أدوارنا فيها ؟. كيف نشقى حين يسعدون ؟ .. وهل هناك متعة أعظم من إدخال الهناء على نفوس أطفالنا ، إذا لم تعد الحياة قادرة على أن تمدنا بمسراتها الكبرى بسبب الشيخوخة ؟

والأجداد عادة أكثر انسجاماً مع أحفادهم منهم مع أبنائهم ، إذ أن العجوز إذا ما اعتزل الحياة النشطة ، ارتدت إليه مباهج الطفولة وخلوها من التبعات .. وصارت أقرب إلى الأطفال ، حتى فى قواه ، فهو لا يقوى على الجرى مع ابنه ، ولكنه يستطيع أن يخطو متعثراً إلى جوار حفيده .. فإن لخطواتنا الأخيرة نفس وقع خطانا الأولى !

حكمة الشيوخ تجتذب الشباب حولهم

● كذلك ليس حتماً على العجوز أن يعانى الوحدة ، اللهم إلا إذا كان لا يعنى بغير نفسه ، أو كان شحيحاً ، أو مستبداً يحب التحكم فى الآخرين ، أو ضعيف العقل مخرفاً .. أما إذا كافح نقائص الشيخوخة ، وعقد العزم على أن يكون سخياً ، متواضعاً ، رفيقاً ، فإنه يجتذب الشباب فيسعون إلى وده ، ويتوقون إلى الإفادة من خبرته .. وتغدو الصعوبة التى يشغل بتذليلها ، هى أن يروى للشبان تجاربه دون أن يفتات على حماسة الشباب الطبيعية أو يغض منها ..

فإن التجارب تدلنا على أنه ليست كل حماسة حمقاً مأفوناً ، ولكن إلى جانب الحماسة يلزمنا الصبر فى ارتقاب النتائج التى لا تتأتى عن الكلمات الضخمة الجوفاء ، وإنما عن العمل الكادح ، والشجاعة العارمة .. والشباب يتقبل هذه الدروس مرحباً إذا هى صدرت عن رجال جديرين بأن يكونوا مصدر إلهام وعلم ..

ولقد اعتدت أن أسعى فى منتصف شهر ديسمبر من كل عام إلى حافة هضبة « لا تيربى » العالية ، لأحج إلى بيت صغير كبيوت فلاحى العهد الرومانى ، يعيش فيه المسيو « جابرييل هانوتو » الذى لا يزال يصعد سفح الهضبة الشاق بسرعة تفوق سرعة الشباب والذى يجمع ذوقه وإدراكه بين القدم والجدة .. وكم أنتشى إذ يقول لى : « سأهبك بعض وصفات ترددها كلما احتجت إلى عزاء ومواساة .. إنها وصفات بسيطة ، وفعالة .. هاك هى : كل شىء جائز الحدوث .. وكل شىء ممكن أن ينسى .. وكل صعوبة يمكن تذليلها .. وليس هناك من امرئ يحيط بكل شىء فهماً .. ولو عرف كل إنسان ما يقوله الناس جميعاً بعضهم فى بعض ، لما تحدث فى الدنيا أحد إلى أى أحد ! » .. وهذه الحكمة الأخيرة جديرة بأن تجرد كثيراً من الشائعات غير السارة من شرورها !

ثم يمضى صديق الشيخ فى نصائحه قائلا : « وفوق كل شىء ، لا تخف قط .. فإن العدو الذى يضطرك إلى التقهقر يعانى فى اللحظة ذاتها خوفاً منك ! » .. وهكذا اجتمعت دراسة التاريخ مع طول

العمر على تعليم هذا المسن الثقة بالنفس ، والرصانة والهدوء ، بدلا من القنوط وعدم المبالاة .. ولقد رأيته فى الخامسة والثمانين يرسم الخطط للمستقبل ، ويفكر فى عدة رحلات طويلة ، ويشيد ويزرع !.. وما أشبهه بالماريشال « ليوتى » حين قال بعد أن فرغ من تنظيم معرض المستعمرات : « والآن .. ماذا أفعل ؟ » .. فلما قلت له : إن الحكومة لن تلبث أن تجد ناحية للإفادة منه ، صاح : « ولكن .. متى ؟.. إننى سأبلغ الحادية والثمانين عما قليل ، ويجب أن يمكنونى من البدء فى العمل الجديد سراعاً » .

هذا هو المسلك الصحيح .. « فالشيخوخة » هى « الشعور » بأن الوقت قد تأخر ، والفرص فاتت ، وستار العمل قد أسدل ليخلى المسرح للجيل التالى !.. ولا شك أن تخاذل الروح — وليس خور الجسد — هو أسوأ شرور الكبر . ولكن فى وسعنا أن نكافح ، هذا التخاذل ، بل إن هذا الكفاح واجب .. فإن الاكتهال يبطئ فى زحفه إذا وجد الناس أسباباً تجعلهم يحرصون على الحياة .. ولقد يتبادر إلى الأذهان أن الحياة القلقة ، والانفعالات العنيفة ، والكفاح والدراسة ، والبحث الذى لا نهاية له ، تؤدى إلى إنهاك المرء واستنزاف حيويته .. والواقع أن العكس هو الصحيح . فلقد كان لكل من « كليمنسو » و « جلادستون » حيوية مدهشة مكنت كلا منهما من أن يتبوأ رئاسة الوزارة بعد أن تجاوز الثمانين .. فالشيخوخة لا تعدو أن تكون « عادة » سيئة لا يجد الرجل الجم المشاغل وقتاً لممارستها وإدمانها !

ولكن . كيف يتسنى للمرء أن يظل قادراً على أن يجد عملا يشغله ؟.. أو لا يعانى الكبار عنتاً فى الحصول على الأعمال ، كلما تقدمت بهم السن ؟.. وهل من الحكمة أن تترك الأعمال الحكومية والأهلية للكهول يديرونها ؟.. الواقع أن الشيوخ كثيراً ما يكونون أقدر على القيادة الموفقة من الشباب ، وقد كان الفريقان المتحاربان فى سنة ١٩١٤ يعهدان بقيادة قواتهما إلى عسكريين متقدمين فى العمر .. والدبلوماسيون والأطباء المكتهلون أكثر خبرة وحكمة من الشبان عادة . لا تستخفهم أهواء الشباب . ومن ثم يستطيعون أن يصدروا آراءهم فى دقة وهدوء .. وقديماً قال (شيشيرون) : إن « جلائل الأعمال لا تنفذ بقوة الأجسام وسرعة الحركة ، وإنما بالمشورة . والسلطان . والحكمة الناضجة التى تعتبر من النعم التى يؤتاها الشيوخ . لا التى يفتقدونها كما قد يظن ! » .

طرق تؤدى إلى شيخوخة سعيدة ..

● وللاكتهال طريقتان تحيلانه إلى مرحلة ممتعة :

أولاهما هى عدم الاستسلام للكبر . ويتبعها أولئك الذين يؤثرون الفرار من الشيخوخة بالانهماك فى النشاط .. وهذا هو المغزى الذى انتهى إليه « جيته » فى الرواية الشعرية التى وضعها عن خرافة « فاوست » .. فإن هذا الشيخ الذى استرد شبابه . لم يلبث أن غرر به الحب والطموح .. فأحس أنه عبثاً يسعى إلى السعادة عن طريق

الانغماس فى ملذات الشباب .. ولم ينقذه من وطأة يأسه غير .. العمل ! فإذا هو يعكف — وقد أصيب بالعمى وأشرف على الموت — على تجفيف بحيرة آسنة وتحويلها إلى أرض معشوشبة للرعى .. وبهذا استشعر لذة العمل وبهجة التحرر قبيل موته .. حتى إذا تهيأ « ميفستوفليس » — الشيطان — ليستولى على الروح التى باعه إياها « فاوست » ، هبطت الملائكة لتحمل إلى السماء هذا الجزء الخالد من الرجل التعس .. الجزء الذى لم يفقد قط الإيمان بما للعمل من تأثير ومفعول ، فجوزى عن هذا الإيمان بالتوبة والخلاص ..

وأما الطريق الثانى إلى شيخوخة موفقة ، فهو فى أن يتقبل المرء تطور السن فى رضا وهدوء ، وبذلك يسعد إذ يعترف بأن زمن الكفاح قد ولى ، وأنه قد أدى دوره ، وآن له أن ينعم براحة الموت ، فلا داعى لأن يعانى مرارة الأرزاء ومعاندة الحظ .. ومما يؤثر عن « سوفوكل » أنه سئل فى كهولته عما إذا كان لا يزال يستمرئ متع الحب . فكان جوابه : « لتحفظنى الآلهة من هذا ! .. لقد حررت نفسى من الحب ، فكأنما تحررت من سيد قاس ، متوحش » ! .. ولقد عرفت كهولا لم يتحرروا من جنون الحب فحسب ، وإنما تخففوا أيضاً من مسئوليات المستقبل ، دون أن يغاروا من الشبان .. بل إنهم كانوا يشفقون عليهم من بحار الحياة اللجية الصاخبة التى لن يلبثوا أن يخوضوها .. وأمثال هؤلاء الشيوخ يستمتعون أيما متعة بما يتبقى لهم من مسرات بعد تلك التى يتنزلون عنها فى رضاً ويسر ..

وهم يدركون أن لا قيمة للنصائح ، فيؤثرون أن يدعوا لكل امرىء حياته يوجهها كيف شاء .. ومن ثم ترانا ننصت إلى ذكرياتهم فى استعذاب لأنهم لا يرهقوننا بانتقاداتهم .. ونلجأ إليهم إذا ما تعسرت الأمور واستحكمت المصاعب ، لنسألهم أن يعودوا إلى مركز الزعامة والقيادة ، ونحن مطمئنون إلى أنهم لن يسيئوا استغلال الفرص لأنه لم يعد لهم مطمع فى السلطان ..

وطرق تؤدى إلى شيخوخة تعسة !

● ولكن يقابل طريق الشيخوخة السعيدة طرق عدة تحيل الشيخوخة إلى مرحلة تعسة مضنية .. وأسوأ هذه الطرق أن يظل المكتهل يسعى وراء ما لا سبيل إلى استرداده ! .. وما أكثر رجال الأعمال الذين يأبون فى شيخوختهم أن يتنزلوا عن شىء من نفوذهم ، بل يستعبدون أبناءهم ويتسلطون على حياتهم ، مع أنهم خليقون بأن يحظوا بحب هؤلاء الأبناء واحترامهم لو عمدوا بحكمتهم إلى إشراكهم معهم فى أعمالهم .. وكذلك من المألوف أن نرى آباء يقترون فى شيخوختهم على أبنائهم ، ويقسرونهم على أن يحيوا حياة تحف بها القيود والسدود ، تشبثاً منهم بملاذ لا سبيل لهم فى كهولتهم هذه إلى استمرارها ! .. ومن المألوف أيضاً أن نرى شيوخاً يستحيل طموحهم فى الكهولة إلى طمع بشيع فى أخريات أيامهم سموم الغيرة والسخط إلخ ..

من هذا نخلص إلى أن فن الشيخوخة ينطوى ضمناً على فن اكتساب احترام أبناء الأجيال الناشئة وثقتهم ، حتى يروا فى المكتهل عوناً لا عقبة ، ونجياً لا مزاحماً ! فليحذر الشيوخ هذه الرذائل الثلاث : الأثرة ، والبخل ، والطمع ، أو الغيرة من الشباب !

حياة التقاعد وكيف نجعلها ممتعة

● بقى الحديث عن اعتزال العمل والركون إلى الراحة فى الشيخوخة .. فمن الناس من لا يحتمل حياة التقاعد لأنه لم يعن بإعداد نفسه لها .. أما ذاك الذى يستطيع أن يحتفظ بحب الاستطلاع ، فإن مرحلة التقاعد كفيلة بأن تكون أعذب مراحل حياته ، على أن يحرص على أن لا ينساق للرغبة فى الانزواء عن حياة العمل تماماً ، وأن يستبقى الرغبة فى أن يتعلم ويفهم ، وأن ينصرف إلى بعض المشاغل الخاصة المحدودة فى قريته أو حديقته أو داره .. فالعاقل من ينصرف بكل اهتمامه إلى شئونه الخاصة ، بعد أن كرس حياته وجهوده فيما مضى للشئون العامة .. وكم يسهل عليه ذلك لو أنه كان فيما مضى قد راض نفسه على حب الشعر أو مناظر الطبيعة مهما كانت شواغله .. ولست أتصور شيخوخة أجمل من أن آوى إلى غير بعيد فى الريف ، حيث أعيد قراءة أحب الكتب إلىّ ، والبحث عما فيها من معان جديدة .. عملا بقول (مونتين) : « يجب أن يظل الذهن محتفظاً بحيويته فى الشيخوخة ، كما تفعل النباتات الطفيلية على جوانب الصفصافة

الميتة » .. وكما أن الموتى أصدقاء لا سلطان للموت على انتزاعهم منا ، فإن كبار الكتاب رفاق أزليون يدخلون البهجة على شيخوختنا كما فتنونا فى شبابنا .. وكذلك الموسيقى صديق وفى نادر المثال ، تتيح لمن فقدوا منا طمأنينتهم إلى طبيعة البشر ، عوالم أخرى يلقون فيها الراحة المثالية والمتعة العذبة ..

الشيخوخة ليست جحيما بلا آمال !

● يقول (باسكال) : إن حياة المرء تغدو سعيدة « إذا هو بدأها بالحب واختتمها بالطموح » .. وعندى أنها تكون أسعد لو انتهت بعد تحقيق كل المنى ، بسكينة مطمئنة .. فلا يلبث المرء بعد اجتيازه خط الظلال بعشرة أعوام أو عشرين ، أن يجتاز خط الضياء .. فإذا هو — بعد الألم الذى أصابه فى أولى هجمات الشيخوخة لشعوره بأن الزمن الذى خاله زمنه قد غدا مرتعاً لجيل جديد ! — إذا هو بعد ذلك يركن إلى طمأنينة وادعة ، ويستشعر سعادة فى أن يرقب المسرح عن كثب بيقظة محايدة .. ومخايل الرضا على وجهه ، وابتسامة الارتياح فى عينيه ..

وهكذا نرى أن الشيخوخة ليست جحيماً كتب على أبوابه : « يا داخلا هذا المكان دع عنك كل أمل ! » .. فقد حللنا كل دواعى اليأس التى يشعر المكتهل أنها تتملكه ، ووجدناها غير مستعصية العلاج .. فإذا قيل إن الضعف يلازم الشيخوخة ، قلنا إن المسألة

تتعلق بصحة المرء ، وكم من كهول أشداء ، وكم من شباب ضعفاء يتملكهم الخور ! .. وصحيح أن الشيخوخة تحرم المرء من كثير من المسرات ، ولكن المسرات التى تبقى للمكتهل تكون ذات رواء مضاعف ، ككل متعة قصيرة الأجل .. وقد يقال إن من العسير على المكتهلين أن يجدوا أعمالا تشغلهم ، ولكن الواقع يثبت أنهم خير من الشباب فى العمل والزعامة والحكم .. أو يقال إنهم لا يحظون بأصدقاء ، ولكن المشاهد أنهم على العكس يحاطون بالأصدقاء طالما أثبتوا أنهم أهل للصداقة ..

يبقى خوف الموت فى الشيخوخة ، وهذا يمكن التغلب عليه بالإيمان والفلسفة ، كما سنرى ..

للموت فلسفتان .. كلتاهما مريحة !

● ولمواجهة الموت طريقان : طريق « الأبيقوريين » ، وهم الفلاسفة الذين يعتقدون أن السعادة فى راحة البال المترتبة على الاستقامة .. وهؤلاء يرون أن الموت مسألة غير ذات بال بالنسبة إلينا ، لأن الخير والشر مسألتا إدراك حسى ، والموت يعنى فقدان كل إدراك حسى .. وعندهم أن لا رهبة فى حياة يدرك صاحبها أن لا شىء يعقب نهايتها .. وأن « لا موت طالما كنا على قيد الوجود ، ولا وجود بعد أن نموت ! » ..

والطريق الثانى لمواجهة الموت ، طريق الأديان السماوية .. فإن

المؤمن لا يهاب الموت لأنه لا يرى فيه غير رحلة انتقال ، يلتقى بعدها بأولئك الذين أحبهم ، وينعم بوجود خير إلى أبعد حد من السنوات التى قضاها على الأرض ..

وما أعظم ميتة الرجل العامل المنتج ، الذى ظل يؤدى مهمته حتى اللحظة التى جاد فيها بآخر أنفاسه .. وكم من رجل شغل برسالته فى الحياة ، فكانت هى محور كلماته الأخيرة عند الموت ، ومن ثم ظلت رسالته حية بعد وفاته ..

لقد تساءل « هاملت » — فى مسرحية شكسبير الخالدة — « ما الموت إلا ضجعة .. وحسب .. ولكن ، ترى أية أحلام تراود المرء فى نعاس الموت ؟ » .. وقد لا يكون لهذا السؤال الرهيب جواب حتى الآن ، ولكن قد يفيد أن نعرف أن كثيراً من الآدميين — فى كافة مناهج الحياة — قد رددوا هذا السؤال فى شجاعة ورباطة جأش ، دون أن يفزعهم الجهل بما بعد الموت !

* * *

دستور الحاكم العادل

● أثناء تولى « لنكولن » رياسة الجمهورية الأمريكية تلقى آلافاً من التماسات العفو المرفوعة من جنود خالفوا النظام الحربى ، وكان كل التماس منها مرفق بتوصية من أحد ذوى النفوذ ..

وذات يوم تلقى الرئيس التماساً مكوناً من ورقة واحدة .. غير مصحوب بأى خطاب توصية .. فتساءل لنكولن فى دهشة :

— ماذا ؟ أليس لهذا الرجل أصدقاء ؟

فأجابه سكرتيره :

— كلا يا سيدى الرئيس .. ولا واحد !

وإذ ذاك قال لنكولن :

— إذن فسوف أكون أنا صديقه !



فن التفكير

أهمية هذا الفن ..

● التفكير هو الذى يميز الإنسان عن الحيوان .. وهو الذى يوجه جميع تصرفاتنا وحركاتنا وسكناتنا فى هذه الحياة .. فنحن لا نكاد نفعل شيئاً بدون تفكير .. ومن ثم كان تفكيرنا هو الذى يرسم شخصياتنا ، ويحدد حاضرنا ومستقبلنا ، ويقودنا إلى النجاح أو الفشل .. أو بعبارة أخرى ، هو الذى يسعدنا أو يشقينا !

لذلك كان همّ المفكرين وعلماء النفس ، منذ صار للنفس علم ، أن يستنبطوا قواعد عامة ترشد الناس إلى طرق التفكير السليم ، وتعينهم على أن يبلغوا ما نصبوا إليه نفوسهم عن طريق إتقان هذا « الفن » العويص ..

لذلك رأيت أن أقدم لك اليوم آراء « أندريه موروا » فى هذا الباب ، لعلها تكون عوناً لك فى المجال الذى تحتاج فيه إلى أن يكون تفكيرك سليماً ، وفكرك ثاقباً ، ورأيك صائباً .. أياً كان عملك أو حرفتك أو ميدان كفاحك فى الحياة ..

ولما كان موسم الامتحانات قد اقترب ، فقد رأيت أن ألحق بهذه الصفحات تلخيصاً لكتاب آخر يشرح فناً تكميلياً لفن التفكير ، هو فن الدراسة والاستذكار ، الذى أرجو أن يجد الطلبة جميعاً فى صفحاته مرشداً ييسر لهم اجتياز هذه الأشهر العصيبة بسلام !

ذهنك .. مرآة للعالم الخارجى !

● عندما أسرح النظر خلال نافذة غرفة مكتبى ، أجد أفكارى تختلط لحظة برؤى وصور تبدو كأنها رسمت على زجاج النافذة .. فقد أرى الطبيعة ماثلة أمامى ، ثم لا ألبث أن ألمح بعض طائرات تحوم فى السماء ، فإذا هى تثير ذكريات الحرب وغاراتها الجوية .. فأنسى الطبيعة الناضرة ، وأجنح إلى التفكير فيما آلت إليه الحضارة الرومانية من دمار .. ولا تلبث أفكارى أن تتجه إلى المصير الذى قد يحيق بعواصم العالم فى أيامنا .. إلخ .

وهكذا لا تقتصر تأملاتى فى هذه اللحظة الوجيزة على الموجودات ، بل تجاوزها إلى رؤى تمثل لى بلاداً بعيدة ، وتستعيد أحداثاً غابرة ، وتستعرض نظريات عن المستقبل الكامن فى طيات الغيب .. فيبدو ذهنى كعالم داخلى صغير تنعكس فيه صورة الكون الخارجى الهائل ، دون تقيد بحدود الزمن أو الفراغ ..

التفكير السليم أساس التصرف السليم

● و « التفكير » هو ذاك الجهد الذى يبذله المرء حين يربط بين الرموز والتخيلات ، ليحدس ما يترتب على أعماله من آثار فى عالم الحقيقة .. أو هو محاولة « لرسم » العمل والتصرف ، فإذا ما اكتمل تلوين الرسم وتنقيحه ، تشكلت صورة حياتنا .. ومن ثم رأى « باسكال » أنه لابد من أن نجهد لنكون مصيبين » فى تفكيرنا ..

إذا شئنا أن نصل إلى جادة الصواب فيما نقدم عليه من أعمال .. وهذه الإصابة فى التفكير ، تتمثل فى محاولة تشكيل النموذج الذى فى أعماقنا للعالم الخارجى ، حتى يطابق هذا العالم بقدر الإمكان ..

ويبدو أن « أنفع » وسائل التفكير ، هى تلك التى أودعت فى الأجسام الحية على شكل « غرائز » .. و « عادات » أفرأيت إلى القط إذ يقفز إلى منضدة ازدحم سطحها بالأشياء ؟ .. إنه يستوى عليها بجلال وفى غير تكلف ، دون أن يكسر كوباً أو يحتك بآنية للزهور .. ومع أن سلسلة الحركات التى يأتيها ليحقق هذه الوثبة المأمونة تتطلب حساباً دقيقاً للقوة التى تتطلبها الوثبة ، ولأنسب بقعة للهبوط ، إلا أن القط يؤدى هذا الحساب بطريقة لاشعورية .. ذلك لأنه يفكر بعضلاته وعينيه .. وكذلك لاعب « التنس » ، ولاعب كرة القدم ، والمبارز ، والبهلوان .. كل يفكر « بجسده » !

الحيوان يفكر « بجسد » سواه !

● ومن المخلوقات ما يفكر بجسد سواه ! فالحيوان يفكر تبعاً للقطيع .. والخروف ينطلق جارياً إذا تولى الفزع بعض الخراف ، لا لأنه يدرك مبعث الفزع ، وإنما لأن غرائزه النوعية الأصيلة توحى إليه أن الخروف الذى لا يتبع القطيع واقع ولا شك تحت رحمة الأعداء ..

أما السياسى مثلا فلا سبيل له إلى التفكير بجسده ، أو « استعراض صور » ما يوشك أن يؤديه من أعمال — كالرياضى — لأن الصور فى هذه الحالة تفوق كل حصر ، ومن ثم يستعيض عنها بعلامات ورموز من نوع خاص ، تتمثل فى « الكلمات » ..

وقد يكون تأثير من يفكر بيديه ، محدوداً — فإن تصرفه لا يشمل إلا ما يلمسه — أما المفكر بالكلمات ، فيستطيع بلا عناء أن يحرك الشعوب والقارات .. ويكفى أى رئيس حكومة أن ينطق بكلمة واحدة ، فإذا هو ينتزع رجال قارة بأكملها من ديارهم .. وإذا السماء تزخر بقاذفات القنابل القادرة على أن تدك مئات المدن .. وإذا هو يتسبب فى خراب عالم ونهاية مدنية .. بكلمة واحدة !

والذى يفكر بيديه خليق بأن يلتزم الحذر حتى لا تضار يداه .. أما الذى يفكر بالكلمات ، فيستسهل كل عمل ، لأن الوقت الذى ينقضى بين الخطأ وبين ما يترتب عليه من ضرر ، أطول من أن يذكر معه تبعاته ومسئولياته . لذلك يتلاعب بالكلمات والرموز الجوفاء ، متناسياً النتائج الفظيعة التى قد تترتب عليها .. أو هو يميل إلى الاعتقاد بأنه قد أدى كل شىء بمجرد النطق بالكلمات ، ويفوته أن للكلمات رد فعل قد يصل إلى درجة الخطورة .. من قبيل ذلك أن نابليون الثالث قال مرة : « يجب احترام مبدأ القوميات » ، فإذا بعبارته المبهمة تتسبب فى دمار أوربا الحديثة ، برغم ما تنطوى عليه من صحة .. ذلك لأن العالم الصغير الذى تتمثل فى رءوسنا ، لا يمكن أن يبسط

سلطانه على العالم الكبير الذى نعيش فيه .. ولأن العبارة البسيطة لم تمثل بالدقة الكافية ما يخالط الموقف من تعقيد ..

علم المنطق .. « شرطى مرور » !

● ومع ذلك ، فلو كان حتماً علينا أن ننتظر حتى نستبين ما لأية عبارة من نتائج كى نحكم على قيمتها ، لكان هـذا من أخطر الأمور وأفظعها .. ومن ثم حاول الناس من فجر المدنية أن ينظموا « انسياب » الكلمات بنفس الطريقة التى تنظم بها حركة المرور اليوم .. وأطلقوا على ذلك اسم « المنطق » .. أى فن تطبيق قواعد معينة لاستعمال الكلمات ، لضمان التقريب بين العالم الذى نتمثله فى أعماقنا والعالم الخارجى .. وليس من شك فى أن « المنطق » أكسب الذهن البشرى مرونة ، ولكنا يجب أن لا ننسى أن هذه المرونة كثيراً ما تقودنا إلى تفكير يبدى لنا أهدافنا ميسورة التحقق ، فنطمئن إلى « تغرير » خيال زائف تنقصـه الدقة .. ولقـد حاول « ديكارت » التخفيف من الأخطاء التى تتأتى عن مثل هـذا النوع من التفكير ، أو على حد تعبيره : « تملكتنى رغبة قوية فى أن أتعلم كيف أميز الصحيح من الزائف ، حتى أستطيع أن أعمل على بصيرة ، وأن أمضى فى الحياة مطمئناً » .. ومن ثم فإنه استن لفن التفكير هاتين القاعدتين اللتين ينبغى أن تتذكرهما دائماً :

الأولى : لا تسلم بصحة شىء إلا إذا تبينت جلياً صحته .. والسبيل إلى ذلك هو صلب القاعدة .

الثانية : كن حذراً وتفاد العجلة والتحيز أو الميل !

أما تفادى العجلة فيعنه أن الإنسـان لا يمكن أن يفهم عويص الأمور بسرعة .. فضلا عن أن العجلة قد تكون ثمرة الغرور ، إذ يتسرع الشخص فى الكلام بما لا يوقن من صحته كى لا يعترف بالجهل !

وأما التحيز والميل ، فردهما إلى عدة أمور ، منها : المعتقدات والآراء التى ننشأ عليها ، ونعتاد سماعها فى أوساطنا العائلية ، أو التى تشكل أفكارنا نتيجة تعليمنا .. إلخ . ومن أسباب التحيز والميـل أيضاً « المصلحة الذاتية » ، فكل شىء يتمشى ورغباتنا الخاصة يبدو فى ثوب الحقيقة ! .. وخير مثال لذلك نجده فى حياة « شاتو بريان » ، فقد تحول أثناء الفترة التى نفى فيها عن فرنسا بسبب الثورة ، إلى الإيمان بصلاحية النظام الملكى الدستورى الذى تحكم به إنجلترا .. فلما أتاح لويس الثامن عشر لفرنسا مثـل هذا النظـام ، كان خليقاً بشاتو بريان أن يؤيد جهود الملك بكل قواه ، ولكنه خضع لمشاعره الخاصة ، فأعلن على الملك عداء أهوج ، إذ أثاره أنه لم يختره ليوجه هذه الحكومة الجديدة ويديرها !

وهكذا ، إذا استبد الحب أو البغض ، خضع العقل واستسلم ، واكتشف « مبررات » لأخطاء العاطفة وحماقاتها !

كيف ترتب أفكارك ؟

● من هذا ترى أن « ديكارت » ينصحنا بأن نحرر عقلنا من تأثير الهوى والعاطفة ، ثم بأن نحسن استخدام هذا العقل .. وهو يقدم لهذا الغرض عدة قواعد منها : رتب أفكارك ترتيباً منتظماً ، متدرجاً بها من أبسطها حتى تصل إلى أكثرها تعقداً .. وقسم المسائل إلى أكبر عدد ممكن من الأجزاء .. واستكمل كل بياناتك وكل تحرياتك بحيث تشمل كل شيء وبحيث تثق بأنك لم تغفل شيئاً ..

وهذه الطريقة تتبع في كثير من فروع علوم الطبيعة ، والكيمياء ، والطب ، والاقتصاد ، والسياسة .. وهي قد أتاحت للبشر – زهاء قرنين من الزمن – سلطاناً عجيباً على العالم الخارجي ، فهي تجمع بين المنطق ، والمشاهدة ، والتجربة .. وقوامها الوقائع المجردة ، التي ينبغي أن نقبلها إذا عززتها النتائج ، وننبذها بلا إشفاق إذا ناقضتها !

عندما نتصرف قبل أن نفكر !

● ومع ذلك ، فقد قيل عن يقين : إن « القضاء يسبق المشيئة » ، أو بكلمات أخرى ، إن العمل يسبق الاختيار .. فالكلب إذا ألقي في الماء ، بادر إلى السباحة ولو لم يكن له سبق تدريب عليها ! .. وهو يسبح قبل أن يستقر رأيه على أن يفعل ذلك ! .. وما أشبهه في الواقع بنا ، فنحن عند مولدنا نكون بمثابة حيوان ألقي في بحر ، فنقضي حياتنا نسبح ونصارع الأمواج بقدر ما في وسعنا كي ننجو من

الغرق ! .. وقد يشرع الكاتب في تأليف رواية دون أن تكون لديه فكرة دقيقة عما يبغي كتابته ، ولو أنه عرف كل كلمة سيكتبها لما كانت به حاجة إلى التأليف .. وإنما هو يسبح في تيار قصته ، فإذا كل فصل منها يخلق أفكاراً جديدة للفصل الذي يليه !

وقد يكون رسم الخطط ضرورياً في بعض الأحيان .. ولكن التدبير شيء ، والعمل شيء آخر .. ولقد نجح « الرئيس ولسن » في رسم خطة للسلام في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ولكنها لم تصن السلام إلا لسنوات معدودات .. وما أحكم « جيته » إذ قال : « التفكير سهل ، والعمل صعب .. ولكن تحويل أفكار المرء إلى أعمال هو أصعب ما في الدنيا » .. ثم ما أبلغ « تولستوي » في قوله : « لأسهل على المرء أن يكتب عشر مجلدات في الفلسفة من أن يطبق مبدأ واحداً ! » .. فنحن في الغالب نجد أنفسنا – في المسائل ذات الأهمية البالغة لوجودنا – مضطرين إلى أن « نشق لأنفسنا سبيلا » وسط فيض من المؤثرات ..

فما هو دور فن التفكير في هذا المجال ؟

العظيم قد يفكر بوحي غريزته !

● رأينا فيما سبق أن التفكير الغريزي منزه عن الخطأ ، ولكن مجاله ضيق محدود ، ومن ثم نجد الرجل المجد يحلم باكتشاف طريقة تمكنه من الانتفاع بهذا « الوحي » الغريزي على أوسع نطاق ، أي تتيح له

الاطمئنان إلى دقة السليقة والفطرة فى الحالات المعقدة .. أى أن فن التفكير لديه هو فن تحويل التفكير إلى غريزة .. وليس معنى ذلك أنه يتخلى عن العقل والحجى ، وإنما معناه أن يفكر مقدماً فيما يعتزم عمله . وأن يفعل ما فعله نابليون بونابرت وهو بعد ضابط صغير فى حامية « طولون » إذ استعرض المشكلات التى كان « يتوقع » أن يتعين عليه حلها يوماً ما — حتى توكل إليه مقاليد الأمور ! — ثم راقب الوقائع ، واستخلص من مشاهداته القوانين التى التزمها فى معاركه الحربية فيما بعد !

على أن هذه التأملات والمشاهدات وما يترتب عليها من قوانين ، يجب أن تتغلغل فى « أجسادنا » .. يجب أن يتسلل التفكير إلى أعماق نفوسنا ، حتى يبادر الإنسان إلى العمل بمجرد انبعاث حفزاته .. فبهذا فقط يكتسب الإنسان سرعة البت ، وهى عنصر تتطلبه معظم الأحداث فى الغالب ..

مثال ذلك الطبيب الذى يحمل إليه مريض ، فهو قد يعمد إلى فحصه ، فيساعده الفحص فى تفكيره الداخلى الكامن .. فلا تلبث « غريزته » — التى تولدت عما شاهد من آلاف الحالات — أن تملى عليه التشخيص الصحيح ، الذى قد يكون مخالفاً للشواهد أو لمنطق الطب ! .. فهو قد يجد العديد من الأسباب التى تحمله على القلق أو الحيرة إزاء أحد مرضاه ، والتى يشق عليه أن يعبر عنها بالكلمات .

حتى ليبدو قليل المعرفة إذا قيس بأى طبيب شاب ذكى .. ومع ذلك فهو يكون على دراية وبينة ، فلا يكاد يخطىء إلا فيما ندر !

والكاتب الكبير مثال آخر ، إذ يراجع ما يكتب ، فيحذف عبارة أو كلمة ، أو يبدل موضع فعل من الأفعال فيقدمه أو يؤخره . وقد نستطيع أن نجد تعليلا لما تدخله هذه التنقيحات على المقال من تحسين ، ولكن الكاتب لا يكون فى حاجة إلى البحث عن تعليل .. فقد أكسبته الدراسات الطويلة لأساليب الأدباء سليقة لغوية سليمة توحى إليه بالتصرف الصائب فوراً بطريقة شبه آلية ، دون قياس منطقى أو إجراءات لا يتسع الوقت لها .. !

« الإيمان » يجب أن يسبق المعرفة !

● و « العالم » المصغر الذى تنطوى عليه نفس الرجل المجد العظيم ، يشمل صورة دقيقة تطابق فى جميع أجزائها ذلك العالم الكبير الذى يمارس فيه نشاطه وعمله .. فالسياسى الصادق يحمل وطنه فى أعماقه ، إذ أنه اكتسب خلال المشاهدة والمطالعة والتأمل ، دراية بالناس ، وخبرة بالمواطنين من جميع الطبقات . وتتمثل هذه الخبرة فى القرارات التى يتخذها بسرعة وإصابة .. أما السياسى العديم الأنصار ، فيلجأ إلى تلمس الرأى لدى الصحف والإحصاءات واللجان ، ولكنه مع ذلك لا يسلم من الخطأ .. ذلك لأن المعلومات والمعرفة ليست ثقافة فى حد ذاتها .. ومن هنا يتضح ما للحكم المأثورة من معان عميقة ، مثل :

الإنسان أقوى مما يعلم » .. و « الإيمان يجب أن يسبق المعرفة » .. ومن ثم ففن التفكير هو فن الإيمان أيضاً ، إذ ما من مخلوق فى هذه المرحلة من مراحل المدنية يستطيع أن يناقش جميع معتقداته الفردية والاجتماعية أو أن يفرضها على ضميره وهو آمن مطمئن .. كما أن تغيير جميع آراء المرء انقلاب ذهنى يتطلب فسحة من الوقت لاستيعابه .. ومن ثم فعلى المرء — كى يحيا حياة عاملة مثمرة — أن يتقبل معظم القوانين الخلقية والاجتماعية والدينية التى اعتبرها أسلافه ضرورة .. ذلك لأن عقولنا مغلفة بطبقات متعاقبة من معتقدات الإنسان البدائى ، ثم عقائد وحضارات العصور الغابرة .. وأكثف هذه الطبقات هى التى تمثل معتقداتنا الدينية .. وأرقها هى التى تتألف من الآراء الحديثة عن تكوين الكون وبنيانه .. فنحن خليط من تحفنا الفنية وآثارها ، وأعيادنا وتقاليدنا الاجتماعية ، وأفكارنا .. ولا سبيل إلى تحرر المرء من الماضى ، اللهم إلا إذا كان يستطيع الفكاك من جسده .. والفكر السليم هو ذاك الذى تتغلغل جذوره فى أعمق الطبقات التى تلف « السليقة » ، بينما تشمخ قممه إلى أوضح مناطق « الذهن » وأكثرها إشراقاً .. وهو يخضع لقوانين المنطق لأنها قوانينه .. ويراعى فى كل آن قواعد البحث العلمى التى أثبتت صلاحيتها بما حققت من فوز .. ويستند إلى التقاليد الإنسانية التى تحيا فى نفوسنا .. فهو تفكير ينبع من كياننا ، ومن ثم فهو يجمع بين العمل والشاعرية .

التفكير النظرى والتفكير العملى

• وخير مثل يوضح الرابطة بين التفكير النظرى والتفكير العملى هو مثل الطائرة الحربية التى تمهد الطريق لتقدم « المشاة » نحو صفوف العدو ! .. « فالفكر الخالص » هو بمثابة الطائرة ، يحلق فوق آفاق وراء تلك التى احتلتها « العادة » ، ثم ينقل مشاهداته إلى « العمل » ليتقدم نحو هذه الآفاق ، وبفضل تعاون الاثنين يسهل تذليلها .. ولقد يخطىء الفكر ، ثم يلمس الحقيقة فينبذ الأهواء والنزوات التى أثبتت التجربة عدم جدواها ، ويخلص إلى تكوين فكرة جديدة .. وبغير التعاون الوثيق بين الفكر والتجربة والعمل ، لا سبيل لنا إلى إحراز نصر أو نجاح !

فن الدراسة والاستذكار

● والآن ، وقد عرفت آراء «أندريه موروا» فى فن التفكير بصفة عامة ، أرى أن ألحق بهذا الباب فيما يلى – لمناسبة اقتراب موسم الامتحانات – باباً مكملا يعين الطلبة بصفة خاصة على هضم دروسهم واستيعابها ، ويوضح لهم ثلاثة فنون : « فن الاستعداد للدراسة » ، و « فن الاستذكار » ، و «فن الامتحان» .. وقد استقيتها جميعاً لك من آراء « فلويد رتش » – أستاذ علم النفس بجامعة كاليفورنيا الجنوبية – كما أوردها فى كتابه الذى سماه : (Management of Learning)

١ – الاستعداد للدراسة

● الدراسة أو التعلم عملية مركبة تحتاج إلى تحليل دقيق ودراية ، وفى وسع كل امرئ أن يشحذ مقدرته على التعلم لو قدر له أن يفهم بعض المشكلات والمراحل التى يتطلبها إتقان هذا الأمر ..

ولقد عكف علماء النفس فى السنوات الأخيرة على إجراء التجارب سعياً وراء استنباط وسائل تعين الطلبة وأهل العلم على تحسين وسائل الاستذكار لإتقان ما يدرسون ..

تركيز الذهن والاستغراق

● وأول المطالب التى لا بد منها للاستذكار ، تركيز الذهن .. وهى خاصة يستطيع المرء أن يروض نفسه عليها ، بمراعاة أربعة عوامل هامة ، نستعرضها فيما يلى :

● تنظيم الأعمال اليومية : إن الإقبال على العمل يخلق البواعث التى تحفز النفس على مواصلة التقدم فيه .. ومن ثم فخليق بالطالب أن يعمل وقت العمل ، ويلعب وقت اللعب .. أى أن يتفرغ للعمل إذا ما أقبل عليه .. وخير وسيلة تمكنه من ذلك ، تتمثل فى إعداد (جدول) يتضمن جميع الأعمال وكافة ألوان النشاط اليومى ، من تحصيل ، إلى استذكار ، إلى لعب ، إلى أكل ، إلى نزهة ، إلى نوم .. على أن يتجنب القسوة على نفسه فى هذا « الجدول » ! .. والواقع أن أفضل طريقة تستطيع بها إعداد مثل هذا الجدول هى أن تحلل الكيفية التى تقضى بها أوقاتك حالياً ، فتسجل أعمالك خلال اليوم ساعة فساعة لمدة أسبوع .. ولسوف تدهش حين تتبين أن ما تقضيه فى الاستذكار يقل كثيراً عما تبدده من الوقت فى غير عمل ولغير غرض ..

على أن هذا السجل كفيل بأن يبين لك النسبة التى تفردها من وقتك للدرس والاستذكار ، وهذا يساعدك على تحديد نسبة أكثر ملاءمة ، فلا تبقى غافلا بهذا الصدد كما أنت الآن !

وزع وقتك بطريقة منظمة

وخليق بك ، وأنت تعد جدولك أن تراعي ما سيتضمنه هـذا الفصل من إرشادات .. ولتذكر أن أهم ما ينبغي عليك هو أن توفق بين مواعيد الاستذكار ، وأنواع المواد التي تستذكرها .. وأن توزع وقتك اليومي بنسب معقولة بين مختلف النواحي . ولكي نساعدك في هذا الصدد ، نقدم لك فيما يلي توزيعاً مثالياً للوقت (بالنسبة لأوساطنا المصرية) :

٢٣ في المائة — من الوقت اليومي — للنوم ، و ٢٠ في المـائة للنشاط الاجتماعي والمقابلات والفراغ ، و ١٤ في المائة للاستذكار ، و ٢٠ لتحصيل العلم والدراسة — في المدرسة — و ٧ لتناول الطعام ، و ٤ للتنقل بين البيت والمدرسة ..

فإذا أتممت إعداد « جدولك » على هذا النحو ، وجب أن تحرص على تنفيذه بدقة تامة ، فلا تثبط عزيمتك بعض العقبات التي تسوقها المصادفات .. ومن ثم لا تلبث أن تجد نفسك قد اعتدت الاستذكار في ساعات معينة ، وهذا يساعدك على أداء المهمة بانتظام ، وعلى أن تركز ذهنك أثناء تلك الساعات ، لأنك مطمئن إلى أن ثمة ساعات أخرى للانطلاق واللهو .. فضلا عن أنك بذلك تتخلص من القلق الذي تستشعره حين تكون أوقاتك غير منتظمة ..

● الوسط الصالح للاستذكار : وهو من أهم اللوازم التي تمكنك

من تركيز الذهن والتفرغ لعملك . فالعمل في وسط تسوده الضجة يستنفد جهداً أكثر بكثير مما يستنفده في وسط هادئ . وإذن فعليك إذا تهيأت للاستذكار أن تسكت المذياع ، وتصم أذنيك عن الأصوات التي تنبعث حولك ، وتنبه أهلك وأصدقاءك بلطف حازم إلى أن يتجنبوا إزعاجك في فترات الاستذكار .. ولتختر دائماً مكاناً قصياً ، أو غرفة منعزلة تكون فيها بعيداً عن إغراء الأحاديث أو الاستماع إلى ما يشغلك ..

● الحافز على الاستذكار : من أهم العوامل المؤثرة في تركيز ذهن الطالب أثناء الاستذكار ، عامل الميل إلى المـادة التي يستذكرها والاهتمام بها . فالطالب الذي يستشعر ميلا إلى المـادة التي أمامه ، يكون أقدر على الانصراف إليها مما لو كان ينفر منها ، ومع ذلك ، فكثير من الطلبة يستطيعون الاستغراق في مذاكرة مادة لا يستسيغونها ، لأنهم يضعون نصب أعينهم أن استذكارها هو طريقهم إلى النجاح المدرسي .. وأن النجاح المدرسي هو سلمهم إلى التوفيق في الحياة فيما بعد .. وهي نظرة محدودة ضيقة ، ولكنها واقعية وعملية ، لا سيما ونحن في عصر تقدر فيه قيمة الإنسان بقيمة شهاداته ، ولو في نظر أصحاب الأعمال على الأقل !

اربط بين دروسك وبين شئونك الخاصة ..

● وهناك حوافز فرعية ، أثبتت الأبحاث النفسية نجاحها .. من ذلك أن تحدد لنفسك أهدافاً قريبة — كأن تمني نفسك بشيء من

الراحة إذا أنت استذكرت صفحة كاملة أو فصلا كاملا — فإنك غالباً ما تجد نفسك حين تصل إلى هذا الهدف ، متحفزاً لأن تمضى إلى أبعد منه ! .. وهذا يساعدك على أن تقاوم التكاسل إلى أن تتم استذكار الجزء الذى يتعين عليك أن تستذكره .. كما أنه يعينك على استيعاب مادة قد لا تستشعر ميلا إليها ..

ومن الأشياء التى تساعدك على تثبيت ما تستذكر فى ذهنك، أن تحاول أن تربط بين ما تقرأ ، وبين معلوماتك أو مشكلاتك ومسائلك الخاصة .. فأنت إذ تستذكر «الدائرة الكهربائية» فى الطبيعة — مثلا — قد تجد نفسك أكثر اهتماماً بما تقرأ واستيعاباً له ، إذا تذكرت أن جرس مسكنك لم يرسل رنيناً حين ضغطت على الزر عند عودتك من المدرسة .. وإذا كنت تقرأ عن « النقود » فى علم الاقتصاد . فإن نظرية العملة الرديئة وكيف تطرد العملة الجيدة من التداول . تكون أكثر ثباتاً فى ذهنك إذا ما تأملت حرصك على أن تحتفظ لنفسك بالورقة النقدية الجديدة . وأن تدفع إلى « كسارى الأوتوبيس » مثلا بالورقة البالية ! ..

كذلك من العوامل المساعدة على الإقبال على الاستذكار . الجلسة المريحة .. وإن كان الإسراف فى الراحة قد يؤدى إلى الاسترخاء والتكاسل !

● الانفعالات النفسية : ولقد تتاح للطالب كل عوامل الاستغراق فى الاستذكار ، ولكنه يعجز عن تركيز ذهنه حول ما يقرأ ! ..

وقد يرجع هذا إلى شرود ذهنه ، وإفراطه فى « أحلام اليقظة » .. أو إلى شعوره بقلق داخلى .. وغالباً ما يرجع هذا إلى أنه كبت فى نفسه انفعالا ما لسبب من الأسباب ، ومن ثم فعليه أن يتخلص من أثر ذلك الكبت ما استطاع .. وأسهل طريقة هى أن يستعرض ما أدى إلى الكبت . ثم يصارح نفسه بمبررات حدوثه .. (مثال ذلك الطالب الذى كبت فى نفسه آثار تأنيب قاس من والده ، يستطيع أن يستعرض الأسباب التى دعت والده إلى تأنيبه ، فيصارح نفسه بأخطائه ، ويبين لها أن والده لم يؤنبه إلا لحرصه على مصلحته .. الخ) .

القراءة فن يكتسب بالمران

● وإتقان فن القراءة ميزة يمكن اكتسابها بالمران ، ويتفادى العوائق على اختلاف أنواعها .. وأهم العوامل المساعدة فى هذا الصدد هى :

● قوة البصر : فإذا كنت تستشعر صداعاً ، أو ألماً فى عينيك ، فخليق بك أن تسارع إلى استشارة طبيب ليختبر بصرك ويعالجك مما تشكو منه .

● حسن توزيع الإضاءة : ويحسن أن يكون المصباح غير متألق ، (وليكن من النوع « المصنفر » أو الذى يرسل ضوءه إليك خلال « أباجورة ») وأن لا ينصب ضوؤه على عينيك ، فهذا أخلق بأن

يجنبك سرعة تعب البصر .. وتذكر دائماً أن حدقة العين ترتاح إلى الضوء المتوسط . فإذا أنت أحطت نفسك بظلام . وقصرت الضوء على الدائرة التى تجلس فيها — كأن أطفأت الضوء المدلى من وسط سقف الحجرة واقتصرت على مصباح المكتب — لتسببت فى تعب عينيك .. لأنك مضطر — بحركة لا إرادية — إلى أن ترفع بصرك عن الكتاب من حين إلى آخر . لتنظر إلى ما أمامك . أو تجيل النظر فيما حولك . وبذلك تنقل البصر من الضوء إلى الظلام عدة مرات . فتتوتر أعصاب البصر .. !

وتجنب — عند اختيار المصباح — الأنواع الوهاجة أو البراقة ، وتذكر أن لون الضوء عامل مهم فى راحة البصر ، ومن ثم فى الإقبال على القراءة والاستذكار .. وخير الضوء هو ضوء النهار الطبيعى ، ويليه الضوء الأصفر ، فالبرتقالى ، فالأحمر .. أما الأزرق ، أو الأخضر ، فتعب للبصر ..

● حركة العينين : حين تقرأ أحد السطور ، تتم عملية القراءة بأن تثبت بصرك على جزء من السطر ، ثم تنقله إلى جزء آخر ، فإلى جزء ثالث فى حركة سريعة .. والمهم فى الأمر أن الشطر الأغلب من وقت القراءة ، إنما تقضيه فى حركات التثبيت هذه .. أما نقل البصر من جزء إلى آخر . فلا يكاد يستغرق أمداً يذكر .. ومع ذلك ، فإن حركة العينين فى هذا التنقل ذات أثر فى تحديد كفاءتك فى القراءة .

● فالقارئ الجيد : هو ذاك الذى ينقل بصره من جزء إلى آخر فى السطر ، بانتظام ، حتى إذا فرغ منه ، كر بصره متنقلا فى حركة سريعة إلى نقطة قريبة من بداية السطر التالى ..

أما القارئ غير الجيد ، فتراه يتوقف عند كل جزء من السطر ليطيل التحديق فيه ، ولا يفتأ يعود ببصره إلى الجزء الذى تركه ، حتى إذا فرغ من السطر ، تحول بنظرة غير منتظمة ولا سريعة إلى السطر التالى .. (وقد جمعت هذه البيانات خلال تجارب كانت حركات العيون تسجل خلالها بآلة فوتوغرافية بالغة الدقة !) .

ومع ذلك ، فقد تكون حركة العينين مساعدة على القراءة وإجادتها ، ولكن التجارب أثبتت أنها ليست بالعامل الرئيسى على كل حال . لأن أكثر القرّاء مهارة فى القراءة ، قد يضطر إلى إطالة تأمل كل كلمة يقرؤها ، أو العودة إلى التى تسبقها ، إذا كان الموضوع الذى يقرؤه صعباً .. وإذن ، فأسلوب الموضوع ، وميل الإنسان إليه ، وما لديه من معلومات سابقة عنه ، وحضور البديهة ، كلها عوامل تشترك فى تحديد سرعة القراءة والإلمام .

وخير القراءة ما كانت صامتة ، فإن حركة الشفتين تقلل من سرعة القراءة ، وتحول القارئ عن المعنى الكامل الدقيق لما يقرأ ..

تجنب التفكير المبهم غير الدقيق

● ومن العوامل التى لا غنى عنها فى التحصيل الدراسى الناجح ، عامل المقدرة على التفكير المنطقى المتسق . وهذه المقدرة لا تتوقف

على الذكاء فحسب ، وإنما تعتمد أيضاً على المران والتدرب . لا سيما إذا كان هذا التدرب يتمثل فى تطبيق المنطق فى المسائل والمواد التى تعرض للطالب ..

ومن أهم أسباب الارتباك فى التفكير . أخذ ما تقرؤه على أنه قاعدة شاملة .. فإذا قرأت مثلا أن « المجرمين جبناء » . فلا ينبغى أن تأخذ هذه العبارة على أنها تعنى أن « كل المجرمين ولا بد جبناء » . فمن الإجرام ما يتطلب شجاعة فذة . كما أن أكثر المجرمين شراً وعتواً ، يكون دائماً متحدياً للقانون !

ومن أسباب الارتباك فى التفكير أيضاً . التأثر بالآراء أو المعتقدات أو الميول التى اعتنقها المرء من قبل .. فإن الأفكار التى رسخت فى الذهن أولا . يصعب اقتلاعها !

وسبب آخر . هو عدم العناية بالحصول على جميع الحقائق الخاصة بالموضوع الذى تقرؤه .. فمن الواجب عليك قبل أن تؤمن بالآراء والأفكار التى تقرؤها فى الكتب والصحف أو التى تسمعها خلال المذياع . أن تتحرى مصادرها ومدى الاعتماد على هذه المصادر ..

اعرف المصدر قبل أن تعتنق الرأى !

● ذلك لأن التأليف العلمى يتطلب مراجعة مستمرة للتأكد من تمشى ما يكتب مع منطق العلم .. وفى الكتابات العامة — كما فى

الصحف — يجوز للكاتب أن يتحرر من سرد التفصيلات التى تدعم أقواله كاملة وبدقة « علمية » تامة ، ولكنه ملزم بأن يراعى سلامة المنطق .. وهنا ، يتعين على القارئ أن يدقق فى التحرى عن مدى كفاءة الكاتب . ومدى مكانته بين أقرانه ، أو لدى الهيئات التى تدور حول اختصاصاتها كتاباته .. ويلاحظ أن شهرته فى ميدان ، ليست مبرراً لتبريزه فى ميدان آخر .. فالطبيب — مهما كان ذا مكانة محترمة فى مهنته — لا يشترط أن يكون سليم الآراء إذا تعرض للحديث عن الدين أو السياسة أو الاقتصاد .. ومن ثم ، فإذا رأيت شخصاً يكتب فى غير ميدانه . فافحص آراءه وكأنه مجرد هاو . ولا تتقبلها بدون قرائن تدعمها .. !

ولتتعلم كيف تقرأ الصحف على الوجه السليم . فكثير مما تنشره عرضة للخطأ أو عدم الدقة . وخاصة لأن موادها تجمع بسرعة لا مفر منها .. فضلا عن أن ما تنشره كثيراً ما يخضع لمصالح المشرفين عليها . ومصالح المعلنين فيها .. ولو بغير قصد أو تعمد !.. ولعل من الطريف فى هذا الصدد أن تقرأ النبأ ذاته فى عدة صحف ، وتقارن بين طريقة كل منها فى صياغته والتعليق عليه !

ما لا يروق لك يسهل نسيانه

● وهناك ناحية أخرى .. ناحية استعذاب المادة التى تقرؤها والميل إلى تصديقها .. وقد أثبتت دراسات علماء النفس أن الناس

ميالون إلى نسيان المواد غير السارة أو المستعذبة ، بأسرع مما ينسون تلك التى يرتاحون إليها !.. كما دلت التجارب على أن استيعاب ما تقرأ رهن بمدى ميلك إلى تصديقه والإيمان بصحته . بصرف النظر عما يكون هناك من أدلة تعززه أو تناقضه ..!

ولقد أجريت تجربة طريفة فى هذا الصدد ، قبيل دخول أمريكا غمار الحرب العالمية الثانية . إذ اختير عدد من المواد التى نشرتها بعض الصحف الرائجة ووصفتها بأنها إشاعات أو دعايات .. ثم عرضت على ٢٢٦ شخصاً ، وسئل كل منهم أن يبين أيها يعتبره صحيحاً . وأيها يراه خطأ ، وأيها محتمل الصدق ، وأيها مستحيل ..

وكان المقصود من هذا الاختبار . تبين مدى ميل الرأى العام الأمريكى إلى الحلفاء .. واتفق على أنه إذا كان الموضوع فى صالح الحلفاء ، فإن عدد الإجابات التى تعتقد فى صحته ، ينم عن درجة ترجيح الرأى العام لكفة الحلفاء .. أما إذا كان الموضوع فى صالح الألمان ، فإن مقياس الميل للحلفاء يتمثل فى الإجابات التى تقضى بأنه باطل أو غير محتمل !!

وكانت نتيجة هذا الاختبار دليلا قوياً على العلاقة بين ميول القراء ، وبين مدى قبولهم للدعايات ..

المنطق قد يكون خادعاً !

● ومن المفكرين من يخطئ لأنه يطمئن إلى أول حل يصادفه دون أن يعنى بفحصه ومقارنته بالحقائق المعروفة للتأكد من صحته .. ومن

وسائل التأكد ، أن تعرض الحل على شخص آخر لينتقده .. وهناك وسيلة أخرى هى أن تراجع الحل على هدى المنطق .. وقد تبدو قواعد المنطق من المسائل الفنية الصعبة التى لا يجيد استخدامها سوى كبار المفكرين . والحقيقة أن التفكير المنطقى يستعمل فى حياتنا اليومية على نطاق واسع ، وإن لم نفطن إلى ذلك .. ولا يشترط أن يكون معنى ذلك أننا نصيب فى استخدامه ، إذ كثيراً ما نجد الإنسان العادى يسوق النتائج قبل الحجج ، فى حين أن الغرض من المنطق هو دراسة الفكرة التى تواتينا عن أمر من الأمور ، لتبين ما إذا كانت هناك قواعد تبرر النتائج المستقاة منها أم لا ..

على أن المنطق كثيراً ما يتأثر — فى رأى علماء النفس — بتحيز المرء إلى رأى خاص . أو تأثره بفكرة أو عقيدة سابقة .. وأكثر الأخطاء يرجع إلى عدم الدقة فى سرد الحجج والآراء .. ومن أمثلة ذلك القول : « كل المغوليين ذوو عيون منحرفة .. وكل الصينيين ذوو عيون منحرفة .. ومن ثم فكل الصينيين مغوليون » ..

وهذا تسلسل يبدو معقولا ، ولكنه بنى على منطق خادع .. غير دقيق ..

٢ — فن الاستذكار

● من كل ما تقدم نرى أن التفكير الصافى الواضح وتركيز الذهن ، والدراية بأفضل أساليب القراءة ، من ضروريات التعلم والاستذكار ..

ولكن مجرد الاستذكار ليس كل شيء ، بل لا بد من أن ترسخ المادة فى الذهن . والسبيل إلى ذلك يتمثل فى بعض إجراءات هامة :

أولها : أن تبسط المادة لنفسك بحيث تصبح مفهومة وذات معنى يتقبله ذهنك .. ويساعدك على هذا أن تعمد فى البداية إلى قراءة الموضوع — أو الفصل — قراءة عامة وسريعة لتكوّن لنفسك فكرة عنه ، دون أن تحاول أن تذكر شيئاً من تفصيلاته .. وقد يبدو للطالب أن فى هذا مضيعة للوقت ، لكن الواقع أن القراءة السريعة تتيح له فكرة عن التفصيلات المهمة والتفصيلات غير المهمة .. وعليه بعد ذلك أن يعيد القراءة فى روية وأناة وتمعن ..

وخليق بالطالب أن يحاول استعراض بعض مشكلاته أو المسائل التى يغلق عليه فهمها . فيحاول أن ينظر إليها على ضوء ما يستذكر .. فإذا كان يقرأ فى التاريخ ، جاز له أن يسائل نفسه : ما أثر استذكاره لتاريخ الشعوب على مسلكه نحو الأجانب مثلا ؟.. وإذا كان يقرأ فى علم الخدمة الاجتماعية للفقراء . جاز له أن يفكر فيما إذا كان النظام الاقتصادى للبلاد نظاماً صحيحاً سليماً ؟.. وإذا كان يقرأ فى علم النفس ، فخليق به أن يفكر فيما إذا كان ما يدرسه يساعده على مغالبة الغضب أو مقاومة الانفعال ؟..

لخص ما تقرأ وامتحن فيه نفسك !

● وإلى جانب ذلك ، يحسن به أن يحاول أن يربط بين ما يقرؤه فى إحدى المواد ، وما سبق أن قرأه فى مادة أخرى شبيهاً له ..

وعليه أن يستخلص من كل فقرة أهم ما فيها ، متناولا الأسس والمبادئ دون الشرح المسهب ، ثم يغلق الكتاب ، ويلخص ما قرأ بأسلوبه الخاص .. فإن هذا أدعى إلى التصاق الموضوع بذهنه .. ولكن هذه المذكرات أو الملخصات تغدو عديمة النفع أو تافهة إذا هو لم يتأن فى كتابتها ، ويتخير أنسب الكلمات ، ويسجلها بخط واضح مقروء ، ويستكملها بحيث تشمل أهم ما قرأ ..

وليحذر الطالب أن يتخذ لذاكرته « عكازاً » .. فقد درج بعض الطلبة على ابتكار وسائل منوعة تعينهم على تذكر النقاط الهامة فى الامتحان .. (مثال ذلك طالب التاريخ الذى يحاول تذكر سنة ١٩١٨ ، فيركز اهتمامه على الرقم ١٩ ، زاعماً أنه إذا طرح من التسعة الرقم التالى لها إلى اليمين ، حصل على الرقم الرابع وهو الثمانية .. مثل هذه الطريقة قد تصلح كتذكرة مؤقتة ، ولكنها مغررة مضللة .. إذ قد يحدث أن ينسى الطالب فى الامتحان الرقم الذى يلى التسعة من اليمين ، وبذلك لا يصل إلى الرقم الرابع المنشود !) .

فهم الموضوع ينبغى أن يسبق حفظه !

ومن العوامل التى تساعد على الاستذكار ، أن تكتشف لب الشيء الذى تستذكره بسرعة ، بأن تربط بين النقاط الهامة وتتبين العلاقات التى بينها .. فما لم تفهم الفكرة الرئيسية التى يدور حولها الموضوع ، فإنه يتعذر عليك أن تحتفظ فى ذهنك بشيء منه .. لذلك

يحسن دائماً أن تعى ما يقوله المدرس عن الموضوع ، لتكون لنفسك فكرة عنه تنفعك حين تتهيأ لاستذكاره .

كذلك مما يساعد على الاستذكار ، تخير المواد المتقاربة .. فإذا كنت تعتزم أن تستذكر فى الفترة الواحدة مادتين ، فاحرص على أن تكونا متقاربتين ما أمكن ، ليسهل عليك نقل ذهنك من الأولى إلى الثانية دون عناء .. فإذا كانت مادتك الأولى هى الكيمياء مثلا ، كان من الأفضل أن تكون المادة الثانية هى الطبيعة لا الجغرافيا .. !

وإلى جانب الملخصات التى أشرنا إليها آنفاً ، يحسن بالطالب كلما قرأ فقرة أو صفحة ، أن يغلق الكتاب ويوجه لنفسه أسئلة فيما قرأ .. ثم يفتح الكتاب ويراجع إجاباته ، ويطابق بين ذلك وبين ما دونه فى ملخصاته ! .. فقد أثبتت التجارب أن هذه الطريقة — طريقة توجيه الأسئلة واستجوابك لنفسك فيما قرأت أولا بأول — من أكثر الطرق عوناً على إعدادك للامتحان ..

كيف توزع وقتك على مختلف العلوم ؟

• كذلك من أهم عناصر الاستذكار ، أن يقرر الطالب كيفية توزيع الوقت الذى خصصه لهذه العملية .. فلو أننا افترضنا أنه أحصى ساعات الاستذكار فى الفترة الباقية قبل الامتحان ، ثم وزعها بين العلوم تبعاً لأهميتها ومدى تمكنه أو عدم تمكنه منها ، فخص علم منها مائة ساعة مثلا .. فكيف يوزعها على الفترة السابقة للامتحان ؟..

هل يخصص لذلك العلم عشر ساعات يومياً لعشرة أيام . أو ساعة واحدة لمدة مائة يوم ؟

لكى يقرر الطالب نظام التوزيع ، ينبغى عليه أن يتدبر عدة عوامل : وأول هذه العوامل ، طول الفترة التى يستطيع فيها أن يظل مقبلا على الاستذكار .. وليذكر أولا أنه لا يقبل على العمل منذ اللحظة التى يجلس فيها إلى مكتبه ، بل هو يعدل مقعده فى الوضع المريح ، ثم يبحث عن القلم والورق ، ثم يحضر الكتاب ويفتحه .. وأحياناً تمر بذهنه خواطر لا شأن لها بالدرس .. وكل هذه تستغرق وقتاً تقل نسبته كلما طال الوقت الذى تظل فيه نفسه متفتحة للاستذكار ..

على أن التمادى فى إطالة أمد الاستذكار قد يخلق الملل ، وهذا عامل ثان .. فضلا عن أن درجة النسيان تتفاوت بتفاوت المدة التى تنقضى بين دراسة علم وبين استئناف دراسته ثانية ..

كل هذه عوامل تؤثر فى توزيع الوقت ..

وقد أثبتت تجارب علماء النفس فى هذا الصدد أن :

فى حالة استذكار العلوم التى لا بد من حفظ قواعدها ونصوصها : كالنحو والصرف والشعر ، يستحسن أن تكون فترات الاستذكار قصيرة ومتكررة ومتقاربة .. كأن تخصص للعلم نصف ساعة فى كل يوم مثلا ..

أما فى حالة استذكار العلوم التى تعتمد على الفهم والتطبيق

كالرياضيات — فيستحسن أن تخصص لها أوقاتاً طويلة ، كأن تخصص للعلم ساعتين فى كل مرة ..

٣ — فن تأدية الامتحان !

● ما دامت الامتحانات « شر لا بد منه » . فحقيق بالطالب أن يروض نفسه على قبولها فى هدوء . وعلى اعتبارها إجراءات « لمساعدته » على إدراك مدى تحصيله .. لا محناً يقصد بها تعجيزه .. !

وليضع نصب عينيه دائماً وهو يستذكر . أنه سيسأل يوماً عن هذا الذى يستذكره .. وبذلك يشحذ ذاكرته دائماً ويحثها على الاحتفاظ بما يودعها من مواد ..

ومن العوامل المساعدة على التذكر — إلى جانب كل ما ذكرنا — عامل سؤال النفس أولا بأول .. ويساعد على ذلك محاولة الإجابة عن أسئلة الامتحانات فى السنوات السابقة ..

على أن استذكار المادة ليس كل شيء ، وإنما المهم هو أن يكون الطالب قادراً على أن يتذكر فى لحظات الامتحان كل ما قرأ .. ومن ثم فعليه أن يستعرض المادة من وقت إلى آخر . سواء كان هذا الاستعراض فى صورة القراءة المتكررة . أو العودة إلى الملخصات . أو تذكر ما قرأ حين تعرض له مشكلة أو رأى فيطبق عليه ما درس .. إلخ — على أن المراجعة المتكررة هى أيسر هذه الطرق جميعاً وأضمنها ..

وليحرص الطالب فى المراجعة على أن يضاعف عنايته بالنقاط الهامة فى المادة التى يستذكرها ، وأن يستوثق من استيعابه للآراء ، والقواعد، والقوانين والنظريات التى تقوم عليها موضوعات المادة ..

فى يوم الامتحان

● وفيما يلى بعض الإرشادات التى ينبغى أن تراعيها فى يوم الامتحان :

● تأكد أولا من أنك فهمت كل الأسئلة قبل أن تبدأ فى الإجابة عن أول سؤال ! .. وتذكر أن قراءة الأسئلة كلها فى البداية ، تساعدك على أن تقسم الوقت بينها ، وعلى أن تتخير منها ما ترى نفسك أكثر استعداداً لإتقان الإجابة عنه .. وخليق بك إذا ما وزعت الوقت بين الأسئلة ، أن تترك مدة للمراجعة النهائية ، وأن تلزم نفسك باحترام هذا التوزيع ، فلا تسمح لأى سؤال بأكثر مما حددت له ..

● كثيراً ما يساور الطالب عند الامتحان شيء من الخوف والقلق والانفعال ، وفقدان الثقة بالنفس والذاكرة .. وهذه أمور تستطيع التخلص منها إذا أنت استعددت للامتحان مبكراً ، واستذكرت دروسك من البداية .. فإن معظم هذه الحالات وإن بدت نفسية ، تنشأ عن عوامل جسمية بسبب الإفراط فى السهر قبيل الامتحان ..

من أدى واجبه ، فليطمئن !

على أن هذا لا يعنى أن الانفعال قد لا يساور الطالب الذى

أحسن الاستذكار والاستعداد .. ولكن منشأ الانفعال فى هذه الحالة إنما يكون القلق المنبعث عن الرغبة فى التفوق ! .. وخير سبيل لمقاومته هو أن يقنع الطالب نفسه بأنه ، وقد بذل أقصى ما يستطيع ، وأدى واجبه تمام الأداء ، جدير به أن يطمئن إلى أنه بالغ هدفه .. فالجندى الذى عرف سبيله إلى العدو ، وتأكد من سلامة سلاحه ومن كفاية ذخيرته ومن دقة خططه ، لا يجد مجالا للتفكير فى الهزيمة !

والمسألة أولا وأخيراً ، تتوقف على الاستذكار .. والاستذكار ليس موهبة تولد مع الإنسان ، وإنما هو فن ذو قواعد وأساليب — لخصناها لك فيما تقدم — ومن السهل أن تحذقه بالمران والتطبيق ::

* * *



فن الزعامة

الزعامة أنواع ..

الزعامة التي يقصدها «أندريه موروا» في هـذا الموضوع هي الزعامة بمعناها الأعم الشامل: زعامة السياسي على أتباعه.. وزعامة قائد الجيش على ضباطه.. وزعامة صاحب العمل على مرءوسيه.. وزعامة مدير المؤسسة أو الإدارة الحكومية على موظفيه.. وزعامة ناظر المدرسة على مدرسيه، والمدرس على تلاميذه.. إلخ.

فكل من هؤلاء «زعيم» في قومه، يلزمه أن يتقن فن زعامته، أو فن قيادة وتوجيه مرءوسيه وأتباعه على الصورة التي تحقق الصالح العام، للشعب، أو الجيش، أو المؤسسة، أو المدرسة .. إلخ.

كل عمل محتاج إلى زعامة ..

● لا يحسن الناس الاضطلاع بعمل وإنجازه على خير وجه، ما لم يقم من بينهم من يتولى توجيه جهودهم جميعاً نحو الغاية التي ينشدونها.. وتتجلى هذه الظاهرة أوضح ما تكون في الأعمال التي تتطلب تكاتفاً منسقاً.. فلن يقدر لشرذمة من العمال أن تمد خطاً حديدياً – مثلا – ما لم يرأسها شخص يشرف على حركاتها.. إذ أن كل عمل جماعي يعوزه التوجيه، كفيل بأن ينقلب سريعاً إلى فوضى يفتقد فيها النظام.. ولعل من أتيح له القتال يوماً في الميدان، قد أدرك

ضرورة وجود قائد يتولى الأمر.. وهذا الذي يصدق على الجيش، يصدق على العمل في أحواض السفن، وفي المصانع، وفي إدارات الصحف، وفي الدولة بأسرها.. فلا بد من رئيس حيثما كان على الرجال أن يعملوا معاً.

وما إن يظهر الرئيس، وتسيطر الزعامة وتنتظم، حتى يحل النظام محل الفوضى.. وإن انقياد الأمة للنظام، أو تمردها عليه، لرهن بما يكون لحكومتها من قدرة على الحكم أو عجز عن إقراره.

تمهيد تاريخي

● ولم تستطع الإنسانية خلال تاريخها الطويل أن تبتكر من أساليب اختيار الزعماء سوى عدد ضئيل.. وأقدم هذه الأساليب طراً، هو نظام الوراثة.. وقد كانت القبائل الرحالة في قديم الأزمان تختار الابن الأكبر لزعيمها المتوفى كي يخلفه، ولولا نظام «الابن الأكبر» لتعرضت الجماعة لحروب بين الإخوة، تعقبها الفرقة والضعف والانحلال.. أما بالنسبة للدول فإن انتقال السلطة – بالوراثة – يتم بسلام في الملكيات العريقة ذات الجلال والاحترام، إذ يحظى وارث الزعامة بتقدير رعاياه، مما يهيئ له – إلى جانب السلطان – امتيازاً طبيعياً تجل أهميته عن كل تقدير.. وإلى مثل هذا الامتياز يعزى سمو مكانة صاحب العرش في إنجلترا..

وقد أدرك «نابليون» هـذه الحقيقة فرغب في أن ينشئ من

سلالته أسرة مالكة ، إذ أدرك أن الملك يظل ملكاً ولو منى بالهزيمة . فى حين أن الإمبراطور الذى ينشئ عرشه بنفسه يظل بحاجة إلى انتصارات مستمرة لتعزيز سلطانه ..!

وما يصح فى الدول ، يصح أيضاً فى مؤسسات الأعمال التى ظلت أجيالا عديدة تحت إشراف أسرة واحدة .. والخطر الأوحد لتوارث السلطة ، هو أن الابن الأكبر للأسرة — سواء فى ميدان الحكم أو ميدان الأعمال — قد يكون إمعة أو ناقص العقل ، فهل حتم أن تسلم مقاليد الأمة أو العمل إلى زعامة عاجزة ؟.. الواقع أن ليس ثمة ما يحتم ذلك ، وقد عمدت بعض البلاد — التى يمارس الحكم فيها بالوراثة — إلى التجاوز عن الوراثة عندما كان وارث الزعامة يبدو غير أهل لها .. من ذلك أن البرلمان الإنجليزى عدل نظام وراثة العرش مراراً .. كما أن من كبار رجال الأعمال فى الولايات المتحدة من أقدموا فى حياتهم على إجراءات للحد من السلطة التى قد تؤول إلى غير الأكفاء من أبنائهم ..!

الزعيم بالوراثة ، أو بالانتخاب ، أو الامتحان !

• وأهم ما يجب أن يتوافر فى الزعيم عند اختياره أن تكون زعامته موضوع اعتراف من الجميع .. فإن جميع الزعماء الذين تكون زعامتهم موضع تشكك ، يفتقدون القوة والنفوذ .. ومن ثم وجب أن يكون للزعيم الذى ينتخب ، نفوذ لا مراء فيه على أولئك الذين

آثروه بالاختيار .. على أنه كثيراً ما يحدث أن ينتخب شخص لصفات غير تلك التى تتطلب فى الزعيم — كأن يكون لبقاً أو طيب النفس — فلا يلبث أن يكشف عن ضعف وقلة شأن .. كذلك قد يحدث فى الأمة التى تفرقها الأحزاب ، أن لا يمثل الزعيم المنتخب سوى قسم يزيد قليلا عن نصف الناخبين ، فإذا ما أبغضه القسم الآخر ، نشأ عن ذلك موقف يهدد الدولة بالخطر .. وكم من دولة كبرى رأيناها حائرة ، متخاذلة ، لأن الأغلبية فيها انتخبت زعيماً لا يحوز ثقة الشعب بأكمله ..

وتزداد خطورة انتخاب الزعيم حين يقتصر الأمر على جماعة صغيرة — لا دولة — فهنا يمارس الزعيم سلطته مباشرة .. وكذلك الحال حين يتحتم إعادة انتخابه فى فترات معينة ، إذ كيف يستطيع فى هذه الحال أن يحظى بطاعة أولئك الذين سيتملقهم بعد قليل ليظفر بأصواتهم ؟

ولقد كانت الصين فيما مضى تختار حكامها عن طريق امتحانات ، إذا اجتازوها بنجاح فازوا بإجازات ومناصب .. وتتبع هذه الطريقة فى فرنسا اليوم ، إلى حد ما ، إذ يتعين على الفرنسى أن يجتاز امتحانات معينة كى يفوز بمناصب الجيش ، والسلك الديبلوماسى ، ومعظم الإدارات الحكومية الأخرى .. وهذه طريقة عادلة فى ظاهرها ، إذ يخضع المتنافسون فيها لظروف واحدة .. ولكنها — فى واقعها — تنطوى على عيوب جسيمة ، إذ أن تحديد السن فى الامتحان

قد يضيع الفرصة على رجل منى ببطء النضوج العقلى .. فلا يشفع له أن يثبت حين يبلغ الأربعين من عمره أنه زعيم حاذق .. ذلك لأن صفات الزعيم الصالح قد تبقى كامنة ، لا تظهرها حتى الامتحانات فى الغالب ! ولذا نجد « بول فاليرى » لا يتردد فى القول بأن الانتخابات والشهادات هى أكبر عيوب عصرنا ..

ولا يحتمل نظام الاحتكام إلى الامتحان لملء المناصب ، إلا إذا تكرر عند كل ترقية جديدة تكون موضع تنافس — وهذا هو المتبع فى مهنة الطب فى فرنسا ..

هل يكون كبر السن فيصل التفرقة ؟

● ولا يحتاج نظام الاعتماد على كبر السن فى اختيار القادة ورجال الحكم ، إلى كثير شرح .. فن المسلم به أن الناس يكتسبون خبرة وتجربة كلما تقدمت بهم السن — ما لم يكونوا أغبياء أو بلهاء أو أغلقت عقولهم دون المعرفة والعلم ! — على أن أحداً لم يزعم يوماً أن شهادات الميلاد تكفى لاختيار أفضل المسنين على كثرتهم .. ومن ثم لا يمكن اعتبار كبر السن شرطاً مطلقاً فى التعيين للمناصب ..

ويبدو أن خير طريقة معقولة هى أن يتولى الرؤساء أنفسهم اختيار مساعديهم التالين لهم مباشرة ، إذ أنهم سيكونون مضطرين إلى الاعتماد عليهم ، وإلى تحمل مسئولياتهم .. فالحاكم الذى ورث السلطان ، أو الرئيس المنتخب ، يختار رئيس وزرائه بموافقة جمعية

تشرف على تصرفاته أو برلمان .. ورئيس الوزراء يختار بدوره وزراءه .. وهؤلاء يختارون موظفى إداراتهم .. وهكذا يتألف جهاز الحكم بشكل هرمى معكوس ، يبدأ عند الرأس وينحدر إلى القاعدة !

والواقع أن هذا النظام صالح ما صلح البشر .. وهو يقوم على مبدأ حكيم ، ولكن تطبيقه غير ميسور من الوجهة العملية ، إذ أننا إذا استثنينا مناصب رئيس الدولة وعدد من الوزراء السياسيين ، نجد أن التعيين فى جميع الوظائف — بما فيها تلك التى تتطلب دراية علمية — يجب أن يقوم على أسس من القيم الفنية والأمانة الخلقية .. فمن مصلحة البلاد — وبالتالى من يحكمونها — أن يكون قائد الجيش أو مدير السكك الحديدية ممن لا ترقى إليهم الشبهات ، ، مهما كانت آراؤه السياسية مثلا .. ومهما كان أصدقاؤه أو علاقاته ..

ولكننا لا نستطيع أن نجرد البشر من العواطف القوية .. ومن ثم نجد الصداقة والقرابة والزمالة السياسية تلعب دوراً فى ملء المناصب ، وهى ظاهرة يؤسف لها أحياناً .. ومن ثم وجب أن نحاول أن نسيطر على أنفسنا وغيرنا ، حتى لا تضيع المواهب فى غمرة العواطف !

وهناك حالات يبلغ فيها الارتباك بالأمة درجة تبعث على اليأس والقنوط .. وفى هذه الحالات ، لا يختار الزعيم أحد ، وإنما تختاره الظروف .. من ذلك أن « كرومويل » لم تعينه سلطة عليا حين قفز إلى زعامة إنجلترا ، ولم يكن سوى شخص مغمور على رأس شرذمة من الفرسان ! .. ولقد جعلت الثورة الفرنسية من « بونابرت » قائداً .

فجعل هو من نفسه زعيماً للأمة .. إلى غير ذلك من الأمثلة التي تتكرر في جميع الشعوب وجميع العصور .. ومن الواضح أن الزعيم الذي يفوز بمكانته عنوة ، لابد وأن يكون حائزاً للصفات اللازم توافرها للزعامة ، وإلا ما استطاع أن يحصل على السلطة .. وإذا كانت ثمة صعوبة ، فإنما تتمثل في تعرف ما إذا كانت مواهبه تؤهله لأن يكون زعيماً قومياً ، أو مجرد زعيم حزبي ..

وعندما يظفر زعيم لنفسه بالسلطة تنبت مشكلة من يخلفه في زعامته .. ولقد خلف « كرومويل » ابنه ولكنه لم يبق في الحكم طويلا .. ومات ابن « بونابرت» في منفاه بعيداً عن الوطن .. وأبغض خليفة « لينين » أعمال سلفه فقضى عليها ..

نخلص من كل هذا إلى أن اختيار الزعيم مشكلة لم تلق حتى اليوم حلا حاسماً ، إذ يعتمد كل شيء على الظروف الماضية وأهداف الأمة في مستقبلها .. على أن الزعيم لا يستطيع أن يبقى في زعامته – سواء كان قد نالها بالانتخاب أو بالتعيين ، وسواء فرض على أمته بحكم مولده أو بقوته – ما لم يكن حائزاً لتلك الصفات التي تتطلبها الزعامة .. والتي نشرحها فيما يلي :

الحزم والصرامة من لوازم الزعيم

● تتمثل رسالة الزعيم في توجيه أعمال سواه ، ومن ثم كان لزاماً محتوماً عليه أن يعرف إلى أي هدف ينتوى أن يقودهم .. وإذن فأهم

صفة يجب أن تتوافر له هي قوة الإرادة ، إذ يجب أن يدرى كيف يتخذ القرارات وكيف يتحمل تبعاتها .. ومن الطبيعي أن عليه قبل أن يتخذ قراراً ، أن يلم بكافة المعلومات المتعلقة به ، وأن يتدبر جميع الظروف .. فإذا ما انتهى إلى القرار وأصدر أمره به ، وجب أن يصير عليه ويتمسك به ، ما لم تعترضه عقبة كأداء لم تكن في الحسبان. .. فليس أدعى لتثبيط همم الأعوان من رئيس متردد .. وقد قال نابليون في هذا الصدد : « إن الحزم يغلب كل شيء .. » .

ولا بد للزعيم من شجاعة أدبية عارمة كي يتخذ القرارات ، فإنها كثيراً ما تكون مؤلمة له .. كما حدث للقائد الفرنسي « جوفر » في بداية حرب سنة ١٩١٤ ، حين اضطر إلى أن يقصي عن الجيش عدداً كبيراً من القادة الذين كانوا أصدقاء له ! .. ذلك لأن سلامة الكثيرين . تتطلب أحياناً التضحية بنفر قليل من الرجال .. وللزعيم أن يكون صارماً ، بل إن الصرامة واجبة في بعض الأحيان ، غير أنه لا ينبغي له أن يكون شريراً ، أو قاسياً ، أو متعطشاً للانتقام .. وعليه أن يزدري لغط القول ، وأن يحرمه إن استطاع ..

النزاهة ألزم للزعيم من الذكاء ..

● ويجب أن يحيط الزعيم نفسه بهيئة من الأعوان المخلصين الذين يتولون عنه القرارات غير ذات الأهمية الخطيرة ، على أن لا يدعهم يطغون عليه ، أو يدع تصرفاتهم تحجب تصرفاته .. وليختر لتنفيذ

أوامره طائفة من الفنيين يصطفيهم ويودعهم ثقته ، ويبيح لهم حرية التصرف ، مكتفياً بأن يراجع ما يوافونه به من معلومات بين آن وآخر ليستوثق من صحتها ودقتها ..

والزعيم المجرّب الخبير يدرك أن ليس فى طوقه أن يقتفى كل صغيرة وكبيرة من أعمال كل واحد من أعوانه .. وإنما ينبغى أن يقتصر – لا سيما فى المسائل الاقتصادية – على أن يبين بعض الاتجاهات العامة ، وأن يصر على احترام المصالح الخاصة صوناً للمصالح العامة ، فلا يسعى إلى أن يضع خطة تعارض النتائج التى لا بد أن تتجه إليها رغبات الملايين .. مثله فى ذلك مثل جندى المرور ، ينظم انسياب حركة المرور ، دون أن يأخذ على عاتقه أن يعين طريقاً معينة لكل مركبة !

وعلى الزعيم أن يوفر احترامه فى نفوس مستشاريه وأعوانه ، وإلا أفسح المجال للهواجس والدسائس .. ولا سبيل للظفر بالاحترام إلا بأن يكون جديراً به .. والزعيم العظيم هو ذو الشخصية العظيمة ، الذى ينزه نفسه عن المحاباة والمصلحة الشخصية .. ولقد كان « بلدوين » و «بوانكاريه» يفتقران إلى الذكاء المتألق ، ولكنهما كانا فوق مستوى الشبهات فى أمانتهما وإسرافهما فى التدقيق فى المسائل المالية .. ولقد وقف « بلدوين » قسطاً من ثروته على أمته ، ولم يفكر « بوانكاريه » يوماً فى أن يستخدم مرفق الحكومة فى مآربه الشخصية .. كان كل منهما يتصف بتلك الصفات « المستقيمة »

التى ينشدها صاحب المصنع فى مدير مصنعه ، أو فى الزوج الذى يرجوه لابنته .. وقد مكنتهما هذه الفضائل الأساسية من أن يكونا قويين .. ولا عجب . فإن الديكتاتور يستطيع أن يفوز بالسلطان إذا ما كان مستقيماً وفوق متناول الفساد ..

فليحذر الزعيم من .. النساء !

• ولا ينبغى للزعيم أن ينساق لغير عاطفة واحدة : عاطفته نحو عمله ومهنته .. وعليه أن يكون متحفظاً . وأن يذهب فى ذلك إلى درجة أن يحيط نفسه بالغموض .. ولست ألومه إذا هو حرص على أن يبدو كشخصيات الخيال أو الخرافات .. وإنا لنرى فى قصة كبلينج « الرجل الذى قدر له أن يكون ملكاً » . مغامراً استطاع بقوة شخصيته وحدها أن يسيطر على عدة قبائل من أهالى الجبال وأن يغدو زعيمها الأكبر .. ولكنه ما لبث أن فقد هيبته وعرشه . حين ساقه ضعفه إلى الوقوع فى هوى امرأة من رعاياه . فسمح لها أن تتبين أنه ليس سوى .. رجل من البشر ! وقد قال نابليون : « كم من رجال وقعوا فى صعاب لمجرد ضعفهم بإزاء النساء » ! ..

ويسوقنا هذا إلى الحديث عن زوجة الزعيم .. فهى تضطلع بدور شاق . إذ عليها أن تذود عنه الدنيا بأسرها ، وأن تجنبه أن يتعب نفسه فيما لا طائل من ورائه . وأن تكبح نفسها عن أن تقترح فى عمل ينطوى على تهور أو اندفاع . وأن تجعل له من بيته ملاذاً

آمناً ، لا دولة أخرى يضنيه حكمها .. فإن البيت أصعب الدول حكماً !

دار الجدل يوماً حول أهم الصفات اللازمة للسياسي ، فى حضرة « وليم بيت » — أصغر سياسي تولى رئاسة الوزارة البريطانية — فذكر أحدهم الجد ، وذكر آخر النشاط ، وذكر ثالث اللباقة .. أما « بيت » فلم يذهب مذهبهم . بل قال إن ألزم صفة لرئيس الوزراء هى « الصبر » .. وكان مصيباً . ولكن الصبر ليس لازماً لرئيس الوزراء وحده ، بل هو لازم لكل من يقتضيه واجبه أن يتزعم جماعة من الناس .. ذلك لأن الغباء عامل يخالط شئون البشر ، والزعيم الحق هو الذى يتوقع دائماً أن يصادفه ، فيروض نفسه على احتماله طالما كان غباء عادياً .. وهو الذى يدرك أن آراءه ستتعرض للتشويه ، وأن أوامره ستنفذ فى إهمال ، وأن الغيرة لابد أن تدب بين أعوانه ، فيحسب لكل هذه الظواهر التى لا مناص منها حساباً ، وبدلا من أن يسعى للبحث عن رجال منزهين عن الخطأ — وهو نوع لا وجود له بين الناس — يتجه إلى الإفادة من خير من تحت إمرته من الناس ، كما هم فى واقع الأمر ، لا كما ينبغى أن يكونوا ..

النظام .. والكتمان

● ومن أنواع الصبر مواصلة الجهد .. فالزعيم الحق لا يخال إذا ما بلغ هدفاً أن كل شئون دولته قد سويت إلى الأبد ! .. فليس فى

الدنيا استقرار دائم لشيء .. وقد أثر عن « نابليون » قوله : « إن أكثر اللحظات خطورة هى تلك التى تصحب النصر ! » .. وما من دولة ، ولو كانت غنية قوية ، تستطيع أن تبقى سنين عديدة دون أن تساس على النظام ، وإلا وقعت أزمتها فى أيدى أسوأ مواطنيها ، وهزمتها جاراتها ! .. وإنما يخلق بزعيمها أن يدرك أن جهوده لا تثمر نتائج « خالدة » ، بل يجب أن يبدأ الجهاد من جديد فى كل صباح .. !

والحكمة أو التعقل فضيلة لا تقل عن الصبر لزوماً .. وقد قال ريشليو : إن « الكتمان هو روح الشئون القومية » .. وفقد تشارلس الأول — ملك إنجلترا — عرشه ورأسه نتيجة عدم حكمته ، إذ بلغت به الغفلة أن أفضى إلى زوجته الفاتنة بخطة وضعها للتخلص من نفر من أعضاء البرلمان ، فأفضت بها بدورها إلى وصيفة كانت موضع ثقتها .. وكان لهذه أصدقاء بين غرماء الملك ، فبادرت إلى إنذارهم ! .. وهكذا وجد الملك — حين حانت ساعة العمل — أن صيده قد فر ، وأن الشعب قد هب مشهراً سلاحه .. ومن هذا نستخلص العبرة التالية : « لا تقل إلا القول الضرورى .. ولا تفض إلا لمن ينبغى الإفضاء له ، وحين يكون ذلك الإفضاء واجباً » .. ومن ثم كان الصمت مرغوباً ، فالكلام يفضح الأفكار ، ويبدد شجاعة المرء .. وهو بالاختصار ، يقضى على التركيز الذى لا غنى عنه ..

وليس من شك فى أن من أصعب الأمور على الزعيم أن يوفق بين التحفظ والوقار اللازمين لمركزه ، وبين الأنس والود اللذين

يعوزانه عند اختيار أعوانه .. ولكن من السهل التغلب على هـذه الصعوبة بالحصافة التى تودعها الطبيعة أولئك الذين يولدون ليحملوا التبعات الجسام ..

الشجاعة .. والصحة !

• يضاف إلى هذه الصفات جميعاً : الشجاعة الجسدية ــ الفضيلة الوحيدة التى تحول دون النفاق ــ والصحة .. فإن الصحة الجيدة تزيد الزعيم نفوذاً وقوة ، وتيسر له الأسباب لكى يكون صبوراً ، دائب العمل، قوى العزيمة .. ولقد كان من أعظم صفات المارشال « جوفر » شهوته للطعام ، وقدرته على النوم حينما يطلبه .. فإن التوازن البدنى يهيء للعقل اليقظة والمبادرة ..

و « الهدوء البارد » أهم صفة لمن يقدر له الحكم .. ويؤثر عن القائد الفرنسى « جاليينى » أنه بعد أن أصدر أوامره فى الميدان ، فى إحدى المعارك ، تحول يقرأ كتاباً .. فلما عجب « بيير لوتى » من هذا التصرف ، وكان بعد شاباً ، قال له جاليينى :

ــ لقد فعلت كل ما فى طوق ، وآن لى أن أنتظر وأرقب ما يجرى .. وخير لى أن أفكر ــ خلال الانتظار ــ فى شيء آخر .. !

وكانت هذه طريقة نافعة لتصفية الذهن وحفظ اتزانه ..

الذكاء .. والثقافة .. وسرعة البت

• وإذا كان للخلق الأهمية الأولى ، فإن الذكاء لا يقل عنه لزوماً ..

ومن الأمور المرغوبة للزعيم أن يكون واسع العلم .. فالتاريخ والشعر ينميان معرفته بأحاسيس البشر . والثقافة تتيح للرجل العامل الفرص كى يسترد هدوءه بين وقت وآخر ، إذ تضع تحت إمرته نماذج للصفاء الذهنى ، فضلا عن أثرها فى توسيع أفق التفكير ..

وينبغى أن يحتفظ ذكاء الزعيم بالبساطة والصفاء .. فمن المتعذر الإقدام على اتخاذ قرار أو عمل إذا كان الذهن مليئاً بالنظريات والمشروعات المعقدة .. والمصنع الذى ينكب بتنظيم « معقد » لا يقل تبديداً للمال عن المصنع غير المنظم إطلاقاً .. وكذا نجد أن المشروع الذى يديره رجل واحد ، يفوق المشروع الكبير . لأن نفقاته تقل عن نفقات هذا ، فى حين أن منتجاته تفوق منتجات الأخير جودة..

ومن ثم وجب على الزعيم أن لا يعتنق سوى مبادئ قليلة بسيطة ، يستخلصها من التجربة ، ويعززها التطبيق ..

ويجب على الزعيم أن يعرف كيف يستخدم عقول سواه .. وقد قال ريشليو : « على المرء أن ينصت طويلا ، وأن يتكلم قليلا ، إذا شاء أن يحكم أمة كما ينبغى للحكم أن يكون ! » .. على أن الإنصات لا ينبغى أن يكون إلا لأولئك الرجال الذين يؤتون الدراية الدقيقة .. والصمت خليق أن يفرض على الثرثارين الذين لا ينطقون إلا لغواً !..

وينبغى أن يكون الزعيم سريع البت فى الأمور . فالوقت عامل هام فى كل عمل .. وأن مشروعاً غير كامل يشرع فى تنفيذه فى الوقت المناسب ، لأفضل من مشروع كامل يأتى تحقيقه متأخراً ..

وأحياناً يكون الوقت من الأهمية بدرجة تجعله موضوع الاعتبار الأول ..

● ويتصل الزعيم بأعوانه بثلاث طرق : بالأوامر التى يصدرها، وبالتقارير التى يتلقاها ، وبجولات التفتيش والتفقد التى يقوم بها ..

ويجب أن يكون الأمر الذى يصدره إلى مرءوسيه واضحاً ، قبل كل شيء .. فقد يجوز أن يكون التفكير مبهماً ، وأن يكون فى المشروع شيء من الخيال ، ولكن « الأمر » يجب أن يكون دقيقاً .. فكل الأوامر عرضة لأن يساء فهمها ، ومن باب أولى ، فإن الأمر المبهم عرضة لأن لا يفهم إطلاقاً .. والزعيم الحكيم هو الذى يقر بأن الذين يفهمون بين الناس قلة ، وأن كل امرئ – فى الغالب – مهيأ للنسيان .. ومن ثم وجب على الزعيم أن لا يقتصر على إصدار الأوامر، بل ويراقب تنفيذها ، وأن يتدبر عند إصدارها كل احتمال قد يقضى على مفعولها .. فليس لغباء المخلوقات ولا لسوء الحظ حدود .. والشيء غير المرتقب هو الذى يحدث دائماً .. ومن ثم فإن الزعيم الذى يعمل على إحباط عوامل سوء الحظ ، والذى يحصن نقاط الضعف فى مشروعاته ضد الغباء ، يكون أكثر قدرة على فرض إرادته ، ممن لا يعبأ بهذه الإجراءات ..

على أن هذه الاحتياطات تغدو أقل لزوماً ، حين يوفق الزعيم فى أن يجمع حوله أعواناً دلته تجاربه على أنهم أهل لثقته .. ومن ثم نرى لكل زعيم قوى وزراءه ، ولكل قائد أركان حربه .. وهؤلاء

الأعوان يمتازون بأنهم يألفون الغريب من صفاته ، فهم يعرفون كيف يخدمونه ، وهم يفهمون على الفور أوامره ، ويعنون بتنفيذها حرفياً .. على أن العالم لم يؤت من الرجال الذين يمكن الركون إليهم سوى قلة ضئيلة . وقد قيل عن الرئيس « ويلسن » : إنه كان يؤمن بالإنسانية عامة ، لكنه كان يضن بثقته على الأفراد .. أما الزعيم الصادق ، فهو الذى لا يثق بالإنسانية ، ولكنه يثق بنفر قليل من الناس ..

فكيف يختار هؤلاء الناس ؟..

● إن من واجبات الزعيم أن يأتلف بالجماعات التى يستطيع أن يجند منها لنفسه أعواناً .. ولقد كان « جامبيتا » يجوس خلال كل بقعة فى فرنسا حتى يتعرف على رؤساء الأقلام الحكومية !.. ومن واجب الشخص الذى يحظى بشرف حكم أى بلد ، أن يسعى لاكتشاف خير رجال هذا البلد ليبوئهم المناصب الحكومية الهامة .. وهو يجب أن لا يقتصر على الإفادة من الموجودين منهم ، بل إن عليه أن يكتشف عناصر جديدة . وتتولى الأحزاب السياسية ، فى بعض البلاد الأجنبية ، هذه المهمة – كما يفعل حزب المحافظين فى انجلترا ، الذى يكلف بعض أعضائه بأن يظلوا على اتصال بالجامعات الكبرى ، أملا فى العثور على شبان يمكن أن يتحولوا يوماً إلى ساسة .. ولديهم مدرسة لتدريب هؤلاء تدريباً خاصاً . فإذا أظهروا ذكاء وتألقاً ، سعى الحزب حتى يحصل لهم على مقاعد فى البرلمان ، وأقدم رئيس

الحكومة على أن يتيح لأفضلهم شيئاً من التجربة ، بأن يتخذ منهم سكرتيرين برلمانيين ثم لا يلبث أن يجعلهم وكلاء وزارات .. ومعنى ذلك أن من واجب رئيس الحزب أن يعنى بتكوين « طبقة » حاكمة ، وكذلك الحال بالنسبة لرؤساء الشركات أو المؤسسات الكبرى .

وكثيراً ما يكون من الصعب خلق تفاهم تام بين الأعوان .. على أنه يجب أن لا تقوم للخيلاء ولا للعصبية المحلية — أى اعتزاز كل إدارة بنفسها — قائمة فى أية إدارة ، بحيث تعادى بقية الإدارات .. ولك أن تتصور حال السكك الحديدية إذا قامت خلافات بين الإدارة وأقسام الحركة .. أو حال الجيش إذا دب نزاع بين القيادة والضباط فى ميدان القتال .. ومن ثم كان من المهم أن يفهم كل امرئ أن الجيش أو المصنع أو الدولة تشبه فى مجموعها جسداً حياً ، متصلا ، إذا تنازعت أجهزته بعضها مع البعض كان فى ذلك « انتحار » أدبى له .. !

وكثيراً ما يحدث أن تدب الغيرة والحسد بين الأعوان الذين يكنون لرئيسهم إعجاباً فائقاً يحفزهم على أن يجدّوا فى العمل من أجله .. إذ يشتد طمع كل منهم فى أن يحظى بالأثرة لديه ! ومن ثم كان على الزعيم أن يتوقع هذه المواقف الشائكة ، وأن يعالجها ، إذ أنها تهدد كفاية « فريقه » بأبلغ الأخطار .. وكما يستطيع سائق السيارة الخبير أن يحدس أى خلل فى محرك سيارته بالإنصات إلى صوته ، كذلك يشعر الزعيم — الذى فطر على الزعامة — بتحول أتباعه عن الإخلاص

له ، فيبحث عن السبب ويصل إليه ! .. وغالباً ما يكون السبب تافهاً وقد يهز أحدهم كتفيه بدافع من حركة عصبية ، فيسيء آخر فهم حركته ويظنها مقصودة لإهانته ! ..

أثر الاتصالات الشخصية !

● ويتلقى الزعيم عادة تقارير عن الروح المعنوية والنفسية لأعوانه ، وعن نتائج الأوامر التى يصدرها ، ولكنه دائماً لا يثق فى هذه التقارير .. إذ أنها قد تشتمل على معلومات مغالى فيها ، أو مشوهة ، أو ناقصة .. والطريقة الوحيدة لتفادى الوقائع الخاطئة ، هى التفتيش الشخصى من آن إلى آخر . فإن هذه الزيارات تكون ذات آثار عجيبة ، إذ تعقبها فى الحال تقارير لحمتها الصدق وسداها الدقة .. وقد روى المارشال بيتان أنه تولى فى سنة ١٩١٥ قيادة قطاع كانت القيادة تصر من أسابيع عديدة على المضى فى مهاجمته ، وكانت النشرات تنبئ عن مغانم ضئيلة وخسائر جسيمة من وراء هذا الهجوم .. وهدت الحكمة « بيتان » إلى أن يرتاب فى الأمر ، فذهب بنفسه إلى الخطوط الأمامية مستصحباً أجهزة المساحة والكشف ، وإذا به يرى أن النشرات كانت تزيف لإرضاء القيادة ، وأن المغانم كانت من وحى الخيال .. ذلك لأن التقارير التى ترفع لذوى الأمر غالباً ما تصاغ لتلائم ما يهوون ، أو توضع فى قالب يعزز نظريات الموظف الذى يعدها ..

إظهار الثقة والصراحة فى النقد .. لازمان !

• والزعيم المدقق أقدر على بث روح الحماس للعمل من الزعيم الذى لا يكترث .. وخير سبيل إلى فرض الشدة هى أن يحيط الزعيم نفسه بأولئك الذين يعرف قيمة مواهبهم دون سواهم .. فإن أى رجل قد يسهل عليه احتمال النقد إذا ما تبين بجلاء أن خلقه وذكاءه بعيدان عن أى ارتياب .. وأحكم مسلك بصدد هذا النقد هو أن يذكر الإنسان فى سرعة وقوة ما يشتد بنفسه الشعور به . فإن اللوم القاسى إذا وجه بسرعة . يكون أقل إيلاماً من إظهار الاستياء بالمناجزة والتجهم .. وجدير بالأعوان أن يتبينوا أن الأمر الذى لا ينفذ كفيل بأن يجر عليهم المتاعب .. وأنهم براء من الأمر الذى يؤدى تنفيذه إلى ضرر . لأن الزعيم الحق . يتحمل دائماً كل مسئوليات أعماله ..

والزعيم هو المدافع الطبيعى عن شعبه ضد جشع القوى . ومن ثم فعليه أن يستوثق من أن أعوانه يعاملون عماله وجنوده بالعدل والاحترام .. وهذا أصعب قسم فى واجباته . إذ عليه — فى الوقت ذاته — أن لا يوهن من نفوذ معاونيه . أو يحتمل أية إساءة إلى سلطتهم .. وليست ثمة قاعدة لتبيان هذا الأمر . وإنما عليه أن يعمل بنفسه على حفظ التوازن بين الحالين ..

ومن واجب الزعيم أن يتبين قدر الإمكان أى استياء يسرى فى صفوف المحكومين . وأن يعالج الظلم قبل أن تترامى إليه الشكايات ..

ولكى يتسنى له ذلك ، يجب أن يظل على اتصال وثيق بالرجال الذين تحت إمرته .. وليذهب إلى الخنادق إن كان قائداً ، أو ليذهب إلى المصنع مع عماله من آن إلى آخر إن كان مديراً .. وليكن واسع الخيال إلى حد ما ، إذ لا بد له من أن يفهم حياة غيره من الناس حتى يستطيع أن يقى أولئك الذين تحت زعامته . متاعب لا داعى لها .. ولا سبيل إلى كسب ودهم إلا بمنحهم الود ، وإلا بأن يكون قادراً على أن يؤدى مهامهم بنفس الإجادة التى يؤدونها بها .. وقد فطر الناس على احتمال تلك الأوامر . بل واستساغتها . إذا اتبعت الحصافة فى إصدارها ..

توطين النفس على احتمال النقد !

• والحكم والقيادة فنان يتباينان فى وقت السلم .. فالقيادة هى تسيير جماعة من البشر تحت حكم النظام إلى هدف معين .. ومن ثم يدرك ضابط الجيش أن رجاله فى طاعته دائماً . اللهم إلا فى حالات نادرة يشتد فيها العصيان .. كذلك هو يدرك هدفه تمام الإدراك .. كما يدرك رئيس أى مشروع تجارى أن عليه أن ينتج سلعة معينة بثمن معلوم وبكميات محدودة . وأنه إذا أخفق قضى على نفسه بالخراب وعلى مستخدميه بالبطالة .. ومن ثم فهو سيد نفسه — طالما التزم حدود القانون — اللهم إلا حين ترتبك الظروف الاجتماعية ..

والديكتاتور كالقائد : يقود بقوة النظام أكثر مما يحكم ..

وعلى رئيس حكومة أية أمة حرة أن يوجه أعمال أية جماعة – لا تجد ما يضطرها إلى طاعته إلا خوفها من الفوضى – نحو أهداف مبهمة ، متغيرة .. وعليه أن يتوقع أنه لا سبيل له إلى عمل ما دون انتقاد من معارضيه .. وكلما قويت رغبتهم فى أن يضعوا غيره محله ، اشتدت قسوتهم عليه .. كما أن عليه أن يروض نفسه على أن أعوانه ليسوا مجرد أتباع يجب أن يدينوا له بالطاعة العمياء ، وإنما هم سواسية معه ، وهم خلفاؤه المرتقبون .

● والآن .. ما الفضائل التى يجب أن نتطلبها فى الرجل الذى نأتمنه على تولى أمورنا ؟..

تفادى الاصطدام بالعقبات !

● إن الفضيلة الأولى ، هى أن يكون واسع الأفق ، قادراً على أن يدرك ما يحتمل وما لا يحتمل .. ما يمكن وما لا يمكن .. فليس يجدى فى السياسة أن تصاغ المشروعات العظيمة السامية إذا لم يكن فى الوسع تنفيذها بسبب الحالة القائمة فى الدولة .. والسياسى العظيم هو ذلك الذى يتعرف على البواعث والدوافع التى تحرك الشعب ، ثم يقدر إلى أى مدى يستطيع أن يمضى فى طريقه دون أن يصطدم بها .. ولا يجب أن يسمح لنفسه بأن يخاف طبقة ما ، متغافلا عن رد الفعل الذى لا مفر من أن يثور فى نفوس الجماعات التى يهملها .. وإنما عليه أن ينظر إلى الشعب كجسد حى كبير ، يعتمد كل عضو فيه على

بقية الأعضاء .. وكما يفعل الطبيب ، يجب على الزعيم أن يتعرف درجة حرارة الرأى العام كل يوم . فإذا اشتدت « الحمى » عمل على أن يتيح للبلاد أسباب « الراحة » فترة من الوقت ..

وكما يقدر السياسى الماهر قوة الرأى العام تقديراً تاماً . فإنه يدرى أيضاً أن من الميسور له أن يؤثر عليها .. فهو إذ يحسب مدى قدرة الناس على أن يظلوا غير مبالين بأعماله ، يجب أن لا يغفل أن لهم لحظات عنف . وأن احتجاجاتهم الغاضبة تكون مشروعة إذا كانت تصرفات الحكومة تجر عليهم الفقر . وتذهب بحريتهم التقليدية ، أو تتدخل فى حياتهم الخاصة بدرجة كبيرة .. على أنهم لا يتوانون عن أن يسلموا قيادهم لرجل يدرك إلى أين يسير ، ويريهم بوضوح أنه يضع مصلحة الأمة نصب عينيه . وأن لهم أن يثقوا به ويركنوا إليه ..

وليس تقدير طاقة الشعب وإمكانياته هو مجرد القدرة على الاعتراف بأن ثمة أشياء مستحيلة .. فهذه فضيلة سلبية .. وإنما الفضيلة الإيجابية أن يقدر الرجل الشجاع أن هناك أموراً ممكنة وإن بدت شديدة الصعوبة .. والسياسى العظيم لا يكتفى بأن يقول : « إن هذه الأمة ضعيفة .. نائمة .. ولسوف أوقظها .. إن القوانين والمبادئ والأفكار من صنع الناس . ومن ثم فسوف أغيرها إذا دعت الضرورة » .. وإنما يجب قبل كل شىء ، أن لا يكتفى بالكلمات . بل يتبع العزم بالعمل .. وأن يقدم على تحقيق الأهداف التى يحددها

ويعينها بدقة ، بالطرق التي تبدو له .. فإذا اعترضته عقبات وجب أن يلف حولها .. فإن الغرور ، والاعتزاز بالعقل ، والتحمس للأسلوب ، من أخطر العقبات التي تعترض طريق السياسي : حتى لنجد بين زعماء الأحزاب من لا يتورع عن تضحية بلاده في سبيل نظرية أو مجموعة من المبادئ .. في حين أن الزعيم الصادق هو الذي يقول : « لندع المبادئ كي ننقذ الأمة » ..

● وينبغي أن يكون الزعيم واقعياً .. فليس في وسع « نبي » من الأنبياء أن يحول جماعة من الناس إلى رجال ونساء كاملي الاستقامة !.. وإنما حسب السياسي العظيم أن يكون مثل صاحب المتجر الحكيم ، الذي يدرك أن عليه أن ينظف متجره كل صباح .. وإذا ما وقعت مشاجرة ، تحملها في صبر وهو يوطن نفسه على أن أخرى لن تلبث أن تنشب بعد أن تخمد هذه !.. وهو يوافق على أية تسوية أو صلح ولو لم يكن مرضياً ، أو كان مجرد حل مؤقت ، لأنه يدرك أن لا شيء يدعو إلى الرضا التام ، أو يستمتع بالدوام ، في شئون البشر .. وأن السلام (الدولي أو الاجتماعي) لن يلبث أن يقترب مهما تكرر تأخره .. ولن تمضي عشر سنوات أو عشرون ، ثم تتم مهمة جيله .. ولا يلبث الجيل التالي أن يتسلم العلم ليواصل حمل الرسالة ..!

من حق الزعيم أن يعطى فرصة كافية ..

● ومن حق الزعيم - الجدير بلقبه - أن يطاع .. والشعب الذي

لا يستطيع احترام زعمائه يقضي على نفسه بالدمار ، إذ يغدو عاجزاً عن إتيان أي عمل .. وقد يؤثر المجتمع نظاماً للحكم على نظام آخر ، كأن يستبدل بالحكومة المدنية أخرى عسكرية ، وعندئذ يصبح الولاء للزعيم المختار فرضاً واجباً .. إذ أن نقص النظام كفيل بأن يقضي بالهزيمة على أي جيش ، وبالخراب على أي صاحب مصنع ..

كذلك من حق الزعيم أن يطمئن إلى احتفاظه بزعامته ، إذ لا سبيل له إلى تحقيق نتائج طيبة ما لم يتح له الوقت الكافي .. فينبغي أن يمنح وقتاً يمكنه من أن يكتسب خبرة وتجربة ، وأن يظل في زعامته ما لم يتضح أن الشعب قد أخطأ الاختيار ، وأن المختار غير أهل للزعامة ..!

ولكن .. كيف يتسنى التوفيق بين النظام ، وطول أمد تولي الزعيم لمنصبه .. وبين حرية ممارسة حق الانتقاد ؟.. أو لا يحتمل أن ينقلب الزعيم الذي أوتي سلطاناً غير محدود ، إلى طاغية أو مجنون ؟..

الواقع أن الطاعة يجب أن تكون مطلقة ، سواء في الجيش أو في كل الحالات « المدنية » التي تتطلب عملا عاجلا ، على العموم .. وليس لأحد - سوى القادة - أن ينتقد .. أما في الحياة العادية للدولة الحرة ، فلكل إنسان حق الانتقاد ، في حدود تعينها التجربة .. وإذا اقتضت إرادة الأمة بوضوح أن تغير زعماءها من وقت إلى آخر ، وجب أن يتم هذا التغيير .. ولا يجب أن يكون التغيير متكرراً في أوقات قصيرة ، أو أن يأتي نتيجة إملاء رجل الشارع ..!

● والتربية الخلقية ألزم لأولئك الذين يعدون للزعامة ، منها لسواهم .. إذ ينبغي على الزعيم أن يحرز – إلى جانب قدرته على الإشراف على زملائه – شعوراً قوياً بالواجب .. إذ لا سبيل له إلى الاحتفاظ بمركزه ما لم يجعل نفسه – في كل يوم – أهلا لهذا المركز .. وليس بالزعيم الصالح ذلك الذي يقتصر – إذا وضع على رأس جماعة أو مشروع تجاري – على السعي لتحسين شئونه الخاصة فحسب .. لا ولا هو بالقائد الصالح ذلك الذي يقبل عبء الزعامة ثم يضع ملذاته فوق مسئولياته .. لا ولا ذلك الذي إذا وضع على رأس غيره من الناس ، أطلق لغضبه وعناده العنان ، أو أسرف – من ناحية أخرى – في المحاباة والمحسوبية .. لا ولا ذلك الذي إذا صار إليه نصيب من إدارة السياسة الخارجية لبلاده ، ضحى بالخير الدائم للبلاد ، من أجل الحزازات والدسائس الداخلية ..

إن الدور الذي يجب على الطبقات الزعيمة أن تؤديه ، هو أن توجه .. أن ترشد إلى سبيل الكرامة والعمل .. فالزعامة ليست امتيازاً وتفضيلا ، وإنما هي شرف وثقة .. وينبغي أن يكون شعار الزعيم وأعوانه جميعاً أن يعملوا « يداً واحدة » ، متكاتفين ، متساندين ، متكاملي المهام والمسئوليات ، كالجوقة الموسيقية التي يسود عازفيها جميعاً التوافق والانسجام ..!

آراء لابن المقفع : الزعيم وصاحب السلطان

.. أما وقد عرفت آراء فيلسوف من الغرب ، في الزعامة وفنونها .. فيحسن أن تعرف آراء فيلسوف من الشرق ، في نفس الموضوع ، كي تقارن بين العقليتين ، والأسلوبين .. وسترى أن الشبه بين أفكار الاثنين كبير !!

● ولاية الناس بلاء عظيم . وعلى الوالي أربع خصال ، هي أعمدة السلطان وأركانه التي بها يقوم وعليها يثبت : الاجتهاد في التخير ، والمبالغة في التقدم ، والتعهد (أي الرقابة والتفقد) الشديد ، والجزاء العتيد (العظيم) ..

فأما تخير الوالي للعمال (الأعوان) والوزراء ، فإنه عسى أن يكون بتخيره رجلا واحداً قد اختار ألفاً .. لأنه من كان من العمال خياراً (أي طيباً) فسيختار كما اختير ..

وأما التقديم والتوكيد ، فإنه ليس كل ذي لب أو ذي أمانة يعرف وجوه الأمور والأعمال .

وأما التعهد (أي الرقابة والتفقد) ، فإن الوالي إذا فعل ذلك كان جميعاً بصيراً ، وإن العامل إذا فعل ذلك به (أي شعر بالرقابة والتدقيق في فحص أعماله) كان متحصناً حريزاً ..

وأما الجزاء ، فإنه تثبيت المحسن والراحة من المسيء ..



وأعمال السلطان كثيرة . وقليل ما تستجمع الخصال المحمودة عند أحد ، وإنما الوجه فى ذلك والسبيل الذى به يستقيم العمل أن يكون صاحب السلطان عالماً بأمور من يريد الاستعانة به ، وبما عند كل رجل من الرأى والغناء . وما فيه من العيوب ، كى يوجه لكل عمل من يصلح له ..

ثم على الولاة . بعد ذلك . تعاهد عمالهم وتفقد أمورهم . حتى لا يخفى عليهم إحسان محسن ولا إساءة مسىء .. ثم عليهم أن لا يتركوه محسناً بغير جزاء . ولا يقروا مسيئاً ولا عاجزاً على الإساءة والعجز . فإنهم إن تركوا ذلك . تهاون المحسن . واجترأ المسىء ، وفسد الأمر ، وضاع العمل .

* * *

أهمية هذا البحث

● لكل رجل — بل لكل امرأة كما سترى — عمل يشغل به وقته، سواء كان كسباً للعيش أو تبديداً للضجر أو خضوعاً لفريضة الحياة .. وكل إنسان يهمه بالطبع أن يتقن عمله وينجح فيه . لكنه قد يعجز عن ذلك أحياناً ، ربما لأسباب لا صلة لها بنقص فيه أو قصـــور .. وإنما علتها جهله بطريقة أداء عمله أو تنظيم حياته على الوجه السليم ، الذى يكفل له النجاح فى بلوغ غاياته وأهدافه ، سواء فى أوقات العمل أو أوقات الراحة على السواء .

وكما أن العمــل فن ، كذلك الراحة من العمل بدورها فن آخر لايقل عنه أهمية ، بل لعله يفوقه .. لأنه الأساس الذى يجعلك قديراً على الشروع فى عـملك حين يحين وقتـه ، بهمة ونشـاط وعزم لايلين .. فتعـال معى نستمع لآراء « أندريه مـــوروا » السديدة فى هذا الموضوع الذى يمس حياة كل رجـــل ، وكل امرأة وربة بيت ..

العمل .. بين القواميس والحقيقة

● لو أننا بحثنا عن المعنى الدقيق لفعل « عمل ، يعمل » فى القواميس ، لألفيناه يتمثل فى « تجشم العناء لأداء مهمة من المهام » .. لكن الواقع أننا لا نجد فى هذا التعريف كل بغيتنا .. أفليس فى وسع المرء أن يجد فى العمل متعة ؟ .. إذن فلندع القواميس ولنستعرض بعض الأمثلة .. لننظر إلى صانع الزجاج .. ماذا يعمل ؟ .. إنه يخلق من الكتلة معدومة الشكل شيئاً نافعاً .. وماذا يفعل عامل المنجم ؟ .. إنه يستخرج من الأرض مواد أوليـة ، كالفحم والحديد ، فيسلمها إلى من يحيلونها إلى قوة محركة ، وحرارة ، وآلات .. وماذا يعمل المزارع ؟ .. إنه يفلح الأرض ويحرثها ويبذر فيها البذور .. وماذا يعمل الروائى ؟ .. إنه يصب مشاهداته للناس فى قالب قصصى ، كما يفعل صانع الزجاج حين يبدع من كتلة لا شكل لها تحفة تسر الناظرين .. وما الذى يعمله الطالب ؟ .. إنه يحاول أن يستخلص لنفسه ما سبقه إليه غيره من معرفة .. فهو يبنى ذهنه وينظمه .. بل هو يصنع نفسه ..

فالعمل ، إذن ، هو تحويل أو تحوير الأشياء إلى الصورة التى تجعلها أكثر نفعاً أو جمالا .. وهو أيضاً دراسة القوانين المسيطرة على عمليات التحويل هذه ، ثم تطبيقها ..

اختر العمل الذى تصلح له

• وبالرغم من أن أعمال الإنسان متباينة لا تقع تحت حصر ، فإن هذه القواعد أو القوانين التى يجدر بالعاملين عامة أن يعرفوها ، قليلة محصورة :

فعلى المرء أولا أن يختار من المهن ما يتفق واستعداده . إذ أن لقدرة الإنسان وذكائه حداً ، ولن يقدر لذاك الذى يرغب فى عمل كل شيء ، أن يعمل شيئاً .. وكلنا نصادف فى أعمالنا ومجتمعاتنا ذلك الصنف من الناس الذى لم يؤت كفاءة معينة ، ولكنه لا ينفك يقول : « فى وسعى أن أغدو موسيقياً كبيراً » .. « ما أسهل الأعمال التجارية على » .. « فى إمكانى ولا شك أن أنجح فى الشئون السياسية » .. مثل هؤلاء لن يعدو الواحد منهم أن يصبح موسيقياً هاوياً ، أو رجل أعمال فاشلا ، أو سياسياً خائباً ! .. وقد كان « نابليون » يؤمن بأن فن الحرب يتمثل فى أن يحشد المرء أقصى قواه عند نقطة معينة ، وجدير بنا فى الحياة أن نختار نقطة نركز عندها قوانا . ولا ندع اختيار عملنا للحظ .. فيسأل الناشيء نفسه : « لأى الأعمال ترانى أصلح ؟ .. وما كفاءتى الطبيعية ؟ » .. ولن يجدى الإصرار على المستحيل ، فإن كان لك ابن لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلا ، فاجعله طياراً بدلا من أن تجعله رئيساً لإحدى الإدارات ، وهكذا .. ومتى عقد الإنسان اختياره على عمل ما ، وجب عليه أن لا يدع

للندم سبيلا إلى نفسه بأى حال ، ما لم يصادفه حدث خطير يضطره اضطراراً إلى تغيير اتجاهه .

بل إن فى المهنة الواحدة التى يختارها المرء ، مجالات كثيرة للاختيار .. فالكاتب لا يستطيع أن يعالج كل نوع من القصص ، والسياسى لا يملك أن يصلح كل وزارة ، والرحالة لا يقوى على أن يجوب كل بقعة ، وهكذا .. وفى هذا المجال أيضاً ، ينبغى على المرء أن يصمد ويقاوم ، فى عزم وحزم ، كل ما يغريه على أن يتولى أعمالا لا يصلح لها ..

ولا تضيع من الوقت فى الاختيار ، أكثر مما ينبغى .. فضابط الجيش إذا ما استعرض فى عناية عواقب أمر من الأوامر ، لا يلبث أن يقطع السبيل على كل تساؤل وتردد ، بأن يأمر رجاله بالتقدم .. وهكذا يجدر بك أن تضع حداً للأسئلة التى تهجس بها نفسك : « ماذا تكون الحال فى العام القادم ؟ .. هل أدرس لأتقدم لهذا الامتحان ، أم لذاك ؟ .. أو أرحل إلى الخارج ؟ .. أو أعمل فى هذا المصنع دون ذاك ؟ » .. والعناية والتأنى فى مناقشة هذه الأسئلة أمر طبيعى ، غير أن القرارات يجب أن تتخذ فى زمن معين ، ولا يكون بعد ذلك للندم أو للتغيير أى مجال ..

حدد برنامجك وتوفر عليه

• ولضمان التمسك والارتباط بالعمل الذى اخترناه ، يحسن أن

نكتب — من آن إلى آخر — جدولا للعمل ، يبين كلا من أهدافنا العاجلة والآجلة .. حتى إذا رجعنا إلى هذا الجدول بعد شهور أو سنين ، استطعنا أن ندرك مدى قوانا وحدودها .

ويجب أن تفصل ذلك الجزء الذى يتطلب عملا عاجلا — من برنامجك — فتركز فيه كل اهتمامك .. واعمل من أجله كل ما فى وسعك ، وأوقف كل قواك ومواهبك عليه .. أفرغ فيه نفسك وعصارة فؤادك ، وجاهد بجسمك وذهنك فى سبيل بلوغ الهدف .. فإذا بلغته ، حق لك أن ترجع لترتاد الطريق الذى قطعته ، وتملى عينيك من منظره ، وتتدبر العقبات التى كانت تعترضه .. ولكن ، لا ارتياد ولا استطلاع ما لم تكن قد أتممت مهمتك أولا !

وقد يروق لنا أولئك الذين يبدون اهتماماً بكل شيء .. بيد أنه لا يبرم الأعمال ولا ينجز المهام سوى أولئك الذين يقصرون اهتمامهم — فى الفترة الواحدة من الزمن — على أمر واحد .. إنهم قد يبلغون فى تمسكهم وتصميمهم أحياناً حداً يبعث السأم ، ولكنهم لا يلبثون بتكرار الإقدام أن يوفقوا إلى تحطيم العقبات التى تعرقل تقدمهم !

وعلى المرء أن يؤمن بأن النجاح ممكن .. فأنت إذا أتقنت اختيار هدفك ، ساعدتك قواك على أن تجتاز الأحداث كى تبلغه .. وليس من المجدى أن تأخذ على عاتقك السعى إلى أهداف لا سبيل إلى بلوغها .. بل إن هذا المسلك ينطوى على خطر ، إذ أن الفشل قمين بأن يحطم نشاطك وثقتك بنفسك ..

إن شاعر ألمانيا العظيم « جيته » ينصح الشعراء الناشئين بأن يكتبوا الأشعارَ القصيرة بدلا من أن يعالجوا القصائد الطويلة .. ويقول « صموئيل بتلر » إننا يجب أن نبدأ بخير ما فى العنقود من أعناب ! ..
وقد يكون من الأسلم أن نبدأ بأسهل الأجزاء إذا شئنا أن نؤلف كتاباً طويلا ومعقداً .. وخليق بنا أن نقسم العمل الطويل الذى يراد منا إنجازه ، إلى مراحل ، نركز فى كل منها بالتوالى اهتمامنا .. وعندئذ لا ينبغى أن نمد البصر إلى أكثر من حدود المرحلة التى نتولاها ، فى كل مرة ، مقتدين بمتسلق الجبال الذى يحفر فى الجليد مواطئ لقدميه ، ويعزف عن التطلع إلى القمم ، أو الهبوط ببصره إلى أعماق الوهاد ، لأن المنظر فى كلا الحالين قد يروعه !

بالصبر والدأب تنجز الأعمال

● ولقد تبدو كتابة تاريخ بلد من البلاد ، عملا فوق طاقة البشر ، عند التفكير فيها لأول وهلة .. لكنك إذا قسمتها إلى فترات وعصور ، وبدأت بالفترة التى تعرفها أكثر من سواها ، ثم أتبعتها بالتى تليها وهكذا .. فلسوف يدهشك أن تستبين ذات يوم أنك بلغت نهاية الطريق الشاق ! .. ولن يلبث القلب أن يكتسب جرأة بعد عدد من التجارب ، فالكاتب الذى ألف كثيراً من الكتب لا يخالجه شك ما فى قدرته على أن يتم كتاباً شرع فى وضعه .. إنه يقدم — كدوهاميل ، وجول رومان — على ارتقاء ركامات الكتب ، وكله ثقة فى

أنه بالغ يوماً ذروتها ! .. وهكذا حال المزارع الذى يقتطع «الدريس» من حقله ، فهو لا ينظر قط إلى الطرف الأقصى من الحقل .. وربة البيت التى تسعى لتنظيف بيتها ، إنما تتناول أرفف الصوان رفاً بعد رف ..

إن الأحمق يستسهل كل شيء ، فينتهى به الأمر إلى صدمات قاسية توقظه من غفلته .. والمتخاذل الخمول يرى كل أمر مستحيلا فلا يأتى عملا .. أما صاحب الجد والهمة ، فيعلم أن جلائل الأعمال ميسورة ممكنة ، ومن ثم يعكف عليها فى حكمة وتؤدة فلا يلبث أن ينجزها .. !

ولا بد من النظام فى العمل .. فما أكثر أولئك الذين يشكون من أن الحياة قصيرة ، ولكن ، كم منهم يعمل عمل الأحياء ثمانى ساعات فى كل نهار ؟ .. إن ما يستطيع أن يعمله الرجل الذى يجلس إلى مكتبه – أو يذهب إلى مصنعه أو متجره – منذ ساعة مبكرة من فجر كل يوم ، ليجل عن الوصف .. بل إن الكاتب الذى يكتب صفحتين فقط فى اليوم ، ينجز بعد عمر طويل ما أنجز «بلزاك» أو «فولتير» من مؤلفات .. من حيث الكمية ، لا من حيث المستوى طبعاً ..

ولكن المسألة لا تقتصر على الجلوس إلى المكتب أو الوصول إلى المصنع ؛ بل لا بد من توافر الهدوء .. فإنتاج العمل يزداد – ازدياد المتواليات الهندسية – إذا خلا مما يقطع استرساله .. وهذا صحيح

بالنسبة للكاتب الذى يحتاج إلى وقت كى ينسى العالم الخارجى ويستغرق فى أفكاره وتخيلاته .. وصحيح بالنسبة للميكانيكى الذى يبحث عن سر خلل آلة من الآلات ، أو الصانع الذى يشغل بتلبية الطلبات المنهالة على إنتاجه .. أما العمل المفكك فلا بد أن تظهر فيه آثار التوقف والتعطل التى تخللت إنجازه ..

لصوص الوقت !

● ومن ثم فعلى المشتغل أن ينأى عمن لا عمل لهم سوى تبديد الوقت . فهم أبداً لا يرحمون .. بل إنهم يسلبون من لا يصدهم آخر لحظة من وقته ، دون أن يراعوا أنه قد يبرم أجل الأعمال إذا هو ترك وحيداً .. وهم أراذل وقحون ، لا يتورع الواحد منهم ، المحنك فى سرقة الوقت ، عن أن يقصد إلى رئيس هيئة أركان حرب الجيش يوم إعلان الحرب ، ليناقشه فى الوضع العسكرى لبواب داره .. !

ويمارس سارقو الوقت عملهم هـذا عن طريق الزيارة ، أو التليفون ، أو الخطابات .. ومن الأخطاء الجسيمة أن نخجل منهم ، أو نشفق أو نصبر عليهم ، بل يجب أن يعاملوا بكل ازدراء وجفوة .. إذ أن مصاحبتهم ضرب من الانتحار !

وما أحكم ما قاله «جيته» فى هذا الصدد : «من الضرورات اللازمة أن تصد الناس عن أن يزوروك دون إخطار أو إعلان .. إنهم يصرون على أن يشغلوك بشئونهم ، وتملأ زياراتهم رأسك

بأفكار غريبة عن أفكارك .. وأنا شخصياً لا أريد مثل هذه الأفكار ، لأنني أتكبد فوق ما أستطيع كي أصل بأفكاري الخاصة إلى خواتمها الصحيحة » .. ومن أقواله الحكيمة أيضاً : « من شاء أن يعمل للدنيا ، فليحرص على أن لا تسيطر الدنيا عليه » .. ولسوف تزداد حكمة هذه النصيحة وضوحاً ، إذا ما انقلبت الدنيا تكيل لك اللوم ، يوم تفشل في أمر من الأمور .. !

ومما يؤثر عن « جيته » في صدد هذه الزيارات غير المرغوب فيها ، أنه كان إذا أفلح صفيق في أن ينفذ إلى داره — برغم أوامره — لقي من برود الشاعر العظيم ما يبدد رجاءه .. إذ كان « جيته » يعقد يديه خلف ظهره ، ويعرض عن الكلام ! .. فإذا كان الزائر ذا مكانة ، « تنحنح » جيته ، وغمغم بكلمات قليلة غير واضحة ، لا تلبث أن تضع لحديث حداً ! .. ثم إنه كان يقسم الخطابات التي يتلقاها إلى نوعين : تلك التي تتضمن رجاء ، وكانت تمزق .. وتلك التي تتضمن عروضاً ، وهذه كان يهملها بلا رد ، ما لم تكن العروض التي فيها مما يعود عليه بالنفع !

وقد يقال إن مثل هذه الأثرة قسوة ، وإن هناك من نابهي الذكر من يجيبون عما يتلقون من الرسائل ، كما أن من الثقلاء من يكونون أهلا للاهتمام أو العطف ، بل الود .. وكم من الناس عابوا على « جيته » هذه الخصلة الجافية للإنسانية ، ولكن هذه الخصلة بالذات هي التي مكنته من أن يؤلف « فاوست » و « فيلهلم مايستر » ! ..

ثم إن من يضع نفسه بين فكي الأسد لا بد أن يؤكل ، ويموت قبل أن يؤدي رسالته .. والشخص الذي يتملكه حماس قوي للعمل ، لا يرجو من سواه إلا ما يعينه ، فهو لا يتنصل قط من عمل مفيد يستطيع أداؤه ، ولكنه يفر من الأحاديث ، والاجتماعات ، ومجالس اللغو ..

بل إن « جيته » يذهب إلى نصح كل ذي عمل بأن يتجاهل الأحداث اليومية ، ما لم يكن يملك لها علاجاً .. فنحن إذا أضعنا ساعة من كل صباح في الاطلاع على أنباء الحروب البعيدة ، وساعة أخرى في الإشفاق مما قد يترتب عليها من عواقب — ونحن لسنا بالوزراء أو القادة أو الصحفيين — فلن نؤدي بذلك لوطننا خدمة ما ، بل نضيع ما لا سبيل إلى استرداده .. نضيع حياتنا القصيرة ، وكفاياتنا المهدرة ..

العزلة أوفى رفيق

● ولقد امتد سلطان النظام — عند « جيته » — من ميدان العمل إلى ميدان العواطف والأحاسيس .. وهو محق في قوله إننا إذا أسلمنا أنفسنا لميولنا العاطفية — دون تحفظ — لأعجزنا ذلك عن القيام بأي عمل .. ولما كانت بواعث هذه الميول والغرائز طبيعية ، فلا سبيل إلى نصح الناس بأن يضحوا بحياتهم العاطفية — في جميع نواحيها — من أجل العمل .. ولكن ينبغي أن نذكر دائماً في هذا الصدد قاعدتين.

أولاهما : أن لا ندع الانفعالات الفارغة أو المغالى فيها تحولنا عن عملنا .. فكم من درجات جامعية ضاعت بسبب نزوات غانية !..

والقاعدة الثانية : أن نضحى بكل شيء فى سبيل العمل الذى يبرر ويستحق مثل هذه التضحية .. كما فعل «بروست» حين وقف حياته على إتمام عمله الأدبى الخالد « البحث عن الزمن المفقود » .. وكما يفعل الزعيم الوطنى فى وقت الحرب أو الأزمات العصيبة ، حين يقف كل جهده وهمه على تأدية رسالته العظمى ..

ومن المشاهد أن جميع كبار العاملين — أو جلهم — رجال يعرفون كيف يلجأون إلى العزلة من آن لآخر .. فهم يملكون بيوتاً فى الريف ، أو أكواخاً فوق الجبال أو بجوار البحر ، يطرحون فيها عنهم كل المسئوليات ، حتى مسئولياتهم إزاء من يرتبطون بهم بروابط الود والصداقة .. وهناك فقط ، ترتد الأحداث والمشاعر إلى مكانها الصحيح من الصورة الكبيرة الشاملة .. إذ أن أية مسرحية ، أو مقال فى مجلة ، أو حماقة من لغو القول ، تبدو ذات أهمية فى خضم الحياة فى مدينة كبيرة ، فتستأثر من الشخص بنصيب من التفكير الجدى .. أما تحت السماء الصافية ، فى البقاع الخلوية ، فإن هذه التوافه الزرية لا تلبث أن تهجع فى الظلام وتختفى .. وإذ ذاك ، ترسى فى هدأة الليل وطمأنينة الروح أسس الصروح الخالدة، على أرض نظفت وطهرت من الأوشاب .. فما أوفى العزلة من رفيق !

العلاقة بين المرءوس ورئيسه

• ونحن قد تحدثنا حتى الآن عن أولئك الذين يختارون أعمالهم اختياراً ، ويتمتعون بحرية أدائها أو تركها ، ومن ثم يقع عليهم عبء تنظيم أنفسهم ، لأن أحداً غيرهم لن يتولى عنهم هذا التنظيم .. وخليق بنا الآن أن نذكر شيئاً عن أولئك الذين ليسوا بمبتدعين ، ولا قادة أو زعماء ، وإنما كل عملهم أن يساعدوا أفراد الفريق الأول ويقدموا إليهم المعونة .. من هؤلاء « الياوران » ، ورؤساء أركان الحرب ، ورؤساء الإدارات ، والسكرتيرون .. الذين يعهد إليهم بمجموعة خاصة من الإجراءات والأوامر يجب أن تتبع بدقة حتى لا تعترض الصعاب أولئك الذين يقتضيهم واجبهم فرض تلك الأوامر .. وهذا يتطلب خصالا خاصة .. فالرجل الذى يعمل مع غيره تحت أوامر ونظم معينة يجب أن يكون مجرداً من الزهو والخيلاء ، فهو إن كان ذا إرادة مفرطة القوة ، اصطدمت آراؤه بآراء رئيسه ، ولم يعد ثمة اطمئنان إلى تنفيذ الأوامر . نظراً لما سيبذله هذا من جهد كى يفسرها على ضوء آرائه .. ومن ثم ، كان الإيمان بالرئيس خير ما يربط بين المرءوسين ..

على أن الاحترام لا ينبغى أن ينقلب إلى عبودية بطبيعة الحال ، فالمرءوس إذا استشعر — أن صواباً أو خطأ — أن رئيسه ينزلق إلى خطأ جسيم ، وجب عليه أن يصارحه بجرأة .. بيد أن هذا التعاون

لن يؤتى أثراً فى الواقع ما لم يكن خلف الصراحة إعجاب وإخلاص صادقان .. وإذا لم يقتنع المساعد بأن رئيسه أكثر منه خبرة وأصدق منه حكماً ، لم يحسن خدمته .. ولكن من الواجب أن يكون انتقاد المرءوس لرئيسه ، حدثاً عابراً ، لا عادة متكررة ..

ومن المأثور عن المارشال « بيتان » أنه كان إذا رشح لأركان حربه ضابطاً جديداً صحبه إلى الريف — وعرض عليه إحدى مسائل « التكتيك » العسكرى . ثم تطوع لحلها بنفسه .. فإذا أقر الضابط حله دون نقاش ، رفض المارشال أن يقبله .. أما إذا انتقد الضابط آراء رئيسه العظيم فى حزم — لا ينتقص من احترامه له — فعندئذ كان يهنئه ويعينه فى المكان الشاغر !

ولكن ماذا يفعل المرءوس ، إذا كان متأكداً من أنه على صواب ، ومع ذلك أبى رئيسه أن يتقبل نقده ؟ .. إن عليه حينئذ أن يطيع الأمر بعد أن يقدم اعتراضاته . فلن يقدر لعمل جماعى أن يسير دون نظام .. أما إذا كانت المسألة من الخطورة بحيث تترك أثراً باقياً فى مستقبل دولة ، أو جيش ، أو مشروع تجارى ، فللمعارض أن يقدم استقالته .. على أن يكون هذا آخر سلاح يلجأ إليه ، إذ ما دام المرء يشعر أن بوسعه أن يكون نافعاً ، كان بقاؤه فى منصبه واجباً فى عنقـه !

وقد يكون التهديد بالاستقالة سلاحاً كافياً فى بعض الأحيان ، ولكن التهديدات لا ينبغى أن تتوالى بكثرة ..

افهم رئيسك وأكمل نقصه

• وعلى المرءوس ، أو السكرتير ، أن يهيىء نفسه ويروضها على أساليب رئيسه فى التفكير والعمل .. فقد تكون الأوامر التى يتلقاها مبهمة أحياناً ، يتعين عليه أن يترجمها ويجلوها .. وقد تكون اقتراحات عامة ، تبعث فى ظلمات المستقبل ومضات خاطفة أو مؤقتة ، فعليه أن يستخلص منها توجيهات مفصلة .. وإذا كان الرئيس فظاً أو قاسى الطباع ، كان على معاونه أن يخفف عمن يتعرضون لإهاناته أو فظاظته ، وأن يبصر الزائرين — من طرف خفى — بالموضوعات التى ينبغى أن يتحاشوها لتجنب إغضابه ..

وينبغى احترام نزوات الرجل العظيم ، لأن الوقت الذى يلزم لمكافحتها أثمن من أن يبدد .. وخليق بالمرءوس أن يعمل على فهم رئيسه ومسايرته ، طالما كان حتماً عليه أن يعاشره .. والموظف الحاذق هو الذى يعرف أى الكلمات يجب أن يتحاشاها فى وجود رئيسه ، لأنها تستثير فيه انفعالات نفسية مؤلمة ، وتوقظ غضبه .. وهو الذى يعرف كيف يعرض على رئيسه أى موضوع بلباقة ، بحيث يستثير اهتمامه به ويضمن رضاءه عنه ! .. وهو ولا شك يدرك أخطاء رئيسه ومواطن ضعفه ، ولكنه لا يدع هـذا الإدراك يقلل من احترامه له ، بل إنه على العكس يعمل جهد طاقته ليسد النقص الذى فى رئيسه ..

مهام المساعد والسكرتير

• والعمل مع أصحاب المناصب الكبيرة ، يجعل الناشئين الذين لم يتعودوا المسئوليات والسلطان ، ولم يمارسوا إصدار الأوامر ، على اتصال وثيق بمداولات وقرارات غاية فى الخطورة .. والكتمان فى مثل هذه الظروف الخاصة ضرورة لازمة ، إذ أن الشاب – أو الشابة – الذى يستخفه الزهو قد يجد فى اتصاله بالأمور الهامة ما يغريه على أن يتباهى على أصدقائه ، بأن يروى لهم ما يؤديه من أعمال .. فى حين أن طبيعة واجبه تستلزم عدم الكلام عنها ! .. مثل هذا النزق قد تتأتى عنه شرور لا عداد لها ، مع أن فى التكتم وصيانة الأسرار متعة لا تقل عن متعة الكلام والزهو ، فليس أبعث على الاعتزاز من أن يكون المرء مستودع الثقة ، وأن يعرف الحقائق ولكنه يخفى ما يعلم ! .. ولقد كانت « مدام ريكاميه » ذات براعة رائعة فى هذا المجال ، فقد أتى عليها وقت كانت تتلقى فيه أسرار زعماء الأحزاب المتعارضة .. بل كانت تظفر أحياناً بثقة رجلين يتنازعان منصباً واحداً ، أو تنصت إلى أسرار مؤلف وناقديه .. فكانت تصغى ، وتبدى العطف ، وتبتسم ، وتتحدث أحياناً عن الشخص أمام غريمه إذا دعا الأمر ، ولكنها قط لم تش بسر أحد !

ومن واجب المساعد – أو المرءوس – أن لا يقتصر على توفير البيانات التى يطلب إليه جمعها ، بل عليه أن يجمع البيانات التى قد

تلزم فيما بعد .. يجب أن يسبق أفكار رئيسه ، ويمهد الطريق لتنفيذها ، ويبدد الهواجس التى لا داعى لها ، ويسوى المسائل البسيطة من تلقاء نفسه ، ويبسط الإجراءات اللازمة التى تحوط كل ذوى المراكز الهامة ..

السكرتيرة المثالية

والسكرتيرة الكفء المقتدرة هى أكمل مساعد لمخدومها ، فإن دورها لا يقتصر على تلقى ما يملى عليها وطبع الرسائل على الآلة الكاتبة ، بل إنه يتطلب أيضاً أن ترتب وتنسق ردود الخطابات ، وأن تتذكر العناوين ، وأن تجعل من نفسها دليلا – أى « أرشيف » – متحركاً لرئيسها .. وبالاختصار فإنها يجب أن تكون لها كل فضائل رئيس الإدارة والمرأة معاً .. فهى كامرأة تمتاز ببديهة غريزية لماحة تمكنها من أن تشعر رؤساءها بلباقة بأنها تحترم اعتدادهم بأنفسهم ، ومن أن تبسط حول مكتبها جواً ترتاح إليه النفوس .. وعليها فى الوقت ذاته أن لا تبرز أنوثتها ، إذ أن العمل قد يرتبك إذا ما فطن أحد رؤسائها إلى هذه الأنوثة أكثر مما ينبغى ! ..

ومن ثم فلا بد لها من الاحتفاظ بالتوازن بين شخصيتها كامرأة ، وشخصيتها كموظفة ، وإن كان هذا التوازن شاقاً صعباً فى كثير من الأحيان ..

الآلات قد تقرب بين الطبقات !

● وقد ظل الناس زمناً طويلا يرون العمل عاراً ونقمة من السماء تحيق بهم .. فكانت الأعمال اليدوية ، وقسط كبير من الأعمال الذهنية ، توكل إلى العبيد .. ولقد حاول أهل الرأى والنظريات فيما بعد أن يقسموا الناس إلى عامة وخاصة ، أو إلى كادحين وميسورى الحال (أبناء الطبقة المتوسطة) ، فالأولون هم الأجراء ، والآخرون هم الذين يعيشون على دخل أو أرباح .. ولكن هذه التفرقة كانت مبهمة غير واضحة الحدود والمعالم ، لو أخذناها على علاتها لكان مدير المصرف الذى يتقاضى مثلا مائتى ألف فرنك فى العام ، من العامة ، الأجراء ، الكادحين ! .. ولكان صاحب المتجر الصغير ، أو مالك المساحة الضئيلة من الأرض ، الذى يحصل بكل مشقة على عشرة آلاف فرنك فى العام ، من الخاصة أو ميسورى الحال ..

على أنه إن كان تقسيم الناس إلى فريقين — أو « طبقتين » — محاولة خطرة وغير طبيعية ، فلا مراء مع ذلك فى أن من الناس من جنبوا العمل الشاق المضنى ، فى حين أنه ضرورة يومية لدى سواهم . ومن هنا ينبثق الحقد العميق بين أفراد الطبقتين .. فهل من الممكن أن نعالج هذا الشر الذى ولد مع الجنس البشرى ، لقد فشلت الثورات فى ذلك ، وستظل دواماً فاشلة فى هذه الناحية ..

على أن من المحتمل أن ينتهى تقدم الآلات إلى التقريب بين العامل

وبين « الخاصة » ، فقد انخفض فعلا خلال الأعوام المائة الأخيرة عدد ساعات العمل حوالى ثلث ما كان عليه .. وأصبح العمل الذى يتطلب قوة هائلة يترك للآلات كى تتمه .. وصحيح أن هذه الآلات قد عفت على ما كان يستخدمه العمال فى حرفهم من ذكاء وألمعية ومهارة ، واستبدلت بها نظاماً آلياً ينساب متوالياً ، بدقة ، بيد أن هذه مجرد مرحلة انتقالية .. ولن يلبث هذا النظام أن يتولاه أشخاص آليون أو ميكانيكيون — « روبوت » — فلا يكاد دور العامل يعدو الإشراف والمراقبة ، ومن ثم يصبح مهندساً ..

متعة العمل .. ودرجة إتقانه

● وأهم ما ينبغى أن نذكره بصدد العمل اليدوى ، هو أنه سواء كان العمل بسيطاً أو معقداً ، فإنه محتوم الأداء ، حسن هذا الأداء أو ساء .. فهناك من الوسائل لحفر خندق ، ما ينطوى على مهارة وما ينطوى على غباء .. تماماً كما أن هناك طرقاً تنم عن عناية وأخرى تنم عن إهمال ، فى إعداد أية محاضرة .. والكاتبة التى تنسخ ما يملى عليها ، على الآلة الكاتبة ، قد تؤدى مهمتها أداء عادياً ، أو تؤديها أداء رائعاً .. فإذا هى حاولت أن تؤدى عملها أحسن مما ينبغى عليها ، أصبحت فنانة ، وجوزيت على إحسانها بالرضاء الدائم .. فهى لم تؤد هذا العمل لمخدوم ، وإنما لإرضاء نفسها وإمتاعها ..

وقد تبلغ متعة العمل درجة من الكمال تمكنها من أن تطغى على

سواها .. وأنا حين أحاول تصوّر الجنة ، لا أتمثل صورة مكان تعمره أرواح مجنحة لا هم لها سوى الغناء والعزف ، وإنما تلوح فى خاطرى صورة مكتب أعمل فيه — دون حساب للزمن — فى وضع رواية رائعة لا نهاية لطولها ، بقوة ودقة قلّ أن أتمكن منهما فى الأرض .. وعلى هذا القياس تكون جنة البستانى بستاناً يعمل فيه على هواه .. وجنة النجار مقعداً يظهر فنه فى صناعته دون تدخل رئيس أو عميل ! .. إلخ .

المرأة ملكة البيت وخادمته !

● وخير مثال لامتزاج العمل اليدوى بالعمل الذهنى ، ما تفعله ربة البيت حين تسكب روحها ومشاعرها فى أداء واجباتها .. فالمرأة التى تجيد تدبير بيتها ، ملكة وخادم له فى آن واحد .. إنها تيسر العمل لزوجها وأطفالها ، وتقيهم الهموم ، وتغذوهم وترعاهم .. إنها وزيرة المالية ، إذ بفضلها يتم توازن الميزانية .. وهى وزيرة الفنون الجميلة ، فإليها ترجع فتنة البيت أو المسكن .. وهى وزيرة التربية ، تضطلع بمسئولية تنشئة الأولاد قبل التحاقهم بالمدرسة والكلية ، وإليها تنسب براعة البنات أو خيبتهن فى مستقبلهن البيتى والزوجى .. إلخ .

والمرأة تفخر عادة بنجاحها فى جعل بيتها عالما صغيراً كاملا ، كما يفخر السياسى الكبير حين يوفق فى تنظيم شئون أمته ! .. لكن

الواقع أن المرأة لا تكاد تعرف طعم الراحة إلا فى الأسرات التى أوتيت وفرة من المال .. أما فيما عداها فالمرأة لا تكاد تظفر «بإجازة» من عملها فى المتجر أو الشركة ، ولو ليومين فقط ، حتى تتلقفها فى البيت واجبات التنظيف والإصلاح والنهوض بلوازم الأطفال المختلفة ، ومطالب البيت والزوج العاجلة ! .. يضاف إلى ذلك ما ينبغى أن تبذله المرأة من جهود لكى لا تبدو بسيطة فى مظهرها ، فهى مضطرة إلى أن تعنى دائماً بانتقاء الثياب الأنيقة ، ولا تهمل فى تعهد زينتها ، بل ولا تغفل أيضاً شحذ ذهنها ! .. ولو أن المرأة أدت جميع المهام المطلوبة منها على خير وجه ، لما بقيت لها سوى لحظات قلائل من الفراغ .. لكن عزاءها عن تعبها أنها تظفر بجزاء جهودها فى الحال . فإنه لمن العجيب حقاً أن ترى كيف تستطيع المرأة الحاذقة — فى أيام قلائل ، وبالنذر اليسير من المال ، يدعمه القدر الكبير من الجلد والشجاعة — أن تحيل « الزريبة » إلى مكان بهيج يحلو العيش فيه ! .. وهنا يلتقى فن العمل وفن الحب فى مجال واحد !

لا تعليم بغير نظام !

● ومن أصعب فنون العمل وأحوجها إلى الخبرة الطويلة ، فن التعليم والتعلم .. وهذا ما نلمسه لأول وهلة حين نحاول السيطرة على أطفالنا ! .. على أن الأم أقدر من الأب عموماً فى هذا المضمار ، فالأب قلما يكون مدرساً طيباً لأولاده : لأنه إما مغرور لا يعرف غير النزر اليسير

ويتوهم نفسه « علامة » ! وإما واسع المعرفة لكنه عاجز عن الشرح والإيضاح .. وإما بالغ القسوة ، أو نافد الصبر ، شديد الضجر من مهمة التعليم .. أو مسرف فى التسامح مع أطفاله إلى حد تدليلهم ! .. وعلى أية حال فإننا ينبغى أن نتلقى قواعد فن التعليم من المدرسين المحترفين الذين أصابوا نجاحاً وتوفيقاً فى هذا الفن ..

ومعروف أن التعليم – عموماً – لا تقوم له قائمة بدون النظام ، وأن أول واجبات التلميذ أن يتعلم أولا كيف يعمل ويجد ، بحيث يكون تدريب الإدارة سابقاً على تدريب الذهن ! . وهنا السر فى أن التعليم المنزلى لا يصيب قدراً كبيراً من النجاح ، فما أسهل أن تلتمس فيه الأعذار للتهرب من الدرس ، وما أيسر أن تلقى هذه الأعـذار قبولا من الوالدين ! فحيناً يحس الصبى بصداع .. ومرة يتعلل بأنه لم ينم نوماً كافياً فى الليلة الفائتة .. وثالثة بأنه مدعو إلى حفلة شائقة .. إلخ . أما المدرسة فلا سبيل فيها إلى مثل هذا التسامح ، وهذه كبرى فضائلها وحسناتها ! .. وأنا أميل إلى تفضيل نظام المدرسة الداخلية ، فهو برغم نقائصه الخطيرة – وبرغم أنه قد يفسد الأخلاق أحياناً – يتسم بالصرامة ، ويخلق رجالا .. إذ يجبر الأولاد على أن يشقوا مكاناً لأنفسهم فى الجماعة بمجهودهم الخاص ، فى حين أنهم يجدون فى الأسرة هذا المكان معداً ، ومن السهل أن يشغلوه ! ..

تعترضنا بعد هذا « بدع » الأساليب التعليمية الحديثة ، التى أعتبرها أنا من قبيل « التسلية » ، والتسلية فى رأيى تناقض فكرة التعلم

من أساسها ، فهدف التعلم إقامة العمد الأولى لصرح المعرفة فى ذهن الطفل ، ورفع هذا الطفل تدريجياً – وبقدر الإمكان – إلى مستوى الذكاء المصطلح عليه « كمتوسط » .. ثم لا تلبث الحقائق التى يتعلمها الصبى من تجاربه واكتشافاته فى الحياة ، أن تزيد الصرح ارتفاعاً .. لذلك كان من الخطأ أن نحاول قلب هذا النظام الطبيعى ، وأن نجتذب عقل الطفل بالتأثير عليه ببدع الحياة الحديثة ، كالتعليم « بالصور » ، والراديو ، والسينما .. وغيرها من الوسائل المستحدثة التى لا ينبغى استخدامها فى الواقع ، اللهم إلا إذا كانت تدعو إلى جهد خاص أو تستثير فى الصبى حاسة خاصة .. ذلك لأن الشىء الذى يلقن بلا عناء ، ينسى بسهولة !

ولهذا السبب ذاته ، يكون التعليم الذى من طرف واحد ، أى الذى لا يتطلب مساهمة الطالب نفسه فى المناقشة ، غير ذى نفع فى الغالب .. إذ تنساب فيه « بلاغة » المدرس خلال إحدى أذنى التلميذ ، لتخرج من الأذن الأخرى !

لا خير فى البرامج المزدحمة

● والتعليم الأولى هو أهم مراحل التعليم – وإن كان الآباء لا يولونه حقه من الاهتمام – فهو ينشىء من عدد « قليل » من الموضوعات – تلقن فى البداية خير تلقين – الدعامة التى يرتكز عليها كل شىء فى المستقبل .. وفى رأيى أن الاقتصار على القليل من المواد ، مع العناية

بتدريسها ، خير من الإكثار منها مع عدم العناية .. فلا خير فى منهاج للدراسة يزدحم بالمواد ، إذ أن هدف التربية أن تنتج عقولا نشطة عاملة ، لا أن تنتج فنيين أخصائيين منذ صباهم الباكر ! .. ولقد قيل قديماً إن « التعليم يجب أن يسير بخطى بطيئة » . وهذه العبارة تنطوى على كثير من المعانى التى ينبغى أن يتدبرها بعض رجال التربية الحديثة ، ذوى الميول الخطرة التى تحبب إليهم إهمال الثقافة القديمة — وهى أهم الأسس لكل تعليم — وتركيز الاهتمام فى المذاهب والأحداث الحديثة .. فالمعرفة شىء والثقافة شىء آخر . والشباب أكثر حاجة إلى الثقافة منه إلى المعرفة ..

قد تكون القراءة رذيلة !

● وهذا يفضى بنا إلى سؤال هام : هل تعتبر القراءة « عملا » أو متعة ؟ .. يقول (فاليرى لاربو) إن القراءة « رذيلة لا عقاب عليها ! » .. ويناقضه (ديكادت) فيصفها بأنها « حديث مع أشهر عباقرة القرون الماضية » .. وكلا الرأيين فى نظرى صائب !

فالقراءة تغدو رذيلة إذا لجأنا إليها كمخدر أو منفذ للتهرب من الحياة الواقعة والتسلل إلى دنيا الخيال .. وممارسو هذه الرذيلة يقرءون باستمرار ، ويرون فى كل شىء مادة صالحة للقراءة .. بل إنهم قد يفتحون دائرة المعارف فيقرءون مقالا عن طرق استخدام الألوان المائية بنفس النهم الذى يقرءون به مقالا عن الأسلحة النارية ! ..

وإذا خلوا إلى أنفسهم فى غرفة ، تأملوا ما حولهم ، حتى إذا رأوا مجموعة من الصحف والمجلات ، اتجهوا إليها على الفور . وآثروا أن يستغرقوا فى القراءة — مهما كان موضوع ما يقرءون — عن أن يخلوا لحظة إلى أفكارهم .. فهم لا يسعون وراء آراء أو وقائع ، وإنما وراء مواكب لا نهاية لها من الكلمات ، تحول بينهم وبين مواجهة الدنيا أو مواجهة أنفسهم .. ومن ثم فهم لا يحتفظون فى ذاكرتهم بغير قدر ضئيل من مطالعاتهم ، وهم لا يقيمون وزناً يذكر لمصادر المعرفة التى يستقون منها .. وهنا ، تكون القراءة مسألة سلبية ، فهم يلتهمون الصفحات دون تمعن أو تأمل ، ودون أن يفردوا لها فراغاً فى عقولهم ، أو يستوعبوها بأى الطرق ..

هذا ، فى حين أن القراءة « للاستمتاع » عمل إيجابى ، فهواة الروايات يقرءونها لإرضاء هوى فى نفوسهم ، وأملا فى أن يصادفوا معانى الجمال التى تثير أو تهز عواطفهم ، أو يعوضوا ما حرمتهم الحياة من مغامرات .. إلخ . ومن هؤلاء من يقرأ لمتعة البحث بين ما أنتجه الشعراء والأدباء عن خير تعبير يصوّر خلجاته وتجاربه أو مشاعره الشخصية .. ومنهم من يقرأ التاريخ — دون أن يتوافر على عصر معين أو فترة بعينها — لأنه يجد متعة خاصة فى أن يتحقق من أن مشاعر الإنسان واحدة برغم توالى القرون ! .. وهذا « الاستمتاع » بالقراءة ، اتجاه سليم ولا شك ..

القراءة كمتعة .. والقراءة كعمل !

● على أن من القراءة ما يكون « عملا » .. وتلك هى التى يمارسها رجل يبحث عن نوع معين من المعلومات يحتاج إليه ليعزز أو يكمل صرحاً فى ذهنه يوقن من أهميته .. والقراءة كعمل يجب أن يصحبها قلم أو ريشة فى اليد ، ما لم يكن للقارئ ذاكرة جبارة .. فليس أضيع للوقت الثمين من أن يبحث المرء مرتين عن فقرة يريد استخدامها .. ولقد اعتدت حين أقرأ كتاباً فى التاريخ أو فى أى موضوع ، أن أسجل على غلافه مذكرات عن الفقرات الهامة ، وأرقام الصفحات ، وبهذا أستطيع أن أرجع إليها إذا دعت الضرورة ، دون أن أضطر لقراءة الكتاب بأكمله مرة ثانية !

وللقراءة — ككل عمل — قواعد خاصة .. وخليق بالمرء فى شبابه أن ينقب بين الكتب ، كما يبحث فى الدنيا عن الأصدقاء .. فإذا ما عثر على ضالته المنشودة منها ، واصطفاها إلى نفسه ، وجب أن ينفرد بها فى عزلة .. وإن ملازمتك للكاتب الذى تحبه وتصطفيه ، لتكفى كى تملأ عليك حياتك ..

وعندما يقرأ المرء ، يجب أن يولى كبار كتاب الماضى أعظم قدر من الاهتمام .. ولا مراء فى أنه من الطبيعى والضرورى أن يتعرف إلى كتاب العصر الحاضر ، إذ بينهم نجد الأصدقاء الذين يعانون هواجسنا ويحسون بحاجاتنا .. لكننا ينبغى أن لا نغرق فى تيار

من الكتب التافهة ، فى حين أن لدينا من الروائع عدداً كبيراً قد لا نستطيع أن نحيط به كله ...

فلنطمئن إلى ما اختارته القرون الغابرة .. وكما أن الإنسان يخطئ ، فليس بمستبعد على جيل من الأجيال أن يخطئ ، ولكن الإنسانية كلها لا تخطئ قط .. ومن المؤكد أن « هوميروس » و « شكسبير » و « موليير » أهل لما أصابوا من شهرة ، ولذا فمن حقهم أن نؤثرهم بقسط من التفضيل على الكتاب الذين لم يتعرضوا بعد لحكم الزمن ..

فن فهم الحياة

● ومن الواجب أن نحسن اختيار غذائنا الأدبى ، فكل ذهن فى حاجة إلى غذائه الخاص ، ومن ثم فعلينا أن نتبين أى المؤلفين نؤثر على غيرهم .. ونحن فى الأدب نعجب بما يختاره سوانا — تماماً كما فى الحب — لكننا ينبغى أن لا ندع أنفسنا ننساق لهذه العلة ، بل يجب أن نتشبث بما يروق لنا ، فنحن خير من يحكم فى هذا الصدد .

وخليق بنا أن نقبل على القراءة بالرزانة والعناية و « المهابة » أو الاستغراق الذى يحف بالحفلات الموسيقية الرفيعة ! .. فليس من القراءة فى شىء أن نقرأ صفحة ثم ننهض للرد على « التليفون » .. أو أن نختار أى كتاب جزافاً ، بينما أذهاننا شاردة فى أفق آخر ، ثم ندعه جانباً إلى اليوم التالى ..

إنما القارئ الصادق هو ذلك الذى يفرد الليالى الطوال . يخلو فيها إلى ما يقرأ .. والذى يخصص أمسية أحد أيام الأحد — فى الشتاء حين يتعذر الخروج — لمؤلف يعجب به .. والذى يرتاح إلى رحلة طويلة ، لأن خلوة القطار تتيح له فرصة قراءة رواية كاملة من روايات « بلزاك » أو « ستندال » .. والذى يستشعر فى إعادة تلاوة عبارة أو فقرة جميلة عين النشوة التى يستشعرها عاشق الموسيقى حين ينصت إلى لحن حبيب .. !

ومن ثم عليك أن تؤهل نفسك لتكون جديراً بالكتب الجليلة ، إذ أن استمتاعك بها يتوقف إلى حد كبير على استعدادك لقراءتها . وهذا الاستعداد يتوقف على ظروفك الراهنة ، فتحليل العواطف ووصفها مثلا لا يهم سوى أولئك الذين خبروها ، أو الشباب الذين يترقبون ازدهار مشاعرهم فى أمل وحنين .. وليس أبلغ تأثيراً فى النفس من رؤية شاب لم يكن يطيق فى العام الماضى سوى قصص المغامرات ، فإذا به يغرم فجأة بقصة « أنا كارنينا » ، بعد أن اهتدى إلى ما فى الحب من مباهج وآلام ! .. وبينما نرى كبار الرجال العاملين يحبون أشعار « كبلينج » ، إذا بكبار رجال السياسة يغرمون بمؤلفات « تاسيتس » و « ريتز » ..

وهكذا ، فإن فن المطالعة والقراءة هو — إلى حد كبير — فن تهذيب فهم الحياة ، على الأضواء التى يصادفها الإنسان فى الكتب ..

الفن موهبة .. ومران !

● وعمل الفنان يشبه عمل الصانع ولا يشبهه .. فى آن واحد ! فكلاهما يجب أن يحرز مهارة فنية لا سبيل إليها إلا بدراسة دقيقة على أساتذة من الأقطاب المتمكنين . على أن يتلو هذه الدراسة مران دائب .. وطبيعى أن الموهبة أو الملكة أمر ضرورى لكل فنان — كما أوتى موزار وبايرون وهيجو وشاتوبريان مواهبهم الفنية — غير أنه لا بد من إدراك أن هذه الموهبة تظل عقيمة ما لم تجد من الرعاية والتهذيب ما ينميها ..

ولقد أتيح لى أن أرى الشاعر الكبير « بول فاليرى » وهو يعمل ، ودرست مخطوطات « بروست » ، فتبينت أنهما لم يصلا إلى ما وصلا إليه إلا بالجلد على البحث . واستمرار المراجعة والتنقيح ، والجهد فى السعى بحثاً عن الكلمة التى تعبر أدق التعبير عن الفكرة ، أو التى لا يمكن أن تستبدل بها كلمة أخرى لأسباب خفية تقوم على تناسق الكلم والنغم فى العبارة .. وما يقال فى الأدب يقال فى الموسيقى أيضاً .. فإن كتابة مقطع موسيقى — تشترك فى أدائه فرقة كاملة — إنما تسبقه دراسة موسيقية واسعة عميقة ، لا تتأتى لغير النابغة العبقرى إلا بعد جهد طويل مضن .. وإنك لتجد فى أرق المبتدعات الفنيـة وأكثرها انطلاقاً . شيئاً من المران والتدريب والرياضة ، إلى جانب الموهبة الأصلية !

على أن اكتساب المهارة الفنية وإن كان ضرورة لازمة للصانع ، إلا أنه لا يعدو أن يكون « جزءاً » من عمل الفنان .. وإذا كان « فاليرى » يقول : « إنما يكتب الشعر بالكلمات لا بالعواطف » ، إلا أن كليهما ضرورى لأى شعر .. ومهما كانت صنعة الفنان متقنة ، فإنها بغير التأثيرات العاطفية تكون كالطعام بغير توابل ! .. ونحن نلمس فى ألحان « بيتهوفن » صنعة أو قالباً رائعاً ، ولكنها ما كانت لتبلغ ما بلغت لو لا أنه سكب فيها نفسه .. وأفكاره وآلامه ، وأفراحه !

ومن ثم ، فإلى جانب المهارة الفنية ، يجب أن تكون للفنان حياة يعيشها — أو بالأحرى عاشها — كى يعكسها على إنتاجه . وهو فى هذا يختلف عن الصانع .. وما الشعر إلا « مشاعر » تستذكر فى أوقات الهدوء ! ..

حق الراحة .. فن !

● وفن الراحة جزء من فن العمل ، فالمتعب المضنى الذى يكون فى أمس الحاجة إلى الراحة ، لا يمكن أن يجيد عملا ما .. وكلنا نعرف كيف تتبلد أذهاننا بعد ليالى الأرق والسهاد .. وفى حالة كهذه لا تكون ثمة جدوى من تطبيق مبادئ فن العمل ، إذ أنها تتطلب أن يكون العقل والجسم فى خير حالة ، قبل أى عمل .. والمخلوق البشرى لا يستطيع أن يعيش بلا عمل وراحة متعاقبين .. والواقع أن نظام الإنجليز بشأن الإفادة من عطلة نهاية الأسبوع ذو نظام حكيم

حقاً ، بالنسبة للصحة الاجتماعية ، أو صحة المجتمع .. وأذكر أننى رأيت وزراء فى الحكومة الفرنسية كان يبلغ بهم الإنهاك حداً لا يقدرون عنده على استبقاء أعينهم مفتوحة . ومع ذلك فقد كانوا مضطرين إلى اتخاذ قرارات كان سلام أوربا يتوقف عليها !

فى مثل هذه الحالة ، تصبح الراحة واجباً لازماً محتوماً .. وهى لا تكون فناً صعباً حين يكون التعب نتيجة جهد جسدى .. إذ لا يكاد الرجل يلقى بنفسه على السرير حتى يروح فى سبات عميق . أما إذا كان التعب ناشئاً عن مجهود ذهنى ، فقد يمتنع النوم والحاجة إليه بالغة .. وفى هذه الحالة يغدو النوم فناً ، إليك بعض أسراره :

لكى ينام المرء يجب أن يؤمن بمقدرته على النوم .. وقد تكون العقاقير — إذا أخذت فى جرعات بسيطة جداً — ذات نفع خاص فى هذا الصدد ، إذ تساهم فى هذا الإيحاء الذاتى .. وأول ما ينبغى فعله لجلب النوم هو أن يستلقى المرء فى وضع بعيد عن إثارة إحساساته الجسدية ، وفى ظلام دامس ، وحرارة معتدلة .. ثم ليطرد كل الأفكار الخاصة بالحاضر ، فهى تسبب الأرق .. وليجبر الذهن — إن أمكن — على استعراض الماضى البعيد ، حين لم يكن لأسباب القلق الذى نستشعره وجود — كرحلتى الطفولة والشباب الباكر .. أعنى أن يغلق عينيه ويحاول أن يرى وراءها صوراً لهذه الأحداث .. فلا يلبث أن يتسلل رويداً رويداً إلى دنيا هادئة يتيسر فيها النوم ! ..

وهناك طريقة أخرى تختلف عن هذه كثيراً . ولكنها فعالة

أيضاً .. تلك هى أن نهون من شأن الأرق وقيمته ، وأن نعتبره حادثاً سعيداً يسوقنا إلى تناول كتاب أو تأمل صورة .. ثم نرتقب فى هدوء – دون أن نفطن إلى الزمن – اللحظة التى يؤدى التعب الجسدى فيها إلى النوم ..

لتكن لك هوايات ..

● وكثيراً ما يكون من العسير أن يجد المرء النشيط الصحيح الجسم ما يملأ فراغه ، ومن ثم يتولاه السأم . ويروح يذرع أرض حجرته كحيوان حبيس ، ثم يغرق رويداً فى الرذائل التى لا تعدو عنده أن تكون مجرد وسائل لإثارة ما لا حصر له من الأحاسيس الحية فى جسده ، كى يملأ فراغه ..

ولقد أدت المدنية الحديثة بمخترعاتها وآلاتها ، إلى زيادة ساعات الفراغ ، فوجب علينا أن نتعلم كيف نفيد منها .. وإليك عدة أساليب نافعة فى هذا الصدد :

فأولا هناك من الأشغال التى يحترفها غيرنا ما يصلح لأن يكون مبعث ترويح لنا .. فالتمثيل ، وفلاحة البساتين ، وصيد الأسماك والطيور ، والتجارة ، كلها « أعمال » للمحترفين ، لكنها بالنسبة للهواة تسلية وترويح ، حتى لو استغرقوا فيها بأقصى ما يمكن من الجد .. ذلك لأن استخدام عضلات وأعصاب غير التى اعتدنا تحريكها ، لون من ألوان الراحة فى حد ذاته .. ولأن ممارستها توحى للهاوى بأنه قد تخلص من كدحه وكفاحه الشاق ، وبأنه حر فى أن

يكف عما يعمل فى أى وقت يشاء ، ومن ثم فهى تعفيه من تعب الالتزام والقسر ..

والألعاب أكثر أنواع النشاط تحرراً ، فهى لا تنطوى على مشكلات تتطلب أن تحل ، وليس هنالك سوى مجموعة بسيطة من القواعد الموضوعة يتفق اللاعبون على الخضوع لها .. ومن ثم لا يشعر لاعب الشطرنج أو لاعب البريدج بأنه يمارس عملا أو يكافح العالم ، وإنما هو ينازل مهارة بمهارة .. وفى هذا المضمار يوجد عاملان ينبغى توافرهما ليكون اللعب لوناً من الراحة : أولهما شعور اللاعب بأن لا أهمية للخسارة ، وثانيهما إدراكه أن تدخل الحظ له صلة محدودة بالنتيجة .. فإن قدح ذهنه كى يربح يريح أعصابه أكثر من انتظار هبوط الحظ عليه من السماء !

وخليق بنا أن نلاحظ الفوائد المعنوية أيضاً للألعاب المختلفة والرياضة : وأهمها أن اللاعبين هم الذين يلزمون أنفسهم باحترام القواعد ، لأن الألعاب لا يمكن أن تمارس بدونها . ولو أخذت كل أمة بهذه العادة أجيالا عديدة ، لاستطاعت أن تنجب مواطنين أشربت نفوسهم بحب القانون .. وإنك لتجد الإنجليزى مثلا يقول عن الخائن فى الحب أو التجارة أو السياسة إنه « رجل لا يؤدى اللعبة على أصولها ! » ، وما المدنية فى الواقع سوى ممارسة الإنسان لعادات وقواعد عادلة متعارف عليها ومتفق على قبولها .

المسرح والسينما والراديو .. « حياة بلا مسئوليات ؟ »

● ومشاهدة روايات المسرح أو السينما هي نوع من الراحة والترويح عظيم الفائدة ، فنحن نجلس أثناءها ساكنين نشاهد تصرفات سوانا .. ومبعث اهتمامنا بما نرى هو شعورنا بأنه عبارة عن صور إنسانية ليست بالغريبة عنا ، وأن الأحاسيس والعواطف التي تتضمنها المآسي والمهازل هي من أحاسيسنا وعواطفنا .. ومن ثم فنحن « نحيا » فيها مع الممثل ! .. ومن هنا ينبعث السبب في أن المسرح من وسائل الراحة ، فنحن في دنياه غير مطالبين بإبرام أمور أو اتخاذ قرارات .. وإنا لندرك أن « الدراما » التي نراها هي مأساة قد نعانيها ، ولكنها تدور في عالم خيالي .. وهي تنتزع النظارة من أوشاب العالم ، وتلفهم فيما تتضمنه من عواطف عميقة سامية ، وبهذه الطريقة تسمو بهم وتبعث الغبطة في نفوسهم .. وكذلك السينما والراديو ، إن هما إلا « فترات استراحة » تمدنا بمهام جديدة ، بانتزاعنا من صخب عالمنا ومتاعبه .. لكنها إذا أوغلت في التطرف والمغالاة ، أذهلتنا وخدرت تفكيرنا وحسنا ..

ومن أنواع الراحة أيضاً تغيب المرء فترة عن مقر إقامته ، لا لأن الأسفار تعفيه من الأعمال اليومية على اختلافها ، وإنما لأنها تحله من مسئولياته .. ذلك لأن المسافر — ما لم يكن ذا صفة رسمية — يعيش لنفسه ، فهو في ترحاله غير مسئول عن تصرفاته أمام مجتمعه أو

أسرته .. وليس أي بلد غريب نزوره في ترحالنا سوى مجموعة من المناظر الجديدة علينا ، فنحن فيه نتحرر من أعباء المسئوليات وما تبعثه من قلق وهم مستمرين .. ومن ثم ، فكل منا يحتاج بين وقت وآخر إلى فترة من التحرر والتجديد ، يعود بعدها إلى « الروتين » المألوف بروح منتعشة ، على أن فترات الراحة يجب أن تكون قصيرة .. وإن المرء ليدهش إذ يتبين كيف أن السفر لبضعة أيام فقط يستطيع أن يرد إليه انتعاشه الذهني !

للعمل عشاق صادقون

● والرجل الذي يحب عمله حباً صادقاً ، يعود إليه بعد الراحة القصيرة ، في شوق واشتهاء غريبين .. بل إنه حتى في فترة إجازته يفكر فيه برغمه ، ويحمل معه مشكلاته أينما ذهب .. فترى الكاتب في سفره يقلب في ذهنه عبارات ناقصة يحاول أن يصل بها إلى الكمال .. وإذا هو استيقظ في بهيم الليل ، قفزت إلى ذهنه مجموعات من الجمل والعبارات ، يروح يستعرضها في ظلام مخدعه محاولا أن ينتقي منها ما يروق .. وصاحب المصنع الذي يفر إلى شاطئ البحر في إجازة ، قد يتناول القلم والورق فجأة ليحسب من جديد نفقات التكلفة لأحد منتجاته .. ولو أن مصنعه كان قريباً ، لأسرع إليه — ولو كان في يوم من أيام السبت ، وقد انطلق أعوانه في عطلة آخر الأسبوع — كي يجوس في « الورش » الخالية ، يستعرض أحلام التعديل والتغيير وزيادة الإنتاج ، وتحسين وسائله ..

بل إنك لتجد الفلاح يجوس خلال حقله فى أيام الأحد يتأمل أشجاره ، ويتفقد آثار الأمطار الأخيرة على محصولاته ، ويرسل البصر مع الدروب الملتوية خلال الحقل وهى تمضى وتتسلق الهضاب أو تنحدر إلى الوديان .. يرى فى كل شىء لساناً يحدثه عما بذل فى الماضى من جهود ، ويستحثه على البذل من جديد ..

العمل خير مصلح للشعوب

● والواقع أن من أخطر أخطاء المجتمع الإنسانى ، تسرب الكراهية إلى الناس نحو أعمالهم .. فليس فى الخلال الطبيعية ما يفوق حب الرجل لما يعمل .. وقديماً قيل إن « العمل يقى الإنسان الضجر . والمفسدة ، والفقر » ، فهو دواء لكل شر يخطر ببال .. وإنى لأرى — عن تجربة — أن العمل « عبادة » ، تملأ النفس حبوراً .. والنشاط فيه يقى الإنسان شر نفسه ؛ أما التراخى فيسلمه فريسة للتندم الذى لا جدوى منه ، وللتخيلات الخطرة . وللحسد والبغضاء ..

لذلك كان أول أسس « فن الحكم » توفير العمل للأمة مهما كانت النفقات ، فالشعب الذى يسوده السأم يتعثر على حاكمه أن يسوسه .. أما الشعب المكب على عمل يؤمن بنفعه ، ويدأب بوحى من روحه على إتمامه ، فهو أسعد الشعوب ..

مختارات كتابي
إصـــدار جـــديد

عزيزى القارئ ..

فى العدد الأول من الاصدار الجديد لسلاسل (كتابى) ومطبوعاته ، قدمت لك (وجوه الحب السبعة) كما أبدع فى تصويرها أديب فرنسا الكبير « اندريه موروا » .

واليوم أقدم لك بين دفتى الكتاب الذى بين يديك ، أروع ماكتب « اندريه موروا » ، بعنوان (فن الحياة) ، ويضم ٨ فصول ممتعة ، هى بالترتيب :

فن الحب ، فن الزواج ، فن الصداقة ، فن الحياة العائلية ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن الشيخوخة ، وأخيرًا فن السعادة .

فتعال نستمتع بقراءة هذا الكتاب الرائع الذى يفوق (وجوه الحب السبعة) طرافة ، وإمتاعا .. والله ولى التوفيق .

حلمى مراد



١٥٠ قرشًا